

سأبكي يوم ترجعين
للكاتب أحمد عبد السلام البقالي

تجميع : فيتامين سي
شبكة روايتي الثقافية

[السلام عليكم و رحمة الله تعالى و بركاته]

سأبكي يوم ترجعين

رواية ليست ككل الروايات..
من أروع ما قرأت..
للكاتب أحمد عبد السلام البقالي..

من الروايات النادرة..
الصعب الحصول عليها..

شخصيا ، ما كنت لأحصل عليها لولا حب أمي للقراءة..
و حرصها على الاحتفاظ بكل ما قرأته في صغرها..

لن أطيل عليكم..
سأضع بين أيديكم رواية الكاتب " احمد عبد السلام البقالي.." "
أتمنى أن تنال إعجابكم..
مقدمة:

ماذا يحدث للعقل العبقرى حين ينقطع عنه تيار الحب ؟
قصة " اسماعيل البناء " تجيب عن ذلك..
تأخذك داخل العقل العبقرى البارد و دهاليز العاطفة البشرية
المحتركة..
قتلوا حبه العظيم مرتين..
فعاش حياتين..
و مات ميّتين..
عاش حياتين يحلم في إحداها بالمجد و شرف خدمة الوطن و
الإنسانية..
أما الثانية..

فهي موضوع هذه الرواية..
قصة " اسماعيل البناء " ليست ككل القصص..
ذلك أنها لم تنته بعد!..
فحذار من الاقتراب من منزله!

البارت الأول:

لم يكن إسماعيل البناء يعرف ما ينتظره على الأرض من قدر
رهيب!

و لو استطاع أن يطل من نافذة الغيب على ما ينتظره ، لفضل أن
تتحطم به الطائرة ، و يحترق جسده، و يتحول إلى رماد .. فذلك
أرحم!

كان غارقا في مقعده الوتير بالدرجة الاولى ، على متن الطائرة
القادمة من نيويورك إلى طنجة ، عن طريق لشبونة ، مستغرقا
في مراجعة تقاريره ، فلم يسمع همس المضيفة الحسناء و هي
تسأله:

—شامبان ؟

أحس بوجودها .. بظلها ، و عطرها ، و نسائم أنوثتها الناعمة،
ورفع رأسه فوقعت عيناه الواسعتان في عينيها الزرقاوين زرقاة
السماء خارج الطائرة .. و رفعت هي الزجاجاة الندية لتسكب

السائل المضيء في كأس بلورية رشيقة ، مستجدية موافقته
بابتسامة دافئة و كأنها ترجوه ألا يرفض .. فنزع نظارته، و
ابتسم لها بهدوء و قال معذرا:

—أسف يا آنسة .. سأسوق بعد الهبوط .. و شكرا على أي حال

..

و نظر من نافذه الطائرة إلى سماء صيفية رمادية اللون .. ثم إلى
الأرض ، فرأى بحيرته المفضلة .. كان يسميها التتين .. فقد كانت
تشبه ذلك الحيوان الأسطوري فعلا إلى حد الكمال ، بأقدامها
الأربعة الطويلة الأصابع و البرائن ، و برأسها التماسحي المتعدد
القرون و الأسنان ، و المفتوح الفم ، و بذيلها الطويل الشائك ..
كانت بحيرة شديدة الزرقة في منطقة جبلية وعرة قاحلة ، على
هضبة وسط الجزيرة الإيبيرية.

و عاد إلى أوراقه ، فلبس نظارته و تأكد من ربط حزام الأمان
الذي اعتاد أن يتركه معقودا، خشية الاهتزاز المفاجيء، ثم تناول
قلمه الجاف، و أخذ يلمس برأسه مفاتيح آله الحاسبة المركبة في
ساعة يده، و يملئ النتيجة على آلة الإملاء المصغرة داخل جيبه ،
من خلال ميكروفون معلق بعروة سترته.

و حين انتهى من وضع اللمسات الأخيرة على تقريره عن
المؤتمر الذي كان يحضره بواشنطن عن " تقنيات البناء الجاهز
السريع " ، أحس بسعادة كبيرة .. فاقفل حقيبة يده على الأوراق،
و وضعها جانبا، و تناول سماعة الموسيقى الموصولة بذراع
المقعد، ووضعتها في أذنيه، و دفع بالمقعد إلى الخلف، و اغمض

عينيه سابحا مع أغنية من شريط مسرحية (جنوب الباسيفيك :)

"يا له من صباح يوم جميل..

و نسيم رطب عليل عليل..

كل ما في الوجود حاز رضايا..

كل شيء يسير وفق هوايا" ..

و وقعت الأغنية من نفسه موقعا جميلا ، فطرب لها طربا شديدا

..

و حين انتهت شعر بوخز ضمير، و بالاثم لما خامره من سعادة..
فقد كان يحس في أعماقه أن الكمال لا بد أن يعقبه نقص.. و أن
السعادة المفرطة، لا بد أن تنتهي إلى شقاء.

لم يكن الثراء الشخصي هدفا في حياته، فقد حقق في السنوات
السبع الأخيرة من النجاح المادي ما جعله يعد بين أثرياء المدينة
العشر الأوائل .. و لم يكن ذلك بالأمر اليسير إذا اعتبرنا خلفيته
المتواضعة..

نشأ اسماعيل البناء في بيت عمالي فقير كثير العيال.. و كان
صغير إخوته التسعة، و أذكاهم و أكثرهم تألقا.. و قد أنقذه نجاحه
الدراسي من ترك المدرسة و الانضمام إلى أبيه و إخوته في عمل
البناء..

و استطاع الحصول على منحة بمجرد دخوله الثانوي، فرفع عن والده ثقل مصاريفه.

و احرق المراحل بسرعة، و حصل على منحة إلى الولايات المتحدة للاختصاص في تقنيات البناء السريع الجاهز القليل التكاليف، و الذي كان يشعر في أعماقه أنه ضرورة قصوى لجميع بلدان العالم الثالث.

و في الولايات المتحدة التقى " بكارين " في بيت عائلة صديقه.. و كاد يصعقه جمالها.

كانت صغيرة الحجم، رشيقة الحركة، ناعمة الصوت، شديدة سواد الشعر، و بياض البشرة، و اخضرار العينين...

و لم يكن يدري أنها اعجبت به في سرها بقدر ما اعجب بها.. فقد كان لا يعد نفسه من بين من يلهبون خيال النساء، لذلك كان يعتبر فوزه بها و الزواج منها أعظم من أي فوز علمي حققه، كان يعتبره معجزة و فلتة من فلتات الطبيعة.

و عاد إلى طنجة صحبة زوجته كارين، ففتح مكتبا للمقاولات الهندسية.. و عرفه الناس بتواضعه و جديته، و رافته بالفقراء في معاملاته، إلى جانب اتقانه لعمله، و عنايته بالنواحي الفنية و الجمالية فيه.

و بنجاحه السريع في عمله، بدأ يحس في أعماقه بأنه مؤهل لعمل

أهم من إدارة شركة هندسية، و مكتب مقاولات معمارية عاديين.

و زاد هذا الاحساس وضوحا تواردا الخواطر بينه و بين (كارين) زوجته، التي كانت تتنبأ له بمستقبل عظيم، و تثق في قدرته ثقة عمياء، كانت مصدر قوة هائلة بالنسبة له. فقد كان يحدثها عن مشكل الاسكان في بلاده، و كيف أن الأجهزة المختصة تتخبط في حضيض من العجز و الجهل بالطرق العلمية الصحيحة لحله، و بانعدام الأطر الكفأة للقيام بعمل حاسم في وجه تزايد السكان المستمر.. الأمر الذي قد يسبب هزات اجتماعية خطيرة في المستقبل القريب.

و أعلن عن موعد الانتخابات النيابية فرأى فيها أملا لتحقيق أهدافه الوطنية الكبيرة، و فرصة لتوعية المسؤولين و الرأي العام بالمشكل السكني، و التوجه إلى حله.. فقد كان يؤمن إيمانا مطلقا بأنه أصلح رجل لحل تلك المشكلة في بلاده، و العالم الثالث بأسره.

و عزم على ترشيح نفسه.. فاستشار عددا من (أصدقائه فتحمسوا جميعا للفكرة و أخذت زوجته (كارين) على عاتقها تنظيم حملته الانتخابية على الطريقة الأمريكية بكل ما يلزم من شعارات، و ملصقات، و قمصان و لافتات تحمل صورة المرشح و شعاره البارز " : دار لكل أسرة"

و في هذا النطاق قبل الدعوة لحضور المؤتمر بالولايات المتحدة حتى يكون على علم بآخر ما وصلت إليه تقنيات فن البناء الجاهز السريع.

وحاول إقناع كارين بالذهاب معه لزيارة عائلتها، فأثرت البقاء
لأعداد تفاصيل الحملة الانتخابية، فسره حماسها، و اهتمامها
البالغ بالحملة.

و ليته كان ارغمها على الذهاب معه، و لكن لا سبيل إلى ارجاع
شريط الزمن.

و عاد من المؤتمر أكثر حماسا، و ثقة بنفسه، و إيمانا برسالته..
فقد وجد نفسه اصبح حجة كبرى في هذا الميدان.. سبقته سمعته،
بما كتبه من مقالات في الدوريات و المجالات الاختصاصية في فن
البناء الجاهز، إلى جميع الأوساط المهمة، و أصبح يشار إليه
بالبنان بين أكبر الاختصاصيين في ميدانه.

و كان على استعداد لأن يتعهد للمسؤولين في بلاده بالقضاء على
أزمة السكن في أقل من عشر سنوات.. أن يبني مدنا كاملة في
بضعة شهور بحيث لا يتعدى الوقت المطلوب لبناء المنزل الواحد
بضع ساعات..

مر كل هذا بسرعة البرق في ذاكرة اسماعيل البناء، و هو
يستمرىء أنغام الموسيقى الناعمة..

و لم يقطع جبل ذكرياته إلا صوت الطيار الذي أوقف الموسيقى
ليعلن عن اقترابهم من صخرة جبل طارق، والبوغاز، و بالتالي
نهاية رحلته إلى طنجة..

و نظر من نافذة الطائرة إلى صفحة البحر المتلألئة تحت أشعة الشمس الغاربة، و إلى البواخر الضخمة عابرة المحيطات تبدو صغيرة كلعب الأطفال، ثم فتح حقيبته و اخرج آلة حلاقته الكهربائية، فمر بها على وجهه سريعاً، و صب من زجاجة عطر في يده، و غسل وجهه مستعداً للنزول..

و عاد ينظر إلى شواطئ طنجة التي كانت أمواجهاً تتكسر بطيئة و كأنها مخدرة تحت هدأة المساء، و حمرة الشفق الحالمة. و في تلك اللحظة بدأت أضواء المدينة تتلألأ على طول الشوارع العريضة، و بين العمارات، و عبر شبكة الطرق و الممرات المنتشرة فوق الجبل، و كأنها تصحو من قيلولة، و تستعد لمهرجان.

و حطت الطائرة على مدرج المطار.. و خرج اسماعيل بين تحيات رجال الشرطة و الجمارك الذين كانوا يعرفونه جميعاً، إلى موقف السيارات، حيث كانت سيارته في انتظاره، كما تركها قبل ثلاثة أيام.

و ارتعشت كبده حين تذكر طفلته (نورا) شوقاً إليها.. فقد كان لا يطيق فراقها.. كان يعتبرها تاج سعادته الحقيقية. فقد فجرت جميع ينباع الحب و الفرحة و الجمال، و حب الحياة و الناس، جميع الناس، في أعماق روحه و وجدانه فكان يرجع كل يوم من مكتبه، يستعجل السيارة، و يستطيل المسافة، لكي يلتقطها من مهدها، حين كانت طفلة دون العام، أو يجدها تنتظره وراء الباب حين بدأت تمشي.. كان يقضي معها اعذب أوقاته و أحلاها، و هي تلعب بأصابعها المكتنزة الصغيرة في وجهه و شعره، و تملأ

وجهه لعبا أحلى من الشهد، و تطرب قلبه بأصواتها السعيدة
كأغاريد الملائكة، و أنغام الفردوس.

و تسلق طريق الجبل المنعرج بسرعة سائق سباق إلى حيث كانت
تقع الفيلا القديمة التي كان يسكنها.. كان اشتراها من أحد
القناصل الذين سكنوا طنجة أيام كانت دولية فكانت تحفة فنية
رائعة..

و اقترب من الفيلا فاحس بانقباض مفاجيء في صدره.. لم يكن
يدري، و هو يلوي المنعرج الأخير ، أنه سيقرب صفحة جديدة في
حياته.. صفحة لا ككل الصفحات التي عاشها منذ رأت عيناه
النور.

و لاحت بوابة الفيلا فرأى حولها عددا من سيارات الشرطة، و
سيارة اسعاف، و عددا من رجال الأمن، و رجال الصحة، فدق
قلبه بعنف شديد، و ارتخت اعصابه حتى كاد يفلت منه زمام
السيارة.. و لكنه كافح لايقافها على جانب الطريق، و خرج فارغ
الركبتين، لا يكاد يقوى على الوقوف ..

لا زالت الرواية في بدايتها..
انتظروا باقي الاجزاء..

في أمان الله..

بارت 2:

خرج فارغ الركبتين، لا يكاد يقوى على الوقوف..

فأسرع نحوه ضابط الشرطة الذي كان يعرفه، و أمسك بذراعه و
سأله بلهفة:

—ماذا حدث ؟

فأجاب الضابط مشيحاً بوجهه عنه.

—تعال معي يا ستاذ اسماعيل، ادخل اولاً.. لابد أنك متعب من
السفر..

فنزع اسماعيل ذراعه بقوة، و توجه نحو باب الدار و هو يصيح
:

—ماذا حدث ؟

و دخل ينادي صائحا:

—كارين ! كارين!

و على الباب وجد أخاه الأكبر خارجا فأمسك بذراعيه:

—محمد .. ماذا حدث ؟ أين كارين ؟ أين نورا ؟ ماذا حدث ؟ هل
حدث شيء لنورا ؟

و خرجت أمه تبكي فأدرك أن شيئاً رهيباً حدث.. و هنا قال له
أخوه الأكبر:

—البركة فيك يا اسماعيل..

و لم يسمع ما قاله أخوه، فأزاله من طريقه، و دخل:

—كارين ! نورا!

و لحق به أخوه يحاول الإمساك به حتى لا يؤذي نفسه من
الانفعال..

—اسماعيل .. اسماعيل..

و وصل غرفة النوم فوجد أحد اخوته على بابها، و قد ورمت
عيناه من البكاء.. و حاول منعه من الدخول..

—اسماعيل أرجوك .. لا تدخل! ..

فأمسك ب صدره و أزاله بقوة شيطانية عن الباب، و فتحه و دخل..
و هناك على السرير الكبير كانت جثتان مغطتان بazar أبيض..
أحدهما كبيرة، و أخرى صغيرة..

و وقف اسماعيل وسط الغرفة ينظر بعينين جهنميتين إلى الجثتين
ثم تقدم ينادي:

—كارين .. كارين .. نورا .. نورا..

و نزع الغطاء عنهما ، فإذا بهما غارقتان في الدم الأسود و قد
فارقتهما الحياة، فأصبحتا دميمتين من شمع بارد..

و تسمر في مكانه هو الآخر، و كأنه اصبح تمثالا من النحاس، و
غاضت من عينيه كل علامات الحياة الانسانية..

و دخلت أمه و رمت بنفسها عليه تبكي و تنوح، و هو غير شاعر
بوجودها.. و اجتمع عليه أبوه و أخوه و اخوته يحاولون إخراجهم
من الغرفة و هو واقف مسمر عينيه على الجثتين الهامدتين..

و هنا دخل أحد أصدقائه الأطباء و معه ممرضة، فأمسكت هذه
بذراع اسماعيل، و حقه الطبيب بحقنة افقدته الوعي بعد لحظات،
فأرتخى بين أيديهم، فوضعوه على

محفة و اخرجوه إلى سيارة الاسعاف..

و انطلقت السيارة إلى عيادة صديقه الخاصة، و هو بجانبه يجس
نبضه، و يضع قناع الاكسجين على انفه و فمه حتى لا يتوقف
عن التنفس او يختنق..

و في العيادة أدخلوه غرفة الإنعاش، و أحاطوه بعدد من الآلات
الدقيقة و الأسلاك، و هو غائب عن وعيه تحت خيمة من
البلاستيك الشفاف.

و أصرت أمه على البقاء إلى جانبه فسمح لها الطبيب بذلك، و
أمر لها بسرير إضافي داخل الغرفة، على شرط ألا تزعج المريض
بأي شيء، و باتت الأم الحزينة إلى جانب فراش ابنها الغائب عن
الوجود، تصلي و تسبح و تدعو له بالشفاء العاجل، و تدعو على
القتلة بالنقمة و عذاب النار..

و أعطى طبيب الحراسة الأوامر لمرضة كفأة بالبقاء إلى جانبه،
و تتبع تطورات حالته، فجلست إلى جانب الأم العجوز تقرأ في
مجلتها و تبادلها الحديث، من حين لآخر، حين يبدو عليها أنها
ستنفجر في نوبة نحيب، و تدخل حالة كآبة..

و سألتها الممرضة في أول الليل:

—ماذا حدث ؟

فحركت الأم رأسها إلى اليمين و اليسار، و أخذت تحكي بنبرة
مثقلة بالتعاسة و الحزن، و الدموع تتقاطر من عينيها، و هي
تجففها بينما الممرضة تشجعها:

—لا تحبسي دموعك.. الدموع تغسل القلب من الحزن.. و سوف
يفيق ابنك اسماعيل من غيبوبته، و نرجو ان يبكي هو الآخر
كثيرا، فالبكاء علامة خير..

و أحست المرأة المسنة بقليل من الراحة بعد انهماك دموعها، و
بدأت تحكي:

—لا أحد يعرف كيف حدث ذلك.. كان ولدي اسماعيل غائبا في
أمريكا.. و بالأمس أخبرتنا زوجته الأمريكية (كارين) أنه سيعود
صباح اليوم فذهبنا لاستقباله عند زوجته و طفله (نورا)
الصغيرة الغالية.

و اجهشت بالبكاء عند ذكر اسم (نورا) حفيدتها الحبيبة،
فوضعت الممرضة يدها على كتفها، و سألتها لتخرجها من كمدها
أو سؤال خطر ببالها:

—لماذا لم تذهبوا لاستقباله بالمطار ؟

فحركت العجوز رأسها قائلة منتحبة:

—لم يكن اسماعيل يسمح لنا باستقباله بالمطار.. كان يخاف
علينا جميعا من أخطار الطريق.. مع تكاثر الحوادث هذه الايام..
كان يفكر لنا في كل شيء.. كل شيء..

و نظرت إلى وجه ابنها تحت خيمة البلاستيك، و أخذت تدعو له
بالشفاء و السعادة. و من تحت الخيمة كان اسماعيل يسمع كل
شيء، و يرى من بين جفنتيه المرأتين بوضوح و هما يتحدثان،

و لكنه لم يكن قادرا على الانضمام إليهما، و كأنه كان يراها في حلم، أو في شريط سينمائي يمر أمامه.. لم يكن يحس بالألم، و لكنه كان عاجزا تماما عن تحريك أي جزء من جسده حتى لسانه أو شفتيه، و حتى جفنيه أو مقلتيه.. و كان يخيّل إليه في غيبوبته أنه قادرا على الخروج من بدنه، و تركه على السرير جثة بلا حراك، و العودة إلى منزله.. إلى كارين و نورا..

و جاءه صوت أمه و هي تحكي للممرضة:

— و دخلنا الدار، أنا و الحاج أبو اسماعيل.. و ناديت كارين التي كانت بدأت تتكلم العربية من أجل الحديث معي.. المسكينة ! ناديتها من الباب الخارجي على عادتي، فلم أسمع جوابا.. و توقعت أن أرى بنتي الصغيرة نورا و هي تدرج في الحديقة كعادتها في تلك الساعة، فلم أرها.. و لم يخامرني أي شك في أي شيء بالمرّة، رغم أن باب الدار الداخلي كان مفتوحا على مصراعيه، حين دخلنا.. و حين دخلنا .. دخلت أنا الأولى لأمهد الطريق للحاج كعادتنا، و جدنا منظرا يطير العقل.. وجدنا الصبية هي الأولى مطروحة على أرض المدخل و قد تهشم رأسها الصغير .. و .. و..

و أسرع الممرضة إلى الإمساك برأس الجدة التي بدأت أعراض
الغثيان و اصفرار اغماء تظهر عليها.

و كسرت عود انعاش قريبته من انفها حتى استرجعت صحوها، و
نصحتها بالتمدد و الاستراحة..

و شاهد اسماعيل كل ذلك، و سمع الاصوات، و شم رائحة
المحلول المنعش النفاذة و انتظر في صبر أن تعود أمه إلى اتمام
القصة. و كان بوده لو يهز جسده المسجى هزا. و يقعد أو
يقف، بل تمنى لو استطاع أن يفتح فمه و ينطق باسم نورا أو
كارين..

و كان فضول الممرضة أقوى من أن يثبطه غثيان العجوز، و
ضعفها، الأشياء التي صارت عندها جزء من عملها اليومي، لا
تهز عاطفة، و لا تدعو لشفقة، فحالما احست براحة العجوز
عادت تسألها:

—ماذا حدث بعد ذلك .. ؟

فتتهدت المرأة بأسى عميق، و أجابت:

—ليس هناك ما يحكى يا بنيتي .. قتلوها أعداء الله.. ذبحوها
كما تذبح الخرفان..

—و لكن من فعل ذلك ؟

—لا أحد يعلم حتى الآن.. رجال الشرطة يقولون أنها عصابة
لصوص، فعلا سرقوا كل شيء.. كل ما استطاعوا حمله.. لم
يتركوا إلا المطارب، و الموائد، و الكراسي الكبيرة. و ليتهم أخذوا
الدار بأكملها، و أبقوا على حياة زوجة ابني، و صغيرتها الغالية.

—هذا عمل انسان حاقد ! ماذا سيجني أي لص من قتل امرأة و
طفلة صغيرة بريئة ؟ سترين.. سيقعون في قبضة العدالة. و
ستقتص منهم أشد ما يكون الاقتصاص.

و راحت تدعو عليهم بالطاعون و الخراب. و الجدة العجوز تنظر
إلى الأرض، و تحرك رأسها في حسرة و ألم..

و قامت الممرضة لتتنظر إلى الأجهزة الملتصقة اسلاكها بأطراف
اسماعيل، فوجدت انخفاضا خطيرا في عدد دقات القلب. فخرجت
تنادي طبيب الحراسة.

كان اسماعيل قد سمع ما راج بين أمه و الممرضة، فأحس كأنه
يغرق في لجة خائفة من الزفت و العفن.. و حاول الصراخ، و
البكاء و الفرار، و لكن جسده ظل هامدا جامدا لا يتحرك..

و دخل طبيب الحراسة، فنظر إلى مؤشرات الأجهزة، ثم كشف
الغطاء، و راح يذلك صدر المريض، و يضرب عليه بقبضته لعله
يستجيب، بينما الأم تنظر مبهورة و تصيح:

—ولدي .. ولدي..

و تقاطر العرق على وجه الطبيب الجديد الشاب، و هو يدلك منطقة القلب و ينظر إلى مؤشر النبض، ثم يضع رأسه على صدر المريض لينصت آملا أن يكون بالآلة عطب.

و أخيرا انسحب يائسا، و غطى صدر المريض، و اسدل عليه غطاء الخيمة و وقف يمسح عرقه، بينما الممرضة تضم الأم العجيز في محاولة تهدئة روعها، و الأم متهاكة تنوح، و تردد:

—أريد أن أموت ..! أريد أن أموت .. ! لا حياة لي بعدك يا اسماعيل! ..

و اضطر الطبيب إلى حقنها بمنوم قوي اسلمها في الحين إلى نوم عميق، و خرج الطبيب، فوضعتها الممرضة على سريرها، ثم توجهت نحو اسماعيل، فرفعت عليه الخيمة و نزعت كل ما كان ملصقا بجسده من اسلاك و انابيب ، ثم غطت وجهه بالازار، و راحت تنظف المائدة المجاورة و تجمع ما كان فوقها من أدوات..

و في الصباح الباكر، رن جرس التلفون إلى جانب سرير الطبيب مدير العيادة الذي كان صديقا شخصا لاسماعيل، فحضر في الحال.. و قابله على باب العيادة طبيب الحراسة المتدرب الشاب، و الممرضة، فقصد إلى غرفة المتوفي بخطى واسعة و هو يسأل :

—متى حدثت الوفاة ؟

فردت الممرضة:

—في الرابعة و أربعين دقيقة بالضبط.

و تدخل الطبيب الشاب:

—توقف القلب.. حاولت التدليك، فلم ينفع.

و فتح الطبيب الرئيس باب غرفة اسماعيل، و دخل، و توجه نحو السرير، و رفع الغطاء عن وجهه، و نظر إليه، فدق قلبه بعنف.. لم يكن وجهه وجه رجل ميت.. إنه رأى آلاف الأموات من قبل. و هذا ليس وجه رجل ميت..

و تناول يده فحس النبض، و كأنما لم يصدق فطلب السماعه من الطبيب الشاب، و استمع بها إلى قلب الرجل، و صاح فجأة:

—هذا الرجل حي!

فشهقت الممرضة للمفاجأة، و اقترب الطبيب المتدرب يريد أن يتأكد بنفسه:

—مستحيل ! هذا الرجل كان ميتا بجميع المقاييس الطبية.. و لا يمكن أن يعود إلى الحياة إلا بمعجزة!

و أخذ السماعه من الطبيب الرئيسي و أنصت إلى القلب:

—اذن حدثت المعجزه.. لابد أنه كان توقفا مؤقتا..

و هنا تحركت يد اسماعيل فأمسك الطبيب الرئيسي بها، و توجه إليه بالكلام:

—اسماعيل .. اسماعيل .. هل تسمعي ؟

و هنا انفتحت عينا اسماعيل، و تحركت شفثاه في ارتعاشة خفيفة، فكاد الطبيب يصرخ من الانفعال:

—هل تسمعي ؟ كيف تحس ؟

فحرك اسماعيل شفثيه دون صوت .. فقال الطبيب:

لا ترهق نفسك .. لا تحاول الكلام.

و القى بأوامره إلى الممرضة و الطبيب المتدرب، فخرجا، و عادا بعدد من الحقن و الأجهزة..

و أفاقت الأم من نومها العميق فلم يفهم ما كان يحدث.. و بدأت تتساءل بينها و بين نفسها : هل كانت وفاة ابنها حقيقة أم حلما ؟ لا بد أنها كانت حلما.. فها هو الطبيب يركب الاسلاك و الأنابيب بساعده، و يطلق عليه خيمة الاوكسيجين مرة اخرى.. و لم تمض بضع ساعات حتى فتح اسماعيل عينيه ، و رفع رأسه قليلا ليرى ما حوله. و انحنت أمه عليه تقبل جبينه، و تبalle

بدموع السعادة و الفرح..

و نظر هو إليها، و إلى الممرضة و سأل:

—أين أنا ؟

فأجابت الممرضة:

—في عيادة صديقك، الدكتور رضوان.. لقد تعرضت لحادث خفيف،و الآن عليك أن ترتاح..

و نظرت الأم، و غمزتها، فحركت رأسها متواطئة..

و خرجت فعادت بالدكتور رضوان الذي أمسك بيد صديقه المهندس، و أخذ يحدثه و يداعيه:

—الحمد لله على سلامتك، يا عزيزي اسماعيل.. لقد كدت تذهب عنا.. عهدتك شجاعا قويا لا ترزعك الأحداث مهما كانت عصبية.. و الآن، كل شيء يعتمد عليك.. عودتك إلى والديك، و إخوتك، و أصدقائك، و جميع الذين يحبونك و يعتمدون عليك و على معنوياتك.. على صمودك للصدمة، و كفاحك من أجل العودة إلى الحياة.

و تماثل اسماعيل بالشفاء تدريجيا، فوقف على قدميه، و خرج إلى حديقة العيادة.

و لكن الدكتور رضوان كان يخفي قلقا من حالته.. خلال ما قرأه من بحوث علماء النفس حول هذه الحالات، ان المريض لا يمكن أن يتم شفاؤه إلا اذا انفجر انفجارا كاملا، و نفس عن برحائه بالدمع أو بالثورة أو بأي طريقة.. ما دام صامتا فمعنى ذلك أنه كبت الحدث بكامله في عقله الباطن.. و معنى ذلك ان الانفجار سيحدث بالداخل، و لا يعلم إلا الله أي شكل سيتخذ ذلك الانفجار!

و إذا كانت روح اسماعيل البناء قد اصببت بعطب كبير، فإن عقله خرج من المحنة سليما، بل و أكثر توقدا و حدة.. فأدرك ما يجول بخاطر صديقه الدكتور رضوان دون أن يصارحه هذا بشيء..

و في صباح يوم طلب اسماعيل الذهاب إلى المقبره للوقوف على قبر زوجته و ابنته. و اعتبرها الطبيب علامة تحسن تدعو للاستبشار.. و حضرت أمه و أبوه، و بعض إخوته، فذهب الجميع إلى المقبرة.. و وقفوا على القبرين الحديثين.. قبر كارين التي سمت نفسها كريمة بعد أن أسلمت، و قبر ابنتها نورا الصغيرة إلى جانبها، و كلاهما مرشوش بماء الزهر، و أوراق الورد و الريحان..

و لم يكن اسماعيل بحاجة كبيرة إلى تزييف عواطفه ليطلق لدمعه العنان، فقد ركعت أمه إلى جانب القبرين، و بكت بحرقة كبيرة.. فأجهش هو الآخر، و انهمرت دموعه مما اضطر والده و أخويه إلى الإمساك به حتى لا ينهار..

و في داخله كانت عين ناشفة تنظر إلى كل ما كان يحدث حولها بقسوة و برودة دم..

و هنا الطبيب، بعد عودته، بالشفاء الحقيقي من كل آثار الصدمة.. و عاد إلى داره يتقبل عزاء المعزين، و كان من بينهم رئيس الشرطة الذي أقسم له، و هو يعزيه، أن يد العدالة لن ترتاح إلا حين تمسك بالمجرمين..

و سمعه بعد ذلك يشرح للعامل بأن العصابة ليست محلية، و أنها لابد جاءت من الدار البيضاء للاصطياف بطنجة، و السطو على منازل بعض الأثرياء، و لكنه لم يستطع تقديم شرح معقول لقتلهم الزوجة و ابنتها الصغيرة..

و كان اسماعيل، و هو يتلقى التعازي، و يربت على اكتاف الباقيات من المعزيات، يستمع إلى رئيس الشرطة بعقله الباطن، و يرد عليه في سره بسخرية و استهزاء بسخف منطقته:

"إذا لم تعرف السبب في قتل زوجتي و بنتي، فأنا أعرفه.. لقد رأيتهم يقتلونهما كانوا يعذبون أولا كارين بالتهديد بقتل ابنتها اذا لم ترشدهم إلى مكان حليها، و خزانة أموال زوجها.. لم ينفع توسلها، و شرحها لهم أن حليها يوجد في صندوق خاص بالبنك، و كذلك أموال زوجها.. و أنهما لا يتركان شيئا نفيسا في الدار لكثرة سفرهما..

"ولشدة خيبة أمل رئيس العصابة العنيف الطبع، أمسك بالطفلة الصغيرة من أحد ساقبيها، و أدارها في الهواء، و هي تصرخ، و الأم تستغيث و ضرب برأسها الحائط حتى تشتت مخها..

"و وقعت الأم مغشيا عليها فلم تشعر بهم حين ذبحوها، و راحوا يجمعون من أثاث الدار و تحفها كل ما خف حمله، و غلا ثمنه، و يخرجونه إلى السيارة (الفورغونيت) الواقفة على الباب " ..

و نظرت عين عقله الحاقدة القاسية إلى رئيس الشرطة، و قالت:

"هذا بالضبط ما حدث ، يا رئيس الشرطة" !

و بعد أسبوع من مغادرته المستشفى أعلن أنه سيأخذ اجازة الى الخارج، فوافقه الجميع على الفكره .. بقاؤه في مكان المأساة لن يساعده على نسيانها..

و هكذا حزم حقيبته، و طار إلى لندن حيث استأجر شقة مفروشة في أحد الأحياء القديمة، و اشترى مجموعة من الكتب اختارها من مكتبة (فويلز) الكبرى بعناية و دقة، و اختلى بها يدرسها و يسجل ملاحظاته..

و في الصباح كان يقصد المتحف البريطاني، و يقضي به ساعات النهار الأولى، بين المعروضات الفرعونية، الكتب القديمة بمكتبة المتحف..

و سجل نفسه في إحدى مدارس الكبار المسائية لدراسة الفنون الإلكترونية، فبهر أساتذته بسرعة استيعابه للمعلومات الدقيقة ، و التفاصيل المعقدة، بحيث اضطروا إلى نقله، في مدة شهرين إلى قسمهم النهائي.

و كان اعجابهم به مقرونا بعجب و استغراب، مما جعل أحد
أساتذته يسميه (الظاهرة المغربية)، و يعلق على تفوقه السريع
بقوله:

— هذا المغربي، إما أنه يتمتع بذكاء خارق فوق البشر، أو أن
شيطانا ماردا يركب أكتافه!

أفعلا سافر اسماعيل من أجل نسيان مأساته ؟

لا زالت قصة اسماعيل في بدايتها..

انتظروا التتمة..

في أمان الله..

البارت 3:

و بعد ثلاثة أشهر عاد متجدد النشاط، و قد تورد وجهه، و باتت
عليه آثار العافية...

و نزل بمطار النواصر بالدار البيضاء أولا، و قصد مكتب مهندس
صديق له يدعى ابراهيم الحبيب، و طلب منه مصاحبته في جولة
عبر القطع الأرضية المعروضة للبيع داخل الدائرة الحضرية.

و سأله صديقه ابراهيم:

— لماذا تريد الارض ؟

— لبناء دار.. دار أجعل منها تذكارا لزوجتي كارين، و ابنتي

نورة..

و تأثر الصديق للفكرة:

— هذا أجمل ما يمكن أن تفعل!

ثم تساءل مستغربا:

— ولكن لماذا هنا في الدار البيضاء ؟ ألا يكون ذلك أنسب في طنجة ؟

— لا.. أنا أفضل الدار البيضاء.. و سوف أنتقل للسكن و العمل هنا.. فلم أعد أتحمل الوجود في طنجة..

و حرك الصديق رأسه فاهما:

— آسف ! لم يخطر في بالي..

ثم تغيرت لهجته إلى سرور، و قال:

— إذن ، قررت الانتقال الى هنا.. دعني أكون أول المرحبين.

فابتسم اسماعيل، و قال:

— أرجو ألا تعدني منافسا لك..

—نأفس يا أأى ! نأفس ما شئت ! سترىأنا من كثرة الأشعال..
وسوف نجد صديقاً قديماً نأى معه ذكرىات الصبا و الدراسة..

و أخرج المهندسان يآولان فى أأمل أأىاء الءار البىضاء و
أرقاها.. و كلما وءءوا قطعة مناسبة رفضها اسماعىل؁ أأى لم
أبق إلا الأأىاء الشعبىة الفقيرة..

و على أافة اأءى المءن القصءىرىة استوقف اسماعىل صءىقه
ابراهىم؁ و سأله:

—هذه القطعة.. لمن هى ؟

فنظر ابراهىم إلى البقعة التى كانت أشبه ما تكون بمزبلة؁ لا
أفصلها عن أزام المءىنة القصءىرى إلا أابة صغىرة من أشجار
الصففاف؁ و نظر إلى اسماعىل مستغرباً:

—هذه القطعة ؟

—نعم هذه..

—أرىءها لبناء الءار ؟

—نعم؁

أنت أمزأ!

—لماذا ؟

—موقعها.. أنت لا تعرف هذه المدينة.. لا أحد يجروُ على وضع قدميه هنا حتى في وضح النهار، حتى رجال الشرطة يأتون إلى هنا معززين بالرجال و السلاح ! فهذه المنطقة تعج باللصوص و عتاة قطاع الطريق..

—لمن هي الارض ؟

—إذا أصررت، فسأبحث و أخبرك غدا صباحا، و لكن، أكيدا لا تنوي اقامة تذكارك الجميل وسط هذه.. هذه..

و لم يرد اتمام الجملة، فقاطعه اسماعيل:

—أنا أنظر بعين المستقبل.. فهذه الارض هي الاتجاه الذي ترحف نحوه المدينة. و سوف يصبح أجمل ضاحية في المدينة، سترى...

حرك ابراهيم رأسه غير موافق.. و لكنه لم يرد معاكسة صديقه.. و أضاف اسماعيل، غير طامع في اقناعه:

—أما فيما يخص الأمن، فمجرد وجود دار حسنة البناء، محاطة بهالة الاحترام و الحراسة وسط هذه المنطقة، سيجعل اللصوص و القطاع يرحلون عنها، و يبحثون عن مكان أنسب لنشاطهم.. يجب على المواطنين أن يساعدوا في مكافحة الجريمة.. و لا بد لاحد أن يبدأ.

و أشرف اسماعيل بنفسه على بناء الدار، جاء بعدد هائل من العمال، و آلات الحفر، و الجرف، و الخلط، و الرفع، و النقل، و تناوب على العمل ثلاثة افواج يعملون ليل نهار، فسويت الأرض، و أقيم حولها سور خلال يومين، و جاءت آلات احفر الجبارة فحفرت قبوا عمقه ستة امتار، و حفرت فيه عشرة آبار لا يزيد عمقها عن مترين، افرغت من مائها، و غلفت بعدد من المواد التي لا تتأكسد من البلاستيك المقوى لخزن الزيتون و الحبوب و الوقود، كما أشار إلى ذلك تصميم الدار.

ثم بلطت الأرض، و افرغت السواري، و السطوح، و النوافذ، و الأبواب، و مدت القنوات و أسلاك الكهرباء و التلفون و لم تمض على البناء شهران حتى كان الصباغون قد خرجوا منها و تركوا الطريق للمزخرفين و المؤثثين.

و كان المهندس اسماعيل يقف على رؤوسهم ليل نهار، تحت اشعة الشمس، و الأضواء الكاشفة بالليل، و لا أحد يدرى متى ينام هذا الرجل أو يأكل، كانت كل نوبة تعتقد أنه مشرفها الخاص، و لم يكن يرحم الكسول، أو الجاهل، أو المخطيء، كان ينقده حسابه، و يصرفه في الحال، و يأتي بغيره، و لم يكن أحد يتجرأ على رفع صوته ضده، لارتفاع الأجور التي كان يدفعها لهم، و لاشتراطه عليهم ظروف عملهم مسبقا.

و في نهاية الشهر الثالث بالضبط، و كما قرر في تصميمه خرج آخر عامل من الدار، و تركوها تحفة رائعة من تحف المعمار الحديث.

كانت تلمع بالنهار تحت أشعة الشمس كجورة عملاقة من أكمل
الجواهر نقشاً و صقلاً ! و بالليل كانت تتلألأ و كأنها فانوس
مضاء من البلور المتعدد الألوان و الأشكال : و يبدو كل ما
بداخلها من الخارج، حتى تسدل الستائر المخملية الخضراء فكان
الأطفال و النساء و الغلمان يتعلقون بالسور لينظروا إلى الدار
الجديدة التي نبتت بين يوم و ليلة، في قلب منطقتهم الجائعة
الوسخة، المتعفنة، المتوحشة، كقصر من قصور هارون الرشيد
التي يسمعون عنها من رواة الأزليات في الأسواق، أو حلم من
الأحلام، بما يشع من داخلها من بهاء و ترف و رياش.

و علق أحد ضباط الشرطة، و هو ينظر إلى الدار ليلاً من نافذة
سيارته، و يحرك رأسه بمرارة لزميله:

—صاحب هذه الدار لا بد أن يكون مجنوناً ! انه كالذي وضع
خروفا بين الذئاب ! ثم انه لم يتقدم حتى الان للسلام على رئيس
الدائرة، و طلب مساعدته في حراسة الدار، لابد أنه يتمتع بثقة
الأغبياء.

ثم أشار إلى السائق ليتحرك، و هو يقول مشيراً إلى الدار:

أرجو لك حظاً سعيداً!

—و في الاسبوع الاول لم ينطفئ النور داخل الدار طوال الليل،
و كانت بعض الشاحنات، و سيارات شركات مختصة في الكهرباء
و الحديد و الرصاص، و المواد الكيماوية، تصل مشحونة بعدد

من المواد، و الأجهزة الالكترونية، المعقدة، و يحملها العمال إلى تحت، ثم يخرجون، ليبقى اسماعيل يشتغل في تركيبها في أماكن تركت لها خصيصا في هدأة الليل، لا يغني و لا يصفر، و لا يسمع حتى الموسيقى.

و خلال مدة البناء كان يذهب إلى طنجة مرة كل اسبوع. ثم كل اسبوعين ليطمئن على سير أعمال المكتب هناك، و ليثني عزم والديه و اخوته عن زيارته بالدار البيضاء.

و في النهاية استقر في الدار، و بعد أن انتهى عمل البستانيين الذين نشروا بساطا كثيفا نظيفا من العشب الأخضر حول الدار كلها، و تركوا الأماكن لأدغال الزهور، و الورود و أشجار الفواكه.

و في المساء بعد الغروب، كانت ترصد اسماعيل عشرات العيون المصطفة على السور لجماعة من الفضوليات و الفضوليين، من أطفال و بنات الحي القصديري المهترىء و رجاله و غلمانه، و هو جالس في أحد صالوناته يقرأ في كتاب، أو يتفرج على التلفزيون.

و كان بعض الجريئين منهم يقفز إلى داخل الحديقة، و يقترب متلصصا من احدى النوافذ ليتفرج على التلفزيون أو ينظر إلى قطع الأثاث النفيسة و عناقيد التحف المصفوفة بذوق سليم، على الرفوف الزجاجية، أو داخل نوافذ الخشب المصندل، و إلى اللوحات الزيتية المعلقة تحت أضوائها الخاصة، و تماثيل العاج، و البرونز، و الرخام، و الفضة، و البلور، و الخشب، و إلى الزرابي

الحريرية المبتوثة في كل مكان فلى رخام البلاط اللماع، و كأنها
تسبح فوق الماء.

و في الحادية عشرة و النصف من كل ليلة كان النور ينطفئ في
مجموع الدار.. و تنزل الستائر المخملية، و شبابيك الحديد الآلية
التي تغلق النوافذ و الأبواب الأرضية دون أن تحجب النور.

و في تلك الليلة، صعد اسماعيل إلى غرفة نومه الفسيح بالطابق
الأعلى ، و خلع ملابسه، و دخل في منامته الحريرية، و استلقى
على سريره العريض و أطفأ النور، ثم مد يده فضغط على زر من
عشرين زرا على آلة أنيقة بجانبه، فانفتح السقف على سماء
مخملية سوداء، لا تضيئها إلا ثقبوب النجوم المنثورة بالملايين...

و ضغط على زر آخر فانحسر السقف الزجاجي الذي كان يفصل
جو الغرفة عن الجو الخارجي، فأحس اسماعيل بالليل يتدفق
بأمواجه الصامتة إلى داخل المرقد.. و ترامت إلى سمعه أصوات
الغرائيق، و الكروانات و حفيف أجنحة الخفافيش، و أوراق شجر
الغابة المجاورة..

كانت الليلة ناعمة دافئة و حالكة، فأحس اسماعيل بخدر غريب
في جميع حواسه و هو يتأمل المجرة، و ينقل بصره بين نجومها
و كأنه عقل مجرد سابح في أعماق الكون اللانهائية ، لا تربطه
بالأرض و لا بالزمن صلة..

كان هذا النوع من التأمل يدخل على قلبه المحترق نوعا من
الراحة.. فوجوده على كوكب صغير تافه، بعيد كل البعد عن وسط

المجموعة الشمسية التي ينتمي إليها في بحر زمن لم تعرف له
بداية، و لن تعرف له نهاية، كان يشعره بصغره أمام ضخامة هذا
الكون و بالتالي بتفاهة مشاعره و أحزانه..

و أخرجه من تأملاته صوت ظن أنه سمعه.. فضغط على عدة
أزرار انقل على إثرها السقف بطبقتيه، و ظهرت جهات الدار
الأربع على الشاشة التي تغطي الحائط أمامه، و ارتفع به نصف
الفرش الأعلى حوالي ستين درجة.. و لما لم ير شيئاً يتحرك عاد
إلى ضغط زر لاطفائها..

و يبدو أنه أخطأ الزر المقصود فظهر على الشاشة العريضة
شريط بالألوان الطبيعية، و الحجم الكبير، لزوجته (كارين) و
طفلتها (نورا)، و هما على الشاطئ في ملابس السباحة، و
الموج يتكسر خلفهما، و نورة تملأ دلوها الصغير بالماء، و
تحمله إلى أمها لتبني لها قصراً من الرمل، و بين الفينة و الفينة،
كانت (كارين) ترفع رأسها الصغير الأنيق، لتغمز اسماعيل، و
هو يصورها بابتسامة خضراء من عينيها الزمرديتين الدافئتين، و
هي جاثية على ركبتيهما تمثالاً رائعاً للسعادة و النجاه، و الحب و
الحياة..

و بداخله كانت يدان تمتدان في شوق لاحتضان تلك المخلوقة
النورانية، و عناقها و رفعها عن الأرض، و الخروج بها إلى عالم
الحقيقة.. و من أعماقه كان يصدر نداء اخرس تتردد أصداؤه بين
أطلال روح خربة، و تجري بين دروبها غدران من حميم، و تثبت
على أرضها أشجار الزقوم و الحنظل، تصفر بين أغصانها
الشوكية رياح السموم..

كان وجه اسماعيل جامدا يابسا و هو ينظر إلى صور الشريط
التي كانت تملأ عليه الغرفة، و كلمات (نورا) الصغيرة العذبة، و
مناغاة (كارين) الموسيقية..

و انتهى الشريط، و غرقت الغرفة في ظلامها الأول، و عاد
الهدوء، فمد يده، و ضغط زرا أعاد السرير إلى وضعه الأفقي
فاغمض عينيه ، و استرخى ، و كأنه يراود النعاس..

و ما كان لينام..

لم يعرف اسماعيل النوم ، كما يعرفه الناس، منذ يقظته من
غيبوبته الكبرى بالعيادة بطنجة.. كان يأوي إلى فراشه، و
يستلقي و يغمض عينيه، و لكنه لم يكن ينام، بل كان ينسحب من
عالم الأحياء إلى عالم موحش، بارد، مظلّم من الخرائب و
الأطلال، و في كل درب كان يلتقي بقتلة (كارين) و (نورا) ، و
هم ينفذون فيهما الحكم الرهيب.. و كان يصرخ، و يعدو، و أحيانا
يرتفع عن الأرض و يطير للانقضاض عليهم، فيقع على الأرض
أو يخوض في لجة خائفة من الزفت و الابخرة المتعفنة، فتبدأ في
ابتلاعه رويدا رويدا، و هو يجاهد للخروج منها ، مستغيثا
بأصوات خرساء مكبوتة..

و لا ينقذه من عالمه الداخلي إلا الصباح..

إلا أنه في تلك الليلة، و حوالي الساعة الثالثة صباحا، استيقظ
على جرس وضوء أحمر يصدران فن الآلة المعقدة إلى جانب

سريره .. و فتح عينيه في تام اليقظة و حضور الذهن، فنظر إلى لوح المؤشرات المضاء إلى الآلة، فخفق قلبه، و دق بسرعة و عنف.. كان يحس احساس الصياد الكامن في الأدغال مدة طويلة، حين يقع صيده الثمين المراوغ في شبابه، أو الصياد في البحر حين ينجذب خيطه بقوة إلى تحت..

و ارتعدت فرائصه من الانفعال و التوقع، فأخذ يخاطب نفسه بصوت مسموع محاولاً تهدئة روعه، فقد فاتته الا يكون، و هو المهندس البارع الدقيق، قد أخذ الاحتياطات اللازمة لهذه اللحظة بالذات، اللحظة التي بنى الدار من أجلها، و من أجل مثيلاتها و زودها بأحدث ما يصل إليه العلم الحديث من أجهزة الرصد، و الكشف، و الاستدراج، و الاحاطة، و التصوير، و التسجيل، و التخلص، و التمويه.

و مد يده ، فلمس زرا بجانب السرير، فارتفع ظهره ليصبح اريكة مريحة، و جذب الجهاز المعقد الذي كان يشبه آلة كاتبة، فانجذب بسهولة فوق الذراع المثبت بالحائط، ليستقر أمامه كمائدة افطار، و نظر إلى لوحة المؤشرات فوجد أن رقم (3) مضاء بالأحمر ، و مد يدا مرتعشة و لمس الرقم، فظهرت على الشاشة الكبيرة أمامه صورة حية بالألوان الطبيعية لشاب يسبح داخل بئر، و قد ارتسم الرعب في وجهه، و هو يحاول الامساك بشيء ما فلا يجد الا الحائط الرخامي الاملس..

أكيد أن نوايا اسماعيل لآ تخلو من الشر..
و بآله لآ تخفى عنه فكرة الانتقام..
هآ هو اسماعيل قد بدأ في لعبته..
أمعقول ، و هو الذي ذآق مر الفقد..
أن يصبح مجرد من ذرة احساس .. !؟

انتظروا البآرت الرآبع..

دمتم بخير

البآرت 4:

و أخذ اسماعيل يدير الأزرار و صورة وجه الشاب تقترب و تكبر
على الشاشة، و هو يغطس ثم يعود إلى السطح فاتحا فمه في
استغاثة صامتة.

و مد اسماعيل يده فأدار مفتاحا آخر فبدأ الصوت، هو الآخر،
يسمع داخل الغرفة، كان صوت رجل يغرق و يطلب النجدة، فأدرك
اسماعيل أنه لا يحسن السباحة و ضغط زرا آخر فغاض بعض
الماء حتى لامست قدما الغريق قعر البئر، فوقف يلهث غارقا إلى
عنقه في الماء و ينظر إلى الضوء المسلط عليه من فوق، و
يطرف بسرعة دون أن يدرك ما حدث له..

و انطفأ عليه النور فجأة فأخذ يدور في مكانه، و يتحسس الحائط

و قد داخله رعب شديد من الظلام. و نشطت مخيلته فبدأ يتوقع كل شر.

و ضغط اسماعيل زرا آخر فظهرت على الشاشة الشرفة الطويلة المحيطة بالطابق الأعلى للدار، و رأى شيئاً يتحرك فأدار الزر لتقريبه، فإذا هو شاب آخر يبحث عن الأول بين النوافذ و الأبواب الكثيرة المظلة على الشرفة. و ضغط اسماعيل زرا آخر فانفتح أحد الأبواب التي كان يقترب منها اللص، و حين وصل إليها، نظر حواليه، و هم بالدخول. و ما كاد يصع قدمه داخل الغرفة حتى انشقت الأرض و ابتلعتة، و عادت إلى الانسداد.

و لم يدر اللص ما أصابه، فقد وجد نفسه ينزلق نازلاً في شبه حلقوم معدني ناعم ملولب حتى غطس في بئر ماء بارد، و وجد نفسه تحت الماء يجاهد للصعود إلى السطح بكامل ما أوتي من قوة، و لفظه الماء فطفا على سطحه و هو يشهق و يملأ رئتيه بالهواء، و ينظر حواليه في توقع، و توجس، و رعب.

و لمس اسماعيل زرا آخر، فظهر امامه الضحية الثاني يسبح و ينظر إلى النور المسلط عليه من فوق، و أسنانه تصطك من الخوف.

و قام اسماعيل فدخل في معطفه المنزلي، و نزل إلى القبو بمصعد خاص ينفتح على باب سرية من مخدع نومه، و في القبو دخل في ممر طويل على جانبيه عشرة أبواب معدنية كان على اثنين منها نور أحمر، و قصد الباب الأول ففتحه عن طريق ادارة رقم كما تفتح خزائن البنوك، و دخل، و اقفله خلفه.

و في الغرفة الصغيرة المستطيلة كان كرسي مريح أمامه جهاز اليكتروني كالذي بجانب سريريه، فجلس على الكرسي، و أخذ يلمس الأزرار على اللوح المضاء أمامه، فتسلط النور على الحائط المقابل، فإذا هو شفاف ممتلىء بالماء.

و بالتدريج بدأ الماء يفيض من البئر الشفافة، و ظهرت قدما اللص الأول و هو ينزل مع الماء حتى توقف على مستوى أرضية الغرفة، و بدأت البئر تضيق من حوله، و هو ينظر إليها في رعب شديد، و يحاول تسلق الجدران الملساء بأظافره و قدميه دون جدوى. و في النهاية اطبقت عليه و تشكلت بشكل حجمه، و كأنها عجينة بلاستيك.

و وقف الدخيل داخل غلافه الشفاف كمومياء مصرية في تابوت من البلاستيك يلهث و يرتعد بقوة متوقعا في أية لحظة أن يسحقه أو يعصره هذا التابوت الرهيب.

و تأمله اسماعيل بوجه جامد، ثم ضغط على زر كتب عليه (تسجيل) ، فانطلقت آلات (الفيديو) تسجل المقابلة على شريط ملون لسجل الوثائق ثم ضغط على زر آخر كتب عليه : (الطريقة رقم 1) ، فانطبق حزامان موصولان بأسلاك كهربائية على رأس اللص و صدره، دون ضغط، و سمع اللص صوتا يخاطبه بداخل الأنبوب:

— لا تخف، استرح، و استرخ، فلسنا نريد بك شكاً، و قد بنينا هذه الدار في هذه البقعة بالذات لنلتقي بأمثالك من اللصوص و

القتلة و قطاع الطريق، لا لنعاقبهم فذلك من شأن رجال الشرطة و القضاء، و لسنا نلومك على اقتحام الدار، فقد وضعنا أمامك كل المغريات، و شجعناك بطريقة البناء على تسلقه، و بالتالي على الوقوع في الفخ الذي أنت فيه الآن أنت و زميلك، فلا تخف، و اطمئن على حياتك، لان غرضنا من ايقاعك في فخنا علمي تجريبي محض، فنحن ندرس الجريمة بطريقة علمية حديثة ما تزال في طور التجربة، و ربما لاحظت حزاما حول رأسك، و آخر حول صدرك، الحزامان موصولان بآلة جديدة للكشف عن الحقيقة، و هي فريدة من نوعها لا تكشف الكذب عن طريقة نبض القلب فقط، بل و انفعال المخ، فالحقيقة و الكذب مصدرهما المخ، لا القلب.

فإذا تعاونت معنا، و أجبت على جميع اسئلتنا بصدق كامل، و لم تحاول اخفاء أية جزيئة مهما كانت صغيرة، فإننا سنطلق سراحك بعد انتهاء التجربة، و ربما ساعدناك على العثور على عمل شريف، إذا لم تكن لصا بالسليقة، على أن لا تضيع سرنا، و تعيش في مسينة أخرى مواطننا صلحا. فماذا تقول ؟"

ففتح اللص فمه في حماس شديد و هو يجيب:

—أنا موافق يا سيدي، موافق، أنا تائب.. تائب إلى الله.. و لن أذيع لكم سرا، أعدكم وعد الشرف ، و اقسم على رأس أمي..

و عاد الصوت:

—حسنا ، و قبل أن نبدأ يجب أن ننبهك إلى شيء مهم.

—نعم، كل ما تطلبون.

—هو أن الآلة ليست محايدة، و معنى ذلك أنها لا تكتفي بفرز الصدق من الكذب، و تقدم في نهاية الاستجواب تقريراً بذلك لمن يهمله الأمر، بل هي أساساً جهاز للكشف عن الحقيقة خالصة مجردة عن الكذب، و قد برمجناها أخيراً بجهاز جديد يقوم بعملية احباط الأكاذيب، حتى نحصل على الحقيقة خالصة دون شوائب، و هذا الجهاز يسمى (المصفاة)، فإذا توصل بأجوبة كاذبة فإن عقوبة آلية تنزل بالكاذب، و هي تتراوح بين سياط من التيار الكهربائي إلى الاحراق النهائي لجثة الكاذب، و احوالها إلى رماد. و بين هاذين الطرفين سلسلة طويلة من ألوان التعذيب المادي و المعنوي، فحذار من قول كلمة لم تفكر فيه جيداً، يجب أن تكون اجابتك الصدق بعينه.

فارتعد اللص في تابوته و أجاب:

—سترون، سترون، لن أقول كلمة واحدة كاذبة.

فقال الصوت:

—و نحن بالمقابل لن نطلع أحداً على أي شيء من أقوالك. فهي بالنسبة لنا أسرار المهنة، لن يطلع عليها إلا العلماء. و لنبدأ ، ما هو اسمك الكامل ؟

—عبد الله قويدر.

—سنة؟

—أربع و عشرون سنة.

—عنوانك؟

45 —مجموعة 10 حي النواول، الدار البيضاء.

—متزوج؟

—لا.

—هل دخلت مدرسة؟

—لمدة قصيرة

—هل لك أبوان؟

—أعيش مع أمي ، والدي تركنا.

—لماذا؟

—ليتزوج امرأة أخرى.

—منذ متى؟

—منذ كنت طفلاً.

—هل لك اخوة و أخوات ؟

—نعم ، ثلاث بنات، و أربعة ذكور.

—هل تعيشون معا ؟

—بقينا ثلاثة فقط، أنا ، و أمي، و أختي الصغرى، الباقون
تزوجوا، و منهم من ذهب للخارج للعمل، و من يعمل في الدار
البيضاء.

—هل يزورونكم ؟

—نعم.

—هل ينفقون عليكم ؟

—حين يتوفر لهم ما يبعثون به للوالدة، أخي مختار يبعث بمبلغ
شهري من بلجيكا.

—و أنت ما عملك ؟

—عاطل.

—هل زاولت عملا من قبل ؟

—نعم.

—مثل ماذا ؟

—عملت مع ميكانيكي سيارات، و طردني بعد بضع أسابيع.

—لماذا ؟

—سرقت راديو من سيارة أحد الزبناء.

—هل عملت في مكان آخر ؟

—نعم.. مع صاحب مصنع رصاص.. و طردني لنفس السبب،
سرقت من بيت أحد الزبناء جهاز لتتشيف الشعر و جدته بالحمام
أثناء إصلاح بعض الأنابيب..

—هل زاولت أعمالا أخرى ؟

—كثيرة.. كانت كلها تنتهي بطردي لخفة يدي...

—ماذا كانت أولى سرقاتك ؟

—لا أذكر تماما.. و لكنني بدأت بالسرقة من بيتنا.. كنت أسرق
من أمي بعض النقود للذهاب للسينما..

—و ماذا كانت آخر سرقاتك ؟

—جهاز تلفزيون..

—ما هي أكبر سرقاتك ؟

—سيارة..

—ماذا فعلت بها ؟

—ذهبت بها إلى مراكز لحضور مباراة في كرة القدم، و تركتها هناك..

—ما هي المدن التي مارست فيها مهنة السرقة..

—تقريبا في جميع مدن المغرب الكبيرة...

—حتى مدن الشمال ؟

—نعم.. قضيت صيفا في طنجة، و آخر بتطوان، و ذهبت في جولة إلى الحسيمة و الناظور، ثم أصيلة، و العرائش، و القصر الكبير، و مولاي بوسلهام..

—هل سطوت على دار بطنجة ؟

—لا.

—لماذا ؟

—لم نكن مجهزين لسرقة المنازل. فذلك يحتاج إلى سيارة لنقل المسروقات، و كنا في طنجة للاصطياف و الاستجمام، فاقترضنا على سرقة المحافظ في الأسواق، و أخذ ما بها من فلوس، و ارسال المحافظ بما فيها من أوراق لأصحابها.

—لماذا ؟

—لنخفف من نقيمتهم و غضبهم، و بالتالي من شكاويهم لرجال الأمن، حتى لا ينشط هؤلاء في مطاردتنا.

—هل سمعت عن سرقة دار المهندس بالجبل هذا الصيف، و مقتل زوجته و طفلة ؟

—نعم.

—هل شاركت فيها ؟

—أبدا ! قلت لك لم نسط على أية دار في طنجة.

—هل تعرف من فعل ؟

—لا.

—ألم تسمع شيئا عن العصابة التي قامت بذلك ؟

— كل ما سمعته أنها عصابة مشتركة بين مغاربة و أجانب، و أنها اختصاصية في سرقة الحلي و الجواهر من القصور و فيلات الأغنياء، و أنها مجهزة بالسيارات و اللاسلكي.

— من يمكن ان يعرف شيئا عن هذه العصابة ؟

— لا أدري، يشاع أن لبعض رجال الأمن المنحرفين صلة بها.

— هل تعرف أحدا منهم ، اعني من رجال الأمن المنحرفين ؟

— لا.

— هل تستخدم السلاح في سرقاتك ؟

— أحمله، و لكن لا استعمله إلا عند الضرورة القصوى.

— هل معك الآن سلاح ؟

— نعم، سكين متعدد الشفرات.

— متى استعملت السلاح لأول مرة ؟

— عندما حاول صاحب دكان، وجدنا داخل دكانه، أن يقبض علي.

—هل قتلتَه ؟

—كلا ، جرحته في يده فقط، حتى يبتعد عن طريقي.

—هل قتلت أحدا قط ؟

—أبدا.

—و الاغتصاب، هل اغتصبت امرأة ؟

—نعم، و لكنها من النوع الذي يستعذب الاغتصاب.

—و غيرها ؟

—نعم، فتاة مراهقة كانت تعجبني، اختطفها أنا و زميلي في سيارة سرقناها، و أخذناها للغابة و اغتصبناها.

—و زميلك ؟ هل اغتصبها هو الآخر ؟

—لا.

—لماذا؟

—لا ادري، خاف من غيرتي عليها ربما. قال أن له أختا في سنها و شكلها.

—و بعد الاغتصاب ؟

—تركناها في الغابة، بعد أن هددناها بالذبح إذا هي أخبرت أحدا
بما حدث.

—لماذا تسرق ؟

—لكسب عيشي، لأعول الوالدة و الأخت الصغيرة، فهي تذهب
للمدرسة.

—هل تحب أمك و أختك ؟

—جدا، أكثر من أي شيء في الدنيا.

—و تفعل أي شيء من أجلهما ؟

—نعم.

—هل تقتل، اذا اقتضى الأمر، لاسعادهما ؟

—نعم.

—و تموت من أجلهما ؟

—نعم، إذا كان لابد من ذلك.

و هنا انطلقت صفاة ثاقبة في اذنه حتى كادت تصمه، و اضطرب
بعنف داخل التابوت من شدة الألم..
و عاد الصوت يخاطبه:

—أرأيت ماذا وقع لك حين كذبت ؟ أنت لا تحب امك و لا أختك،
أنت أناني، لا تحب إلا نفسك، و لو كنت إنسانا قادرا على الحب
لأحببت الناس جميعا و لما استبحت ديارهم، و أمتعتهم، و
أموالهم، و أعراضهم. الحب شعور نبيل و شريف، و أنت لص
حقير، و لا شر للصوص، أنت تسرق عرق الناس، و ثمرة
سعيهم، و اجتهدهم و تفكيرهم الطويل، و صراعاتهم مع الحياة..
أنت تسرق شرف الفتيات، و سعادتهن و أحلام شبابهم.. أنت
جرثومة قذرة، و مكروب مضر بصحة المجتمع.. لذلك سنعاملك
كأمثالك من الجراثيم و الحشرات السامة.. و سنبيدك.

و فتح عبد الله قويدر فمه لشدة وقع المفاجأة، و سأل:

—و لكنك وعدتني بإطلاق سراحي.. قلت لي أن هذه مجرد
تجربة لجهاز جديد..

—و اشترطنا عليك في البداية قول الحقيقة..

—ما قلته كذبا كان زلة لسان.. اندفاع عاطفي عند الكلام عن
الأم و حنان الأمهات.

فصدرت عن الآلة ضحكة معدنية:

—هه.. هه.. هه.. هل حقيقة كنت تعتقد أننا سنطلق سراحك
بمجرد قولك الصدق ؟

—اذن كذبتم علي!

—لنقل عاملناك كما تعامل أنت الناس..

—أرجوكم.. أرجوكم لا تقتلوني ! ستبقى أُمي و أختي بدون
عائل!

و مرة أخرى ، انطلقت الصفارة في عمق أذنه فكادت تمزق
طبالتها.. و نطقت الآلة:

—أنت تكذب مرة أخرى.. أمك و أختك ستستريحان منك، مرة و
إلى الأبد.. ستستريحان من بحث الشرطة عنك كل يوم و ليلة.. كل
ما وقعت سرقة من نوع سرقاتك ، حتى و لو قام بها غيرك..
ستبكي عليك، ثم تنساك.. انت عالة عليها و عار على اخوتك
العاملين و سوسة خبيثة تتخر في قلب المجتمع!

و سكنت الآلة قليلا ثم قالت:

—ما هي آخر طلباتك ؟

و حين هم بالاستغاثة و البكاء و الصياح، انطبق على وجهه قناع
حتى كاد يخنقه. و جاءه صوت الآلة:

—أنت تخاطب آلة لا قلب لها و لا عاطفة .. فلا تحاول البكاء، و
الاستعطاف، و الاستخذاء، و الاستجداء.. لن يكون له أثر
بالمرة.. فوفر انفاسك لساعة تنفيذ الحكم فيك.. فما هو طلبك
الاخير ؟

و انفتح القناع فشقق اللص، و أخذ يلهث و قد امتقع وجهه
امتقاعا شديدا، و اكتسى جلده صفرة الموت و شحوبها.. و
بصعوبة فتح شفتيه و هو يرتجف، عن كلمة:

—سيجارة..

فخرجت له سيجارة مشتعلة من ثقب أمامه..

و عاد صوت الآلة ليقول:

—كل الآلام و الأحزان، و القلق و الحرمان الذي كنت السبب فيه
لغيرك من المواطنين الصالحين ، ستقاسيها أنت مجتمعة و مركزة
حتى تنتهي حياتك الدنيئة، و تنتقل روحك القذرة إلى العالم الآخر،
بعد تكفيرها على كل ما جنته في هذا العالم من جرائم.

و سقطت السيجارة من فمه، و هم بالصراخ، و الاستغاثة، و لكن
القناع أطبق على وجهه مرة اخرى، فبقي يصيح في داخله:

—أريد أن أنتحر.. أريد أن أموت الآن .. أرجوك .. اقتلني الآن
أرجوك!

و مد اسماعيل يده فلمس زرا و أسكت الصوت، و جلس ينظر إلى الأسير و يستحضر صوت (كارين) ، كما يتخيلها في آخر لحظات حياتها، و هي تنظر إلى قاتل ابنتهما (نورا) الصغيرة الحبيبة، و هو يلوح بها في الهواء و يضرب برأسها الحائط أمام نظراتها الجنونية!

و أحس كأن يدا تعصر قلبه .. فضغط بأصبع مرتعشة على زر أحمر، فبدأ البئر الزجاجي يمتلئ من حول الأسير بماء النار المحرق، و بدأت تظهر على وجهه أبشع علامات الرعب، و لولا احتجاب الصوت، لأصم صراخه سمع اسماعيل.

و ارتفع السائل المفترس حتى وصل فمه المفتوح فملاً جوفه، و بدأ في تمزيقه من الداخل و الخارج. و بعد لحظة كف عن الاضطراب.. و بدأت ملابسه تتآكل و كأنها تحترق بنار خفية.. و ذاب شعر رأسه، و جلد وجهه، و جفناه، و انكشفت مقلتاها، ثم فرغ محجراه باختفاء العينين..

و أخذت الجثة تتحلل .. و السائل الجهنمي يلتهمها بسرعة فائقة و كأنها تختفي تدريجيا عن الأنظار بسحر ساحر.

و حين لم يبق إلا الهيكل العظمي، قام اسماعيل فأطفأ النور..

و غادر الغرفة إلى الغرفة الثانية التي كان نورها الأحمر مشتعلا، و دخلها، و وقف إلى الآلة يلمس ازرارها، فنزل اللص الثاني مع هبوط الماء إلى مستوى الأرض، و هو يسبح مرهقا لا يدري ماذا يحدث حوله، و غاض الماء من حوله فجلس على الأرضية يلهث

و يسترجع أنفاسه بعد محنته الطويلة.

و عاد اسماعيل فاطماً عليه الأنوار، و صعد إلى مرقد، و قد
احس بنشوة لا توصف.

و نظر إلى ساعة الراديو بجانب سريرة فإذا هي تشير إلى
الخامسة صباحاً، فاستلقى على سرير، و اغمض عينيه، و
انسحب من عالم الأحياء نازلاً إلى عالمه الداخلي المقفر
الموحش، و قد بدأ يحس بنسمات منعشة تذاعب روحه الشوهاء،
و بنغمات مطربة تصدر عن روح أسيره المعذب و هو ينتظر
الموت و يتمناه فلا يجده.

و في مساء الغد، عاد اسماعيل متأخراً من عمله، و متحفزاً
لاستئناف ضحيته الثانية و دخل المطبخ، فصنع لنفسه شطيرة و
صب فنجان قهوة و قعد يأكل في صمت صاخب.

و أخرجه من تأملاته جرس التليفون الذي ملأ عليه جو المطبخ،
و بدا أكثر حدة من قبل، فتناوله، فإذا صديقه ابراهيم بصوته
المرح المازج:

—مساء الخير.

—مساء الخير ، يا ابراهيم.

—هل قاطعت شيئاً ؟

—لا، كنت اشرب قهوة، أين أنت ؟

—أنا مع بعض الأصدقاء، و الجميع يخوضون في سيرتك.

—بالخير إن شاء الله.

—هذا يتوقف عليك.

—ماذا تعني ؟

—انهم ينتظرون حفلة التدشين للدار الجديدة، و قد طال انتظارهم.

—كلهم يعرفون انها لم تتم تماما.

إنهم يرويدون تسبيق الفرح بليلة. يريدون مناسبة للاحتفال، مهما كانت المناسبة، لنجعلها مناسبة قرب اكتمال البناء.

فتتهد اسماعيل ، و لم يضحك هذه المرة، كعادته، لنكات صديقه و قال:

—ليتني استطيع يا ابراهيم!

—لماذا ؟ هل افلسك البناء ؟ إذا كان الأمر كذلك، فالمشروبات علينا و عليك السقف.

—لا، لا، ليس ذلك هو السبب، رغم انك لم تبتعد كثيرا عن الواقع، و لكنك تعرف أنني في فترة ، أعني أن نفسي غير متفتحة لاستقبال الأصدقاء بكل ما يليق بهم من ترحيب و ايناس.

فتغيرت لهجة ابراهيم إلى جد مغلف بنبرة قلق و حزن:

—اسماعيل.

و توقف قليلا ، ثم قال:

—انتظر لحظة، سأنتقل إلى غرفة أخرى حتى نتكلم بحرية أكثر.

و ساد الصمت لحظة، عاد بعدها صوت ابراهيم:

—اسماعيل ، أرجوك لا تؤاخذني إذا قلت لك إن هذا بالضبط هو ما كنا نناقشه، كلن ا نعرف ما تعانيه من آلام و لكنك لجأت الى علاج خاطيء، لجأت إلى الوحدة و الانطواء، و أنت تعرف أن الوحدة تزيد من حدة الألم، و تضخم الأحداث، فأرجو يا اسماعيل أن تتيح لأصدقائك الفرصة لحمل بعض العبء عنك، و ادخال بعض السرور على قلبك، أو على الأقل بعض النسيان، فارجوك لا ترفض.

و أمام رجاءات صديقه لم يملك اماويل إلا ان يرضخ لرغبة الجماعة حتى لا يتهم بشيء يثير فضولهم حوله، فقال:

—إذا كان كذلك، فتعالوا، و أمري لله.

و وضع السماعة، و وقف ينظر إلى المرأة، و مسح بكفيه شعره المتموج و اقترب من المرأة وجهه ليتأكد من أن أحدا لن يكتشف في عمق عينيه حقيقة روحه الخربة الممزقة.

و دخل غرفة جلوسه الكبرى ليتأكد من نظامها، ثم أطل في بقية الغرف الصغيرة، و صعد إلى مرقده ليغير ملابسه.

و بعد نصف ساعة من المكالمات، سمع على باب الفيلا أصوات ابواق السيارات و قهقهات البنات، و نداءات الأصدقاء الذين وصلوا في حوالي خمس سيارات، و مد يده إلى كنب سريره، و ضغط زرا، فانفتح باب الحديقة، و دخلت السيارات، واحدة خلف الأخرى، لتقف أمام الباب الداخلي.

و ما كادوا ينزلون من السيارات حتى فتح اسماعيل الباب بنفسه لاستقبالهم بابتسامة ترحيب، و وقف إلى جانبه ابراهيم، صديقه، ليقدم له من يا يعرف اسماءهم من الجماعة.

و كان من بينهم موظفون كبار، و مهندسون، و محامون، و أطباء، و فنانون، و ممثلون، و دبلوماسيون أجانب، و أساتذة جامعيون، و كلهم مصحوبون بزوجاتهم، أو خطيباتهم، أو صديقاتهم، و بعض البنات لم يكن لهن رفقاء، و كان الجميع يحمل في يده شيئا من عدة الحفلة، زجاجات شراب، صناديق، أطباق ورقية، و أواني بها طعام، باقات زهور، اسطوانات حديثة الظهور، إلى غير ذلك.

و صاحت مريم زوجة ابراهيم المرحمة، حين وقعت عيناها على
اسماعيل و هي تلوح له اباء الثلج الفضي:

—لم ترد أنت المجيء إلى حفلتنا، فجئناك بالحفلة!

و عانقته و قبلته على خ

ديه، و التفتت خلفها، و أشارت إلى فتاة أنيقة كانت تقف بعيدا
على استحياء.

—زبيدة تعالي.

و نظر اسماعيل إلى زبيدة، و عادت به الذكرى إلى ماضٍ سحيق،
ماضٍ زادت الأحداث الأخيرة بعدا و اقبارا في اعماق النسيان.

أيمكن للماضي الذي ظهر في وجه اسماعيل فجأة..
أن يغير بشكل ولو قليل ، ما بنفسه ؟ و ما بنواياه ؟

بانتظار البارت الخامس..

دمتم في أمان الله..

البارت 5:

—زبيدة تعالي.

و نظر اسماعيل إلى زبيدة، و عادت به الذكرى إلى ماضٍ سحيق،

ماض زادته الأحداث الأخيرة بعدا و اقبارا في اعماق النسيان.

عرف اسماعيل زبيدة منذ دراسته الثانوية، و كانت حينئذ كما هي الآن نحيفة سوداء الشعر و العينين، لبنية البشرة، جميلة الوجه، ملساء الصدر، أنيقة و نظيفة، و معطرة دائما منذ عرفها، و لكن ألمع صفاتها، بالنسبة لمن عرفوها، هو ذكاؤها الخارق، و ذاكرتها القوية، و كان الجميع يتنبأ لها بمستقبل لامع، و كان اسماعيل يحمد الله على أنها ليست من دفعته، لأنها كانت تحتكر الرقم الأول في فصلها في جميع المواد، سواء منها الأدبي، أو الرياضي، أو العلمي، و كانت درجات من يأتي مباشرة بعدها أقل من درجاتها بكثير.

و بما أن اسماعيل كان هو الآخر يحتكر الرقم الأول في فصله، فقد كانا يشعران بأنهما عضوان في ناد واحد.. هو نادي الممتازين..

و سعت زبيدة للتعرف باسماعيل، الذي كان يسبقها بثلاث سنوات بدعوى أنها ترغب في نصائحه كطالب أسبق، و أخ أكبر، و تريد استعارة كتبه الدراسية، و لم يمانع هو في صحبتها، فقد كان يجدها خفيفة الدم، عامرة بالمعارف، و الأخبار، و الاشاعات المحلية، و المفاجآت. كانت هي تبذل مجهودا اضافيا في جمع كل ذلك لجلب انتباهه لها، و ابقائها إلى جانبه أطول مدة، و كان هو يحس بذلك، و يشعر بفخر كبير بوجود انثى في ذكائها و جمالها إلى جانبه، و خصوصا و أنه لم يكن يجتمع في فتاة أخرى بالمدرسة ما اجتمع في زبيدة.

و رغم استمتاعه العقلي بها كصديقة، لم يشعر اسماعيل نحوها بأية جاذبية كامرأة، و لم يحس قط بالرغبة في تطويق خصرها النحيل جدا، و ضمها إليه، ولا حتى لمس يدها المرهفة ، أو ذراعيها الناعمتين اللتين كان يبدو أنها فخورة بهما، رغم الفرص الكثيرة التي كانت تتيحها له أثناء الاستراحات الطويلة، أو غياب الأساتدة، حين يخرجان للفسحة في حديقة قريبة كثيرة المخابىء و الأدغال.

كان ينظر إليها كآلة تفكير و تخطيط باردة الدم، من الصلب اللماع. و رفضت هي تصديق حاستها الأنثوية التي أحمدها اعتمادها الدائم على ذكائها الوقاد، و ثقته المفرطة في قدرتها على تحويل مشاعره، و كسب قلبه..

و استطاعت التسرب إلى وسطه العائلي، و فرض وجودها على اخوته بحيث اصبحت تشعر الجميع بأنها خطيبته، و واحدة من العائلة..

و لم يرتح اسماعيل إلا حين غادر طنجة إلى الرباط للاتحاق بالجامعة. و أحس بعبء ثقل ينزاح عن كاهله بالحرية الجديدة التي وجدها في الحياة الجامعية بالعاصمة، و ظلت هي ترأسله، و تغتتم كل فرصة يأتي فيها إلى طنجة لدفع أخواته لسؤاله عن مشاعره نحوها، أو متى سيعقد عليها، و كانت اجاباته هو دائما غامضة، و غير ملزمة، الطريق ما يزال طويلا أمامه، و الزواج عمل جاد يحتاج إلى قاعدة مادية يقف عليها، و هو لم يتخرج بعد، و ليس له دخل يعتمد عليه، إلى غير ذلك.

و لم يستطع قط أن يغلق الباب دون أماني زبيدة اغلاقا نهائيا، لم يكن يدري لماذا، كان متأكدا أنه لا يحبها، رغم حبها المبرح له، حبها القاتل الذي لم يستطع ذكاؤها، و لا منطقها، أن يفلسه أو يضع حدا لآلامه و لواعجه.

و في فترة اشراق، و هو يتساعل في سره، عن سبب عجزه عن مصارحة زبيدة بنواياه نحوها، ادرك انه يخاف منها، نعم يخاف منها.

فقد كان يدرك في أعماقه أنها قادرة بذكاائها الشيطاني، و عاطفتها الأنثوية الجبارة على كل شيء.

و استنكر ذلك، و استنكر أن يكون خائفا من فتاة في السابعة أو السادسة عشرة ! فتاة مراهقة لا تعرف ما تريد، و يمكن أن تغير رأيها فيه عند ظهور أو خطيب جاد على باب الدار.

و قلت زيارته لطنجة بدعوى تراكم الأعمال.. و بمجرد تخرجه حصل على منحة إلى الولايات المتحدة، فأفلت من قبضتها حين حصلت هي على الشهادة الثانوية و نزلت إلى الرباط للالتحاق بكلية الحقوق..

و عاد من الولايات المتحدة ، بعد عامين، متزوجا (بكارين) .. (كارين) التي هزت حياته كالزلازل في أول لحظة رآها ! و هام بحبها حتى كاد يجن ! و لو كانت رفضت الزواج به لكان جن فعلا، أو انتحر..

و أنسته (كارين) كل شيء عن زبيدة.. و اختفت هذه بعد عودة اسماعيل من أمريكا، و لم يسأل هو عنها.. كانت في آخر سنة لها بالجامعة.. و لم يرها حتى فأجأته اليوم بظهورها أمامه من زرقة السماء صحبة (مريم) ، زوجة صديقه ابراهيم..

و وقفت هي تبسم له ابتسامتها الجميلة، و قد كشفت شفتاها الممتلئتان عن أسنانها اللؤلؤية الناصعة، فلم يتمالك اسماعيل، و هو ينظر إلى وجهها المألوف، الذي زاده نضجها جمالا، من النداء باسمها في ترحيب حار:

زبيدة! ..

و رفع ذراعيه فدخلت بينهما و عانقته بقوة، و ضغطت خذها على خذه فأحس بها ترتعش كالريشة في حضنه .. فأبعدها عنه قليلا ، و قال:

—دعيني انظر إليك ، أنت أجمل كثيرا من الطفلة المراهقة التي تركتها في طنجة.. كيف حالك ؟ و أين أنت ؟ و ماذا تفعلين .. ؟

فتدخلت مريم للفصل بينهما قائلة:

—و كنت أنوي تقديمكما لبعضكما البعض ! لا بد أن بينكما أميالا من الذكريات .. أما الآن فدعيه يستقبل ضيوفه.

و أخذت تقدم له ما تبقى من الضيوف .. و حين دخل الجميع

ضغط اسماعيل زرا خلف الباب ، فانقفلت الأبواب الحديدية الآلية،
و اشتعلت مصابيح كاشفة من جوانب الدار لتنصب على السور،
تعشي بصر كل فضولي يحاول التفرج من الخارج على ما يجري
داخل الدار..

و في الصالون الكبير مسكت مريم الحازمة النشيطة الأمور بيد
قوية، فوزعت الواجبات على البنات، و السيدات، و كلفت احداهن
بالموسيقى، و أخرى بالمشروبات، و ثالثة بالثلج و الكؤوس، و
الرابعة بالسجائر، و المنافض و مقارض السيجار، و تكلفت هي
بترتيب الشطائر في الأطباق، و الاشراف العام على سير الحفلة.

و بمجرد ما علت أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة امتلأ وسط
القاعة بالراقصين و الراقصات، و امتدت الأيدي إلى الأنوار
الساطعة تطفئها، فأدار اسماعيل مفتاحا خفتت عنده الأضواء
كلها، و غرق المكان في عتمة دافئة، و تحركت الأجسام مع
الأنغام، و تموجت الشعور و الأذرع و السيقان، و اهتزت الصدور
و الخصور و الأرداف..

و خرجت مريم بقامتها المديدة، و شعرها البني اللامع تصيح في
البنات في مرح صبياني:

—أين زوجي ؟ ماذا فعلتن بزوجي ، يا بنات الذين!

و حين عثرت على ابراهيم واقفا يتحدث مع اسماعيل كانت قد
تركت الجميع يضحك، فقالت له:

—ظننتهم سرقوك!

—ماذا تظنينني ؟ محفظة ؟!

—انت لا تعرف بنات اليوم،إنهن يسرقن الغوريلات، و السباع
من الأقفاص ! و حين انطفأ النور قلت لا بد أن احداهن تتوي
اختطافك، و خصوصا و أنك سهل للسرقة ما دامت السارقة جميلة
!

فلم يزد ابراهيم على أن قال:

—من يسمعك يعتقد أنني لعبة في أيدي الغواني، و أنت لم
تتركي مني للسلارات شيئا!

و ضحك اسماعيل، فالتفتت مريم تبحث في القاعة و تتسأئل:

—أين ذهبت ؟

فسأل ابراهيم:

—من ؟

—زبيدة.

و رأتها خارجة من المطبخ بكاسين فصاحت:

—ها هي آتية.

و التفتت لزوجها:

—لا يصح أن نترك المضيف واقفا وحده، و نذهب للرقص،
يجب أن تجد لله مضيقة.

و انضمت إليهم زبيدة، فناولت اسماعيل كأسا، و بقيت هي
بالكأس الأخرى، فقالت مريم لزوجها:

—كنت أنوي تقديمهما لبعضهما، تصور ! فإذا بهما يتعانقان، و
لم يبق لي ما أقول.

و أمسكت بيد زوجها و سحبتة إلى الحلبة.

و ضحك اسماعيل و زبيدة، و انخرطا في حديث طويل حول ما
حدث في حياة كل منهما بعد افتراقهما.

و مرت زبيدة بلباقة و خفة على الأحداث الدموية التي مرت به
هو، و قدمت له تعازيها، معتذرة بأنها لم تسمع بما حدث إلا
مؤخرا لغيابها بالخارج، و لم ترد بأن تكتب له. و شكرها على
عواطفها، و خرج الاثنان إلى مواضيع أكثر ملاءمة لجو الحفل، و
سألها هو عن عملها، فقالت إنها تعمل في مكتب محام كبير في
الدار البيضاء، منذ تخرجها.

و تغيرت الموسيقى إلى ايقاع أسرع، فخرج بعض المسنين من

الحلبة محتجين على التي اختارت الاسطوانات المجنونة، مطالبين
بموسيقى اهدأ، و أكثر نعومة و استسمح اسماعيل زبيدة، و ذهب
نحو الستريو ليشرف بنفسه على انتقاء الأسطوانات.

و جلس الذين غادروا الحلبة يتحدثون بعيدا عن الضوضاء
الموسيقى في احدى الصالونات الجانبية الصغيرة، و تغيرت
الأنغام إلى أمواج ناعمة دافئة يصحبها صوت رجل أو امرأة، و
هدأت الحركة في الحلبة...

و عاد اسماعيل فلم يجد زبيدة حيث تركها، و بحث عنها بينه
داخل الحلبة، فلم يراها، و طاف بالصالونات الجانبية المنخفضة
عن مستوى الأرض، و المرتفعة عنه كشرفات تطل على الحديقة،
و أطل على الجماعه المنسجمة فحيته و نادته للانضمام إليها،
فاستمهلها، و راح يبحث في المطبخ، و فتح باب الحمام فوجده
فارغا، فبدأ القلق يدب إلى نفسه.

و خرج إلى الحديقة من إحدى النوافذ الأرضية، و نظر يمينا و
يسارا فخيل إليه بأنه ظلا يلوي الزاوية اليسرى، فتحرك في
اتجاهه بسرعة و ما كاد يلوي إلى الزاوية حتى كان الشبح قد
لوى الزاوية الثانية و اسرع الخطو، دون أن يجري حتى لا يراه
من بالداخل فيظنوا بعقله الظنون.

و حين أتم الدورة، دون أن يعثر لزبيدة على أثر، عاد فدخل من
حيث خرج، و وقف لحظة يلهث من اجهاد البحث، و يمسح
المكان ببصره ليعرف ما إذا كان أحد قد لاحظ غيابه.

و لما اطمأن إلى أن كل شيء ما يزال على حاله، تحول نحو الصالون الجانبي الذي كانت تجلس فيه الجماعة، و تملأه بنقاشها، فوقف يشعل لنفسه سيجارة، و ينظر إلى الوجوه من خلف شباك من خشب قرفصاء تحتسي مشروباً و تنصت إلى الحديث الدائر بينها السوداوين الثاقبتين، فتنفس الصعداء و عاتب نفسه على اساءة الظن بها.

و أنصت هو الآخر إلى ما كان يقوله المتحدث، فاستهواه ذلك، كان المتحدث يسأل ضابطاً من ادارة الأمن كان بين الحاضرين:

—هل عثرتم على خيط يؤدي لمعرفة العصابة ؟ أعني عصابة طنجة.

و قبل أن يجيب الضابط الذي كان يبحث بسرعة عن إجابة تخرجه من الورطة دون اساءة لشعور الحاضرين، تدخلت سيدة:

—لا ينبغي أن تخرج الصباط، هذا سؤال يتعلق بأسرار المهنة، أليس كذلك ؟

فسارع السائل إلى الاعتذار:

—أنا آسف.. لم يكن قصدي الاحراج...

فنطق الآخر:

—و لكن مر ما يقرب من عام على الجريمة دون أن تتوصل

الشرطة إلى الكشف عن هوية القتلة، و كل القرائن تشير إلى أن العصابة كانت هنا، من الدار البيضاء، و ليس من طنجة.

فقالت سيدة محتقنة الوجه:

— هذا التأخير في القبض على العصابة يشجع المجرمين، و يقلل من هيبة الأمن في نظر المواطنين..

فعلق رجل:

— و هذا ما يجعل بعض اليائسين من جدوى جهاز الأمن يلجأون إلى تطبيق القانون بأنفسهم، و الانتقام من المعتدين عليهم.

فعادت المرأة تقول:

— هنا أقول " برافو " لآخينا اسماعيل على صبره الكبير، و احتمالاه الشجاع للصدمة التي أصيب بها في زوجته و ابنته .. كانتا كل شيء في حياته.. من أجلهما كان يعيش.. و حتى المستقبل السياسي اللامع الذي كان ينتظره، دمرته تلك الجريمة البشعة.. فانطوى على نفسه، و دفن حياته في العمل و البناء لعله ينسى .. و لو كان ذلك حدث لي أنا لكنت جننت.. أو انفجرت.. أو خرجت أقتل الناس في الشوارع.

فقالت امرأة ثانية:

— أنا لم يحدث لي شيء مما حدث له، و رغم ذلك فإني أشعر

أنني قادرة على أن اذبح افراد العصابة واحدا واحدا كما ذبحوا
الضحيتين البريئتين..

فتكلم الأستاذ الجامعي:

—الانتقام لا يجدي.. و قد أثبتت الدراسات الاحصائية أن القسوة
لا تردع الجريمة.. ينبغي النظر في ما وراء الجريمة.. في أسبابها
الاجتماعية، و الاقتصادية السيكولوجية..

فتدخل محام معروف بهزله مؤيدا بجد:

—تعني ما يشير إليه العلماء بنظرية " كاف ـ فاء " ؟

فالتفت الجميع للمحامي مستفسرين عن معنى هذه النظرية التي
لم يسمعوها بها من قبل، فاعتدل في مكانه قائلا:

" ك ـ ف " تعني كلام فارغ!

فضحك الجميع، و ضربته سيدة إلى جانبه على ركبتيه بيد ناعمة
معاتبه:

—لا تدخل المزاح في الجد!

فقال:

—أنا جاد كل الجد .. كلام فارغ!

فالتفت إليه الأستاذ الجامعي مستغربا:

لماذا ؟

—أعرف ما ترمي إليه .. هذه نظرية قديمة، لم تعد صالحة لعصرنا هذا، و لا لمجتمعات العالم الثالث .. هذه النظرية صادرة عن أخلاقيات القرن الماضي الداعية إلى معالجة المجرم على أنه مريض، و محاولة علاجه عن طريق الاصلاحيات، و التحاليل النفسية، و غيرها، مما يكلف مبالغ باهضة لا طاقة لاقتصادنا المثقل بتحملها.. و في رأيي يجب إعادة النظر في تلك النظريات العاطفية على دوء ما يعانيه العالم الثالث من اكتظاظ و ازدحام بالسكان، و معاملة المجرم على أنه " وحدة انتاجية " فاسدة، أو ناقصة ينبغي إلغاؤها، أو إعدامها، تماما كما تفعل المصانع مع منتوجاتها.

فصفت السيدات للفكرة التي ألقاها المحامي بشكل خطابي مما أثار فضول بعض الراقصين، فجاءوا بسبب التصفيق، و انضموا إلى اسماعيل على الباب.

و احتد الأستاذ الجامعي ، و عقب:

—حتى هذه ليست نظرية جديدة، فقد جاء بها (هتلر) من قبل و عامل بها المجتمع الألماني، و الجميع يعرف النتيجة.

فقالت السيدة:

—أنا مع هذه النظرية ، لا يهم من قالها.

فقاطعها المحامي:

—ما قلته يجب أن يتلخص في سؤال واحد ، هو : " هل سنصرف أموالنا على بناء السجون و الاصلاحيات لتقويم اعوجاج المنحرفين، و أصحاب السوابق الجنائية المتكررة، أم سنصرفها على بناء المدارس للمحرومين من التعليم من صغارنا الابرياء، و إعطائهم فرصة ليصبحوا مواطنين صالحين منتجين ؟ "

و علت الأصوات و الايدي تريد الاجابة على السؤال، فحرك الأستاذ رأسه غير موافق على صيغة السؤال ، و قال:

—الأمر ليس بهذه البساطة، و أنا متأكد من أنك ستنتظر إلى هذا الموضوع نظرة أخرى، لا يطبعها كل هذا التجرد و هذا الحياد، حين يتعلق الأمر بك أنت، أو بعزيز عليك، لا قدر الله، إذا وجد على الجانب الآخر من العدالة.

و التففت سيدة إلى اسماعيل الذي كان واقفا مع الواقفين، يدخل سيجارة و ينصت إلى النقاش، و قالت:

—ما رأي مضيفنا في الموضوع ؟

و انقذته مريم مع الاجابة باقتحامها الصالون على من فيه كعاصفة معطرة تنادي:

—إلى المائدة ، إلى المائدة ! تعالوا حتى لا يبرد الأكل.

و اغتتم اسماعيل فرصة انشغال الجميع بالأكل، فأخذ من المطعم طبقاً به شطيرة ، و كأس ماء، و انسحب دون أن يفطن له أحد و نزل من باب سري إلى القبو المظلم، و ضغط على زر، فاشتعل نور باهر داخل الزنزانة فتحرك الأسير بعنف، و أغمض عينيه من صدمة النور، و أخذ يسأل:

—من؟؟ من أنت ؟ أين أنا ؟ أرجوك لا تعذبني ، أرجوك..

فجاءه الجواب الآلي:

—لا تخف، جئتك بطعامك.

ادخل الصحن و كأس الماء من تحت الباب، فارتمى الأسير عليه، و أخذ يلتهم بلهفة عظيمة، و يلهج بالشكر و الامتنان.

و عاد اسماعيل إلى حفلته، و جال بعينه داخل الصالون الكبير حيث كانت جميع الرؤوس منكبة على صحنونها، تأكل و تتحدث إلا رأس (زبيدة) ، فقد لاحظ أن عينيها السوسداوين الثاقبتين ، و كأنها كانت تنتظر ظهوره من ذلك المكان بالضبط.

و انضم إلى الجماعة التي كانت استأنفت النقاش فوقف يستمع إلى المحامي و هو يقول بقوة:

—لنواجه الحقائق، إنها حرب ! حرب صامتة، و لكنها متواصلة، حرب بين عالمين : عالم المحظوظين ، و عالم التعساء و لكل سلاحه، المحظوظون معهم القانون و قوات الأمن و النظام، و الجيش، و إذا اقتضى الأمر، لقمع مظاهرات التعساء ضدهم، و التعساء يملكون عنصر المفاجأة و المبادرة، و المهارة المهنية في السرقة، و التهريب، و الاحتيال على القانون، يساعدهم في معاركهم جميع التعساء من أبناء جلدتهم النبتين في صفوف الأمن، و الوظائف العمومية التي تسهر على تسيير عالم المحظوظين و حماية مصالحهم.

و وقف قليلا و أشار بإصبعه إلى نفسه:

—و أنا، أو أي عزيز علي، إذا أصبحنا من الفريق الثاني، بصدفة من الصدفة، سنتحمل مسؤولية أعمالنا كاملة، هذا، إذا وقعنا في قبضة القانون الناعمة المترددة التي لا تقبض في النهاية ، إلا على الخمسة في المائة من المجرمين، حسب الإحصائيات الأخيرة لمدينة (نيويورك) ، و لا يعاقب من الخمسة إلا ثلاثة، أما قتلة (المافيا) ، و كبار المحتالين، فلهم من الثروة ما يستطيعون به توكيل محام عظيم مثلي!

و ضحك الجميع.

و انضم إليهم محام شاب حديث عهد بالمهنة، لم يستطع التخلص من جو كلية الحقوق الطلابي المشحون بالبيزنطيات، و حالما شم رائحة الجدل القائم، ارتدى بكل قواه داخل الحلبة، و هو يمسح عرقه من مبالغته في الأكل و الشرب، و الرقص و أخذ يلقي "

بالكليشيهات " الجاهزة الملفوفة في ورق السلوفان، و الجميع
يتفرجون عليه و ينتظرون نهاية " الكاسيت " !

و انتهى من عرضه الخطابي بقوله:

— النتيجة، هو أن ما نراه قائما هو صراع طبقي سينتهي
بحكم " الحتمية التاريخية " إلى انتصار الطبقة المسحوقة على
الطبقة البورجوازية!

و افتعل المحامي الهازل تنهدا عميقا ، و كأنه وضع عن اكتافه
حملا ثقيلا، و قال و هو يصفق وحده:

— برافو ، و من أي الطبقتين ستكون أنت ! إن شاء الله ؟

و فوجيء المحامي الشاب بالسؤال كأنه م يتوقعه، و لم يستطع
طرح الجواب الكلاسيكي داخل الاطار البورجوازي الذي وجد
نفسه بداخله محاطا بجميع مظاهر البذخ و الترف الذي يطمح في
سره إليه ، و أنقذه المحامي بقوله:

— لا تقل لي أنك ما تزال تؤمن بمثل هذه الببغائيات ، احترم
ذكاءنا يا أخي ، كلنا كنا نعتقد تلك المبادئ، و نعادي في سبيلها
القريب و البعيد، و لكن ، انظر من حولك، انظر إلى الدول التي
انتصرت فيها الطبقة المسحوقة على البورجوازية، فماذا ترى ؟
الطبقة المسحوقة تتعرض لقمع و كبت أشد و ألن على أيدي
قاداتها الذين بكوا أمامها بدموع التماسيح، و مشوا على جثتها، و
تسلقوا اكتافها إلى كراسي الحكم ، و انتهوا بحرمانها حتى مما

كانت تتمتع به من قبل من حرية التنقل، و الهجرة و المطالبة
بالحقوق.

و خرجت (مريم) من المطبخ فرأت الجماعة تنصت إلى المحامي
الساخر و هو يخاطب المحامي الشاب ، و قد بدأت علائم القنوط
و الضيق على وجوه الأوانس و السيدات فقصدت الستريو، و
وضعت أسطوانة راقصة ارتفع صوتها المحموم على أصوات
المتحدثين ، و قامت البنات يسحبين رجالهن إلى حلبة الرقص.

ووضع المحامي الساخر ذراعه على كتف المحامي الشاب
الملتهب، و قال له بصوت مرتفع في اذنه:

— اسمع يا عزيزي، سأعطيك مفتاحا ذهبيا تحل به هذه الألغاز
السياسية و الايديولوجية المحيرة، هناك ناد، ناد خصوصي جدا ،
و محدود العضوية، و هو نادي رؤساء الدول، كل من فيه يحرص
بحياته، و حياة الآخرين، على البقاء فيه، و كل من هو خارجه،
من زعماء و قادة سياسيين، يطمح و يغامر إلى الحياة السياسية
من خلال هذا المنظار، فهت كل شيء ؟

و قبل أن يفتح المحامي الشاب فمه للإجابة، كانت زوجة الآخر قد
سحبته من يده بعنف نحو حلبة الرقص.

أمن المعقول أن الجدل الذي دار بين أولئك..
يمكنه أن يؤثر على معتقدات اسماعيل و قناعاته ؟

بانتظار البارت السادس..
دمتم في رعاية الله..

الجزء 6:

و قبل أن يفتح المحامي الشاب فمه للإجابة، كانت زوجة الآخر قد
سحبته من يده بعنف نحو حلبة الرقص.

و دفعت مريم بزبيدة بين ذراعي اسماعيل الذي حاول الاعتذار
بانشغاله بخدمة الضيوف قائلة:

—دع ذلك لي، و تمتع قليلا.

و رقص معها عن بعد، و هما يتحدثان عن عملها و عمله، و
دامت الحفلة حتى الهزيع الأخير من الليل، و الساعات الأولى من
الصباح و اسماعيل ينتظر، بتحفز و شوق ، الاختلاء بصيده، فقد
كانت روحه ظمأى إلى الدم.

و حين خرج آخر ضيف، و انقفلت الباب الحديدية خلف آخر
سيارة، انطفأت الأضواء الكاشفة المحيطة بالدار، و غرق المكان
في غلس الفجر البارد.

و نزل اسماعيل إلى القبو حيث جلس إلى آلة الاستتطاق امام
أسيره الثاني و ضغط على زر مكتوب عليه : (الطريقة 2)

ووقف الأسير في الزنزانة يحاول درء النور عن عينيه بذراعه، و
يحملق في الظلام لعله يرى وجه أسره، فلم ير إلا تجويفا معتما.
و انطبقت عليه الزنزانة حتى أخذت حجمه، و بدأ الشريط:

—هل تسمعي ؟

فحرك الأسير رأسه الأشعث بالايجاب، و حالت غصة في حلقه
دون الكلام، و هم بالبكاء، فعاد الشريط:

—لا تتكلم، حتى آذن لك بذلك، و لا تحاول البكاء و الاستعطاف،
ستضيع وقتك، فالذي يخاطبك آلة لا قلب لها، تنفذ أوامرها
المبرمجة.

و حاول الأسير الصراخ فانقفلت على فمه عاصبة من البلاستيك
المقوى، و سرت في بدنه رعدة تيار كهربائي، اعادته إلى
صوابه، و عاد الشريط:

—أنت الآن واقف على فم بئر من سائل الحامض، أي ما يسمى
(بالماء القاطع) ، و بعد قليل سينفتح ليبتلعك ، ستذوب جثتك
في بضع دقائق ، و تنتهي حياتك التعيسة، و معها ما تسببت فيه
لضحاياك الأبرياء من آلام و متاعب.

و جحظت عينا الأسير و ارتعدت فرائصه بشدة لسماع ذلك، و

حاول أن ينظر إلى قدميه من داخل تابوته فلم يستطع، و نطق
الشريط:

— ولكن صاحب هذه الدار الطيب القلب، رغم أنك دخلت بيته
بنية السرقة المبيتة، مع التردد، و سبق الاصرار، قرر أن
يعطيك فرصة التكفير عن جميع ذنوبك عن طريق الاعتراف بها
أمام الله، و تطلب المغفرة من الله، و من جميع من سطوت على
بيوتهم، حتى لا تذهب مباشرة إلى جهنم، فهل تقبل هذه الفرصة ،
و تحكي كل جناياتك، و تعترف بجميع خطاياك ، أم أفتح فم البئر
تحتك الآن ؟

و انفتحت عاصبة فمه لتتيح له الاجابة، فصاح بدون صوت خشية
تنفيذ الانذار فيه:

— اقبل ! اقبل!

— حسنا اذن، ستبدأ في الاجابة على جميع الاسئلة التي أوجهها
إليك واحدا واحدا، و ستجيب بكامل الصدق و الدقة، فإذا كذبت،
فستعرف آلة كشف الحقيقة ذلك في الحال، و تفتح البئر آليا،
فهمت ؟

— نعم نعم، و اقسم لك على ذلك!

— لا داعي للقسم، فإذا أردت أن تتأكد من صحة ما قلت لك
فانطق بكذبة واحدة، و سترى لن تعيش لتستفيد من تجربتك ! ما
اسمك ؟

—الضاوي قوبع.

—عنوانك ؟

و جلس اسماعيل ينصت إلى الاستتطاق الآلي حتى وصلت
الأسئلة التي تهمة عن عصابة طنجة، و هل يعرف عنها شيئا ، و
هل سمع عن أحد أفرادها ، فكانت اجابته كلها سلبية.

و انتهى الشريط باعتذارات الأسير المنهار، و استعطافاته و
صراخه الهستيري، و هو يقسم ألا يعود إلى السرقة أبدا، و يرد
كل ما سرق إذا أعطيت له فرصة أخرى في الحياة.

و انطبقت العاصبة البلاستيكية على فمه، فأخذ يهتز و يرتعد داخل
التابوت رعبا أمام الموتة البشعة التي تنتظره.

و ظهر على لوح المؤشر الالكتروني رقم (2) مشيرا إلى عدد
الجثث التي صفيت.

و صعد اسماعيل إلى مرقدته فتمدد على سريرته، و قد أحس فجأة
بالارهاق. و لأول مرة غرق في نوم ثقيل كالأغماء، و كأن وجبة
الدم التي تناولتها روحه الجائعة للانتقام ، اثقلت بطنه، و شفته
من الأرق المزمن.

و حين افاق من سباته العميق، أحس بتجدد كبير في نشاطه ، و
حيوية غير عادية في فكره، فالتهم بشهية ما وضعته أمامه

خادمتة العجوز (حليلة) من بيض و جبن، و زبدة، و خبز
محمر، و فواكه، و قهوة، مما جعلها تقف مندهشة أمام مائدة
الفطور، سعيدة بعودة العافية إلى سيدها..

و مرت الايام..

و تعاقبت جلسات الاستنطاق لأسرى الفخاخ العشرة المنصوبة
حوالي شرفات الدار الفخمة.. و تعاقبت معها لحظات الاعدام
الرهيبه التي كانت تتلوها ساعات السبات العميق، ثم ساعات
اليقظة ، و الحيوية و النشاط..

و أصبحت العملية كلها أشبه ما تكون بحقنة مخدر سحري خفي
يروي ظمأ روحه المحترقة، و يطفىء أوارها، و يغرقه في موجة
من النشوة، و الراحة و الاسترخاء، ليستيقظ منتعش النفس، و
الفكر، ناسيا حقيقة حياته إلى نهاية النهار..

و في المساء كان يغادر المنزل في سيارته الفخمة، مطمئنا أن
الحارس العجوز الضعيف السمع، سينخرط في النوم، في غرفة
حراسته بجانب الباب، و بمجرد ابتعاده.. كان يخترق شوارع
المدينة الصاخبة إلى فندق (صوامع البيضاء) حيث ينزل من
سيارته، و يصعد إلى (حان بساط الريح) بالطابق الاعلى حيث
كان الجميع يعرفونه، و حيث كان يغرق في مقعده الوثير يشرف
منه على المدينة كلها، و يطلب شطيرة ساخنة و ابريق شاي، و
يجلس يتعشى و يمسح بعينه شبح المدينة المنتشرة أمامه على
مرمى البصر، و كأنها غابة سوداء تتلألأ بداخلها المصابيح و
أضواء السيارات المتقاطعة، دون أن يصله من هديرها المتواصل

إلا صوت بوق سيارة غاضبة، او صفارة شرطي.

و كان يلقي بنظرة فاحصة كل لحظة على منزله الذي كان يبدو،
رغم بعده متميزا وسط الغابة الصغيرة على حافة الحزام
القصديري المحيط بالمدينة، ليرى هل اشتعل أحد الأنوار
الخضراء العشرة فوق سطحه، كان كل ضوء يشتعل يعني وقوع
ضحية من لصوص الليل في فخ من فخاخه.. و كان اسماعيل
يحس، و هو غارق في مقعده الوثير، أنه يجلس في مؤخرة
مركب صيد جبار، و قد ربط نفسه بالأحزمة، و رمى بصنارته
بعيدا، و أمسك بقصبة صيد هائلة ينتظر من سيبلغ الطعم..

و كلما اشتعل نور أخضر، أحس بارتعاشة قوية تهز جسده
بكامله، و يسري مفعولها في أعماقه كتيار كهربائي لذيق.. و بعد
ساعة أو ساعتين ، يتأبط جرائده، و ينزل إلى حيث تنتظره
سيارته، و يتوجه إلى الفيلا، و هو يحلم بما يتوقعه من نشوة
الغوص في اعماق الوحوش البشرية الواقعة في شراكه.

و في كل ليلة كان يشتعل عدد من المصابيح الخضراء، و يمتلئ
عدد من الزنازن. و يصادف أحيانا أن يسقط اثنان في منزل
واحد، ف ينتظر احدهما الآخر على صف الاستنطاق.

و كان هو يترك سيارته أمام باب الدار الداخلي كطعم شهوي لعدد
من لصوص قطع السيارات كالراديوهات، و الكاسيتات، و صحن
العجلات، و زجاج الأضواء الأمامية و الخلفية، و كان يعتمد
مهمة دخولها على اللص، و يكتشف اللص المغفل، بعد لحظة
دخولها، و بعد فوات الأوان، أنه دخل بإرادته قفصا لم يستطيع

الخروج منه إلا إلى زنزانة الاستنطاق، ثم إلى بئر من النار..

و كان منبه خاص ينطلق بداخل الدار ليعلن وقوع اللص في شرك السيارة، فيطل اسماعيل ليرى هل كان اللص وحده، أو مصحوبا بشريك بقي خارج السيارة. و في الحالة الأخيرة، إما يحاول الشريك الافراج عن زميله فيصاب هو الآخر بصدمة كهربائية تفقده الوعي بمجرد لمسه مقبض الباب، أو أن يحاول الفرار، فيلاحقه اسماعيل ببندقية مخدرة تفقده الحركة بمجرد انغراز الشوكة في جلده.

و ينزل هو ويدخل الضحيتين إلى المرآب حيث يضغط على أحد الأزرار بداخله، فينفتح بئر يؤدي إلى القبو، فيلقي بهما فيه، و يعود إلى عمله بالداخل، فينشط آلات الاستنطاق، و يجلس للتفرج و الاستماع إلى قصص حياة هؤلاء التعساء المغامرين الغريبة المضحكة أحيانا، و المبكية أحيانا أخرى، و يسجل اعترافاتهم باجمعها على شريط الفيديو الملون. و حين ينتهي الاستنطاق، و يبدأ بالاستعطاف، و الاستغاثة، و الاستخذاء، أو الهوس و الهستيرية أحيانا، ينزل إلى تحت فيضغط على الزر و تسقط الجثة الفارغة أو المستهلكة كما كان يسميها جهاز الاستنطاق، أو المنطق (برفع الميم)، تسقط في البئر الزجاجي لتتهرىء و تتحلل في دقائق معدودة.

و ترقم علبة الشريط آليا، و يوضع في خانة خاصة به مع بقية الحالات الأخرى، و يخرج اسماعيل إلى حديقة المنزل، مع أشعة الصباح الأولى، فيركب حاصدة اعشاب صغيرة، ثم يعود إلى فراشه مثقل الرأس بشبه غيبوبة لذيدة من النعاس.

و لم يكن يعكر صفو حياته إلا شبح زبيدة التي كان يحس أنه يبدو
أمامها عاريا، كأنما تقرأ أفكاره أو ترى من خلاله كأنه لوح
شفاف.

كان وجوده معها في نفس المدينة، و لو في حجم الدار البيضاء،
كثيرا عليه ! فقد كان هو الآخر يستشف أفكارها، و يعرف أنها
جاءت من أجله إلى الدار البيضاء، و إنها عملت في أقصر مدة
على التعرف على زوجة صديقه ابراهيم لتعيد العلاقة القديمة، و
أنها لا محالة ستطوقه من كل جانب في اقرب الآجال. و كان ذلك
يضايقه، فيجلس للتأمل، مدة طويلة، باحثا عن طريقة للتخلص
منها بجعلها تدور في دائرة مفرغة حوله، دون أن تصل إليه.

و كان يأمل، في لحظات تفاؤل، أن تكون أنوثتها المتفتحة، و
نضجها، و سنّها، و مأساته هو قد خففت من عنادها و إصرارها
على الظفر به، و اعتباره غرامها الأول و الأخير، و ندها الوحيد
في العالم.

و في ظهر يوم السبت، جلست زبيدة تساعد مريم على تركيب
الجواهر في أحد قفاطينها القديمة التي عاد شكلها إلى الظهور من
جديد على صفحات الموضة، و تتحدثان ، و سألتها مريم بطريقة
عابرة:

—هل رأيت اسماعيل ؟

—متى ؟

—بعد الحفلة.

—لا.

—لم يتصل بك ؟

—لا ، و لماذا يتصل بي ؟

فقالت مريم باستغراب:

—لماذا يتصل بك ؟ سؤال غريب ! و لماذا يتصل الرجال بالنساء ؟

ثم رفعت وجهها عن القفطان، و قالت و كأنها تخاطب نفسها:

—أحيانا تتمنى المرأة أن تكون رجلا، أو على الأقل تكون لها بعض امتيازاته الاجتماعية.

فسألت زبيدة دون أن ترفع رأسها:

—مثل ماذا ؟

—قبل أن أتزوج، كنت أتمنى لو أستطيع رفع سماعة التليفون، و الاتصال بشاب اعجبني، و ضرب موعد معه إلى السينما، أو العشاء في مطعم، أو على الشاطئ، تماما كما يفعل الرجال معنا

نحن النساء، و كنت اتمنى بحرارة على الله أن يبعثني رجلا، في
العالم الآخر!

فتوقفت زبيدة لتتساءل:

—و لكن ، ما الفائدة ؟

و فاجأ سؤالها مريم ، فأجابت:

—ما الفائدة ؟ الفائدة هي أن نتحكم نحن في مصائرنا، و لا نبقى
سلبيات جالسات على الرفوف كالسلعة المعروضة للبيع، ننتظر
من يأتي لشرائنا.

—لا أعتقد أن النساء سلبيات، فقد منحتنا الطبيعة الأنوثة و
الجاذبية التي لا يستطيع الرجال مقاومتها، و أية محاولة تعكس
الأدوار الطبيعية بين الرجل و المرأة، لا تؤدي إلا إلى الفشل و
خيبة الأمل.

ثم عادت إلى ابرتها و هي تقول:

—أنا شخصا، افضل أن يناديني الرجل على أن أناديه أنا، و
اعرض نفسي عليه.

فقالت مريم معارضة منطقها:

—معك الحق في أن الوجه الإيجابي للمرأة هو أنوثتها و

جاذبيتها الطبيعية، ولكن ألا نساعد نحن الطبيعية بالتزين، و
المساحيق، و العطور و رشاقة الحركة، و أناقة المظهر ؟ ألا
يمكن أن تكون المرأة ايجابية في اختيارها لرجلها بعرضها
مفاتها الطبيعية عليه بذكاء المرأة الفطري ، و انفتاحها نحوه
دون غيره ، و خلق الصدق و المناسبات للاجتماع به ، الرجل
ميال دائما إلى المرأة التي تهتم به.

فضحكت زبيدة، فقالت مريم:

—ما الذي يضحك ؟

—انت.

—أنا ؟ ماذا قلت ؟

—قلت عكس ما قلته في البداية، توصلت بنفسك و بقليل من
التفكير، إلى عكس ما كنت تؤمنين به في البداية، و هذا ما يجعل
المرأة متناقضة في نظر الرجال، قلة تفكيرها، و تحليلها ، و
عمقها.

فنظرت إليها مريم مبتسمة و قالت مستسلمة:

—أنت تفكرين مثلهم، دعيهم يفكرون لنا، يكفيانا نحن أن نستمع
بثمار تفكيرهم و مجهوداتهم، هم الذين اختاروا لنا هذا الدور،
فلماذا لا نلعبه إلى النهاية.

و ضحكت الاثنان، و عادت مريم تقول:

—و لكن بجد، يا زبيدة، أنا أريد أن أفعل شيئاً من أجلكما، انت و اسماعيل، أنا اعتقد أنك انسب زوجة له، و هو لن يجد مثلك أبداً، فانت جميلة، و مثقفة، و بنت بلده، و تعرفين عائلته بأجمعها، و فوق كل ذلك تحبينه.

و احنت زبيدة رأسها، و افتعلت الانشغال، فمدت مريم يدها و رفعت وجهها المستدير نحوها، فإذا عينيها مغرورقتان، فسألت مريم:

—تحبينه ؟ أليس كذلك ؟

و لم تجب زبيدة، بل أخرجت منديلاً صغيراً من حقيبتها، و جففت به عينيها و منخريها، فقالت مريم غير فاهمة:

—و الله لا أدري ما يمنع اسماعيل من الزواج بقمر مثلك ! و قد سألت ابراهيم عدة مرات، فأجابني بأنه هو الآخر حائر في أمره، و لا يعرف ما يجول في عقله، يبدو أنه ما يزال واقعا تحت تأثير الحادث و لم يشف تماماً من الصدمة الملعونة.

و تنهدت بعمق و قالت:

—و لست ألومه بالمرّة، فموت زوجة و طفلة يحبهما الرجل بتلك الطريقة، يبعث على اليأس من الحياة ، إذا لم يؤد إلى الانتحار. ولكن لا يأس مع الحياة، كما يقول الحكماء، و الزمان

خير طبيب لجراح النفس، مهما عفنت، و علينا أن نسارع بعلاج
اسماعيل، و بمساعدته على النسيان و عليك أنت أن تتعاوني
معي.

رن جرس التليفون في قاعة الجلوس الصغيرة، فرفعته الخادمة
حليمة، و نادت سيدها اسماعيل، و كان هو في الحديقة يركب
زجاجا جديدا لبعض المصابيح الكاشفة التي تعرضت لسيل من
الحجارة وراء السور، و أمسك بالسماعة فقالت له حليمة انها
مريم.

—آلو ، مريم.

—اسماعيل ، كيف حالك ؟

—الحمد لله ، وأنت و ابراهيم ؟

—الحمد لله، اسمع، إذا لم يكن لك التزام هذا المساء، و أرجو ألا
يكون ، و إذا كان ، فارجو ان تلغيه.

فضحك اسماعيل:

—هذه شروط " الجزيرة الخضراء! "

فجاءه صوت مريم ضاحكا :

—المسألة أهم من ذلك، فهي تتعلق " بزرده! "

—إذا كان كذلك، فكل الشروط مقبولة، ماذا طبختم ؟

—الكسكس بالدجاج و الزبيب و البصل، تعال مبكرا هذ آلمساء
سيعود ابراهيم مع السادسة.

—قريبة و لو كانت في (قبعنزا..)

(—قبعنزا) ؟ ما معنى قبعنزا ؟

—لا أدري، و لكنه اسم مناسبه لمدينة على المريخ.

فضحكت مريم، و عقت:

—كدت تشككني في معلوماتي الجغرافية، ستأتي إذن.

—و هل استطيع الرفض، و قد وضعتني بين فكي لسعات
لسانك، و اغراء الكسكس ؟

و وضع السماعة، و خرج إلى الحديقة يتم تركيب المصابيح و
كان " ابا الجيلالي " حارس الدار العجوز، يجمع قطع الزجاج
المكسورة، و يحرك رأسه غير فاهم. فلما رأى اسماعيل ، قال:

—كان ينبغي أن تشتكيهم للشرطة، سوف يعودون لمثل هذا
التخريب و اكثر إذا لم تفعل، أولاد هذه المنطقة صعاليك، و بدون
تربية، و من لا يربيه أبوه تربيته السجون.

فقال اسماعيل، و هو يغطي مصباحا بشبكة حديدية:

—من يخوض الحرب لا يشتكي العدو.

و نظر إليه الحارس العجوز بعينين نديتين غائمتين غير فاهم
فأضاف:

—كيف سيعرفون الفاعل الحقيقي ؟ أنت تعرف كيف تعالج
الشرطة مثل هذه الحالات ، إنهم يقبضون على الجميع، المذنب و
البريء . و في نظرهم أن الواحد من هؤلاء مذنب حتى تتأكد
برأءته.

و اجتذب حليلة الحديث حول هذا الموقف الدقيق فوقفت هي
الأخرى تنصت إلى (أبا الجيلالي) ، يرد على اسماعيل:

—انهم على حق، فهم يعرفون شغلهم ، إذا عاقبوا بريئا من
هؤلاء ، فهو بريء فقط من تلك التهمة التي وجهت إليه، و لا بد
أنه اقترف أخرى ، أو سيقترفها قريبا، و يستحق العقاب عليها!

فضحك اسماعيل و قال:

—هذه عدالة عشوائية يا " با جيلالي " ، و حسب منطقك ،
ينبغي أن نكون جميعا وراء القضبان أو في قبضة الشرطة!

فتدخلت حليلة قائلة:

—الحق مع " با جيلالي " ، يا سيدي اسماعيل، الشرطة يعرفون طبائع هؤلاء جيذا، فما يكادون يقبضون على جماعة حتى تعترف بجميع ما فعلته الجماعات الأخرى من صغيرة أو كبيرة، لا شرف لهم، و لا رجولة.. ولا مروءة، حيوانات تأكل بعضها بعضا.

ثم تنهدت و أضافت:

—كان ينبغي أن تبني هذه الدار الجميلة ، هذا القصر البديع، في مكان يستحقه، مثل (أنفا) مثلا، لا في هذا الثلث الخالي.

و نطق الشيخ:

—من لطف الله أنهم لم يدخلوا لنا، و لم يسرقوا شيئا من داخل الدار، حتى الآن ، فنحن هدف سهل لأصغر صعلوك.

فقال اسماعيل مدافعا:

—لا خوف عليكم من هذه الناحية، فإن هذه الدار محصنة بحجاب في كل ركن من أركانها ضد اللصوص و قطاع الطرق، بعث لي بها الوالد من عند فقيه كبير يعرفه بطنجة، و قد نشأت أنا بنفسني في أحد الأحياء الفقيرة، و ما كنت لأنسى أصلي.

فقالت حليلة غير مقتنعة بمنطقه:

—و لكن الله اغناك، و أخرجك من زمرة البؤساء و المحرومين.

فرد اسماعيل:

—تلك هي الفكرة ، إذا كل فقير اثرى بقي بين الفقراء، يساعدهم
و يستخدمهم و يكون قدوتهم في العمل الجاد البناء . كما كان
العهد في الماضي، قبل دخول الاستعمار، لم تتكون الطبقات في
البلد، و لم ينقسم المجتمع إلى أغنياء و فقراء، و لم يجد
المهرجون و طلاب السلطة هذه الجيوش المركزة من الساخطين
مكدسة في الأحياء الفقيرة، يزرعون فيها بذور السخط، و
يطمعونها بالآمال الكاذبة في عالم أفضل لا سبيل إلى تحقيقه
بامكانيات البلد الحالية.

و ادرك اسماعيل انه يخطب فتوقف ، و حركت حليلة رأسها قائلة
:

—ليتنا بقينا كما كنا، و لكن الزمن تبدل و الناس تغيروا، و لا
يمكنك أن تعيد المركب إلى الوراء أنت وحدك، و ما عليك إلا أن
تسير مع التيار.

و حركت رأسها في حزن و أضافت:

—و بماذا يجازيك هؤلاء الذين جئت للسكنى بينهم ؟ تعين
ضعافهم ، و تتوسط لطالبي العمل منهم مع الشركات ، و
تستخدمهم في أوراشك، و تقرضهم المال الذي لا يردونه ؟ إنهم
يجازونك بالإشاعات و الأراجيف!

فانتفض اسماعيل ، و سأل:

—ماذا سمعت ، يا حليلة ؟

فتفادت الاجابة حتى لا تغضبه:

—لا داعي لتكرار الاكاذيب التي يملئها الحقد ، و الحسد و
الجهل..

—أريد أن أعرف ما يقولون يا حليلة، فماذا سمعت ؟ إنه يهمني
.

—يا سيدي لا داعي.

فقاطعها أمرا:

—ماذا قالوا يا حليلة ؟ ماذا يقولون ؟

فقالت، مخلة كلامها بالدعوات القاسية على القائلين:

—يقولون ، يا سيدي، أن الدار مسكونة، و بعض النساء يطلقن
عليها اسم " الدار الخبيثة " . و منهم من يقول إن ساكنها ملعون
تلاحقه الكوارث، انزلها الله عليهم ، و أغرقهم في الويلات !

و لم يعلق على كلامها، و دخل يغير ملابسه ليذهب إلى دار
صديقه ابراهيم للعشاء.

أيمكن أن تكون هذه بداية انكشاف جرائم اسماعيل ؟
أم مجرد قهقهات أفوام الغيورين ؟
و هل لزبيدة أملا في كسب قلب اسماعيل ؟

بانتظار باقي الأجزاء..
دمتم في أمان الله..

الجزء 7:

فقالت، مخلة كلامها بالدعوات القاسية على القائلين:

—يقولون ، يا سيدي، أن الدار مسكونة، و بعض النساء يطلقن
عليها سم " الدار الخبيثة " . و منهم من يقول إن ساكنها ملعون
تلاحقه الكوارث، انزلها الله عليهم ، و أغرقهم في الويلات !

و لم يعلق على كلامها، و دخل يغير ملابسه ليذهب إلى دار
صديقه ابراهيم للعشاء.

و في دار ابراهيم دخلت مريم على زبيدة غرفة نوم الضيوف التي كانت هذه تحتلها بصفة شبه دائمة، فوجدتها تضع آخر اللمسات

على وجهها أمام المرأة، و نظرت إليها و سألت مستعجلة لها:

—ألم تنتهي بعد ؟

فالتفتت زبيدة إليها بوجه شبه خال من المساحيق، و قالت:

—بلى انتهيت.

فنظرت مريم إليها غير موافقة:

—هل تخرجين هكذا بدون ماكياج ؟

—إنه لا يحب الماكياج ، أنا اعرفه.

—صحيح ؟

—لا تقلقي، هل أساعدك بشيء ؟

—ساعديني بشيء واحد، كوني جميلة و فاتنة هذه الليلة، حتى ندخل الطائر الشارد قفص الزوجية السعيد.

و ضحكتا، و انحنى مريم فنظرت في المرأة إلى وجهها المستدير

الجميل ، و شعرها البني المنسدل خلف ظهرها، و خرج الاثنان
للترحيب بالرجلين.

و نظر اسماعيل إلى زبيدة و هي مقبلة عليه في فستانها الأزرق
المنقط بالبياض، و وجهها المستدير الأبيض الخالي من
المساحيق، و شعرها اللامع مربوطا إلى الخلف بعناية، فابتسم
لها، و مد يده، فوضعت يدها الناعمة فيها ، و ارتفعت لتقبيل
وجنتيه.

و قبل أن يجلس الجميع، سألتهم مريم ماذا يشربون، فقال ابراهيم
مستبقا الأحداث في مرج:

—اعرف ما سيطلبه اسماعيل.

و لم يزد اسماعيل على أن يبتسم ، فسارعت مريم للدفاع عنه:

—دع نصائحك الهوجاء عندك، أيها المبشر ! أنت فقط تغار منه
لأنه لا يشرب.

فأجاب ابراهيم متحديا:

—أنا أغار منه؟! أنا أرثي للمسكين ، و هو يتجرع تلك
المشروبات الميتة، بلا روح، و لا شخصية، و لا معنى ! الشاي،
عصير اللفت، عصير القرعة ! عصير الكرمب ! الحريرة، زيت
الخروع!

و حرك رأسه يائسا و اضاف:

—لو كان يشرب المشروبات الحية، لسهل علينا الكثير من المتاعب، لوقع ، هو الآخر ، وقعتي أنا فيك!

فتصدت له مريم:

—المشروبات التي تسميها أنت ميتة، مشروبات عامرة بالفيتامينات يا حضرة المهندس ! أما عن وقعتك في، فربما كانت تلك اللحظة هي لحظة الوعي الوحيدة في حياتك!

و ضحكت زبيدة، و صفق اسماعيل:

—برافو، مريم، ما أحوجنا إلى محامية مثلك في الشركة!

فاعترضت مريم:

—أنا أدافع عن نفسي فقط، أما المحامية الصالحة للشركة، فها هي.

و أشارت إلى زبيدة.

و هناك التفت ابراهيم إلى اسماعيل ، و قال متذكرا:

—ايه ، بالمناسبة يجب أن تبارك لزبيدة.

و خفق قلب اسماعيل، فوجيء بالكلمة، و تصور زبيدة متزوجة لأول مرة، و لم يكن زواجها من رجل آخر يخطر له على بال، كان يؤمن في قرارة نفسه أنها خلقت له هو وحده، لحبه حبا مطلقا بلا حدود، بلا أمل، بلا زواج، خلقت لتعبده، لتحرق له البخور، لتكون مملوكته دون مقابل.. لتتصب الحبال لحبه، و ليفر هو من ذكائه الخارق بذكائه، و لتستمر اللعبة هكذا بلا نهاية.

و لم تنفرج أزمته المؤقتة إلا حين سمع صديقه ابراهيم يقول:

—اخيرا نجح محامي شركتنا في اقناع زبيدة بالالتحاق بالشركة
!

و تنفس اسماعيل الصعداء، فأضاف ابراهيم:

—كانت دائما تعارض ، و حاولت المستحيل معها، فكنت كمن
يجر القطة على الحصير!

و ضحكت زبيدة ضحكتها العذبة، فقال اسماعيل:

—و لكن لماذا كنت ترفضين ، يا زبيدة ؟

فأجاب عنها ابراهيم:

—النساء كالقطط، يألفن المنازل، و لا يردن فراقها، و خصوصا
إذا كان في المنزل قط جميل.

فأجابت زبيدة بأسلوبها الفاصل:

—أخطأت ، يا ابراهيم، في الحالتين، لم يكن هناك منزل ، و لا
قط، كنت أفضل العمل هناك، و الحياة هنا، حتى أبقي بعيدة عن
مشاكل العمل.

فقال اسماعيل:

—في الواقع، الذي يستحق التهنئة هو الشركة، فقد كسبت
محامية لامعة،

و احمر وجه زبيدة وهي تستمتع إلى ثناء اسماعيل، و دخلت
مريم خلف الخادمة التي كانت تحمل المشروبات لتسمع زوجها
يقول:

—زبيدة فتاة هائلة، و تستاهل كل خير، و نرجو أن نبارك لها
قريبا في حدث أهم، إن شاء الله.

و أحس اسماعيل بحرارة في جلده، و بنظرة من عيني زبيدة
تمسح رد فعله.

و توجهت الخادمة نحو اسماعيل، فقالت لها مريم:

—ابدئي بزبيدة.

و علقت:

—ألف مرة أقول لها أن تبدأ بالسيدات، و لكنها لا تؤمن بأسبقية النساء.

و تناول اسماعيل كأسه، و انتظر حتى خرجت الخادمة، و قال معقبا:

—الحمد لله على أنها امرأة، تعرف بنات جنسها!

و ضحك الجميع، فوقفت مريم، و أشارت برأسها لزوجها و غمزت له، دون أن يلحظها الآخران:

—تعال ساعدني على انزال صندوق الاسطوانات من الصقلبية، الجو في حاجة إلى دفء الموسيقى.

فتناول ابراهيم كأسه، و عب منها، و تبع زوجته صاعدا إلى الطابق الاعلى، و في غرفة نومها وقفا يتهامسان، فعلق هو بقوله:

—هذه لعبة مفضوحة لتركهما معا، ما كانت لتفوت على أي منهما.

—المهم هو ترك الفرصة لهما للحديث، للاختلاء ببعضهما ، من يدري ؟

فقال ابراهيم مازحا:

—حقا، أنت تستغلين الحديث القائل : " ما اختلى رجل بامرأة ،
إلا كان الشيطان ثالثهما! "

—لا يهم من سيكون ثالثهما إذا كان سيقرب بينهما ، و يرمي
بهما في النهاية على فراش الزوجية.

فاقترب منها، و امسك بخصرها بيديه، و قال متذاوبا:

—لا تقولي تلك الكلمات اللذيذة ، إنها تثيرني، و تدغدغ
مشاعري الغرامية.

فدفعته هي عنها سائلة:

—الكلمات ، او الكأس ؟

فقال و هو يضمها إليه:

—لا الكلمات، و لا الكأس، أنت كلماتي و كأسـي.

و في غرفة الجلوس، وضعت زبيدة يدها على فمها لتكتم ضحكتها
و قالت لاسماعيل:

—لعبة مكشوفة.

فتساءل اسماعيل متجاهلا:

—نعم ؟

فشرحت زبيدة مشيرة باصابعها اشارة التسلل:

—لعبة الخروج ، و تركنا وحدنا.

فابتسم اسماعيل ، و رفع رأسه فاهما:

—نيتها حسنة، فلنسايرها.

فعلقت زبيدة لاسعة:

—سيخيب أملها على المدى الطويل!

و فكت ساقها المشبكتين تحت الكرسي بقوة علامة على توتر
أعصابها، و نهضت نحو الستريو الكبير قافزة:

—أنا أعرف أن كل أسطواناتهم هنا تحت، و لا شيء فوق،
سأختار واحدة، هل لك اختيار معين ؟

—أختاري شيئاً ، ناعماً بعد مطارق البناء طول النهار،
الموسيقى الصاخبة توتر أعصابي.

و وضعت اسطوانة حاملة، و عادت إلى الجلوس قبالة اسماعيل،
و قالت:

—هذه مجموعة مختارة لأغاني " دنوفان " .. المغني
البريطاني، هل تعرفه ؟

—سمعت بعض اغانيه.

هو المغني الوحيد الذي احتلت أغانيه كلها الرقم الاول على لوائح
أروج الأغاني و أوسعها انتشارا، و بقيت هناك عدة اسابيع.

—أجده ناعما نعومة الإناث.

—لعل ذلك ما حبه إلى الجنسين.

و ساد الصمت لحظة ، فتناولت زبيدة كأسها، و رشفت منه رشفة
خفيفة بشفتيها الممتلئتين، و قد عادت إلى لف ساقها تحت
الكرسي، و وضعت كأسها ثم نظرت إلى كأسه:

—هل أجدد مشروبك ؟

فنظر هو إلى كأسه نصف الملائنة، و حرك رأسه بالنفي، فاضافت
:

—قطعة ثلج ؟

—لا شكرا.

و حتى ينقذها من حرجها، قال:

و— هل حقاً سنتنضمين لمكتب محامينا ؟

فحركت رأسها بالايجاب:

—نعم، عقدي مع المكتب الحالي سينتهي هذا الشهر.

—لماذا ستتركين مكتبك الاول، و قد عرفك الناس فيه ؟

—السبب بسيط، أجرة الوظيفة الجديدة ضعف أجرتي الحالية تقريباً. و سأخذ مبلغاً في المائة، كعمولة على كل قضية اشتغلت بها.

و ضحكت معلقة:

—اغراء لا يقاوم!

—برافو ، و حين ينتهي تدريبك، هل ستفتحين مكتباً خاصاً بك ؟

فزمت شفيتها، و حركت رأسها الأنيق برشاقتها المعهودة في تردد:

—لا أدري، حسب الظروف .. المحاماة عالم الرجال.. و التنافس فيه شديد، و غير شريف أحياناً.. و لا أعتقد أن فيه مكاناً للمرأة، على الأقل الآن..

فعارض اسماعيل:

—ليس بالنسبة لك أنت، يا زبيدة.. فأنت بعشرة رجال..

فأشاحت عنه بوجهها غير موافقة:

—لا أدري ما يجعلك تفكر عني هكذا.. أرجو ألا تكرر هذا بين
الناس.. فذكاء المرأة دعاية ضدها، سواء بين الرجال أو النساء..
لا يريد أحد أن يقربها.. كأنها برميل بارود!

فضحك اسماعيل:

—لا تبالغي! المثل يقول: "وراء كل رجل عظيم امرأة."

—امرأة فقط، امرأة محبة، مخلصه، خادمة، أمينة.. أما ذكية
فلا.

—المرأة الذكية هي التي تستطيع اخفاء ذكائها بمهارة!

—ليس في ميدان عملي.

و خلف الباب ، وقفت مريم تنصت إلى حديثهما، و تستمهل
ابراهيم وراءها. و حين أدركت موضوع الحديث تصنعت الدخول
المستعجل معتذرة:

—تركناكم وحدكم، الضيوف عند الدجاج .. ! بحثنا طويلا هذه
المدة، عن الاسطوانات، فلم نعثر لها على أثر..

فغمزت زبيدة اسماعيل، و ضحكت خلف يدها ضحكة مكتشفة
اللعبة و قالت:

—ونحن لم نضع وقتا في انتظاركما، فقد عثرنا هنا على
الموسيقى و رقصنا، و ها نحن نستريح.

و دخل ابراهيم شاكيا:

—متى سنأكل ؟ الجوع قتلني!

و بعد العشاء ، اختلى ابراهيم بصديقه داخل المكتبة، و جلسا
يتحدثان ، قال ابراهيم دون مقدمة:

—ما رأيك في زبيدة ؟

و افتعل اسماعيل المفاجأة، رغم أنه كان ينتظر السؤال ، و أجاب
:

—ماذا تعني؟ من أية ناحية ؟

—كامرأة .. كزوجة..

—زبيدة فتاة ذكية للغاية.. و يمكن أن تكون زوجة عصرية

ممتازة لرجل يحبها في مثل ذكائها.

—أريد أن أعرف رأيك فيها كزوجة لك. و سامحني إذا تجرأت عليك هكذا، بدون مقدمات. أنت في حاجة إلى زوجة، حتى و لو لم تشعر بذلك.. أنت في حاجة إلى انثى تقف بجانبك، تحبك، تملأ دارك، و تقاسمك فراشك و حياتك.. و تنسيك المأساة التي أصابتك.. انثى جميلة، و ذكية، تفهم ظروفك الصعبة و تقدرها، و زبيدة في نظري، هي تلك الأنثى ، إلى جانب انها بنت بلدك، و صديقة عائلتك، و تعرفك منذ صباك، و فوف كل هذا تحبك حبا مبرحا غير مشروط، و بلا حدود ! حبا لا يوجد مثله في هذا العصر، فلماذا لا تتشجع ، و تخطو الخطوة الأولى و الحاسمة.. لعلها تعطيك طفلة أو طفلا يعوضك عما ضاع منك من سعادة.. و ينسيك ما عانيته من شقاء ؟

فتنهذ اسماعيل بعمق، و قال بعد فترة صمت و تأمل:

—فاجأتني بسؤالك هذا، يا ابراهيم .. رغم أنني كنت أتوقعه، و صدقتني، أنا الآخر أريد أن اقطع هذه المرحلة.. و لكنني احتاج إلى وقت.. الجرح عميق.. و يحتاج إلى وقت ليندمل، و ليس من حقي أن اشرك زبيدة، أو أية امرأة أخرى، في محنتي هذه.. أن أركبها في زورقي هذا الذي تتقاذفه العواصف، حتى أصل بر الأمان..

—النساء أقوى من الرجال على تحمل الكوارث. و هن يهوين المشاكل و الصعاب، ، و التضحيات، و خصوصا من أجل حب كبير..؛ فقد خلقن لذلك، و قد تجد في زبيدة ذلك الربان الماهر الذي يساعدك على الخروج بالسفينة إلى شط السلامة..

و كان اسماعيل ينصت إليه فيسمعه يتكلم بصوت زبيدة، و ينظر إليه فيرى وجهها، و يلتفت حواليه فيجد ذراعيها تطولان لتحيطا به و تطوقاه و تربطاً مصيره بمصيرها إلى الأبد..

و سكت ابراهيم ، و انتظر جواب صديقه فتهد اسماعيل مرة أخرى و قال:

— ابراهيم.. أنت تعرف كم أنت و مريم عزيزان علي، و أنا أعرف انك مدفوع فيما تقوله الآن، بدافع حبك لي، و رغبتك الأكيدة في اسعادي، و ليس أعز علي من النزول عند رغبتك.. و لكنك أدري بأن الزواج لا ينبغي أن يتم نزولا عند رغبة صديق أو عزيز، أو شفقة من حال عاشق، أو امتنانا لجميل.. هل توافقتي على هذا ؟

فقال ابراهيم:

— تماما.. تماما.. إلا أنني كنت آمل أن يكون الأمر غير ما وصفت.. تشجيعي لك دفعة في نفس اتجاه عواطفك الحقيقية.

فقاطعه اسماعيل:

— إذن، فبحق المحبة، اعطني بعض الوقت، ليس لدي ما اقول في زبيدة، و ليس هذا رفضاً مني لها، نفسي فقط، لم تطب بعد لقبول المبدأ. فسامحني إذا خيبت أملك ، و أمل الأخت مريم.

—أرجوك يا عزيزي، لا تحسب هذا ضغطا مني عليك، ابدا ! و
لا أريد أن ينفرك هذا من بيتنا، فإني أعدك ألا أكلمك في
الموضوع، مرة أخرى، إلا برغبة منك، كنت أريد فقط، أن أعرف
رأيك الآن ، و قد مرت على الحادث المشؤوم سنة كاملة.

و خرج الرجلان للانضمام إلى مريم و زبيدة و هما يتفرجان على
التلفزيون.

و في نهاية السهرة، عرض اسماعيل على زبيدة أن يأخذها إلى
شقتها ، فشكرته معذرة بأنها ستنام عند مريم.

و في مدخل الدار رأى سيارتها الصغيرة البيضاء، فقرأ رقمها، و
صوره في ذاكرته و دخل سيارته، و خرج بها إلى الشارع ملوحا
بيده من النافذة لابراهيم و المرأتين و هم واقفون يودعونه على
الباب.

و حين اختلت مريم بابراهيم في غرفة نومهما بادرت بسؤاله
بالحاح كبير:

—ماذا قال ؟ ما رأيه في زبيدة ؟

فاستمهلهما قائلا:

—على رسلك ! سؤال واحد في المرة، قال لي ، يا سيدتي، إن
نفسه لم تطب بعد للتفكير في مبدأ الزواج، و هو لا يرفض زبيدة
بذاتها ، و ليس له شيئا ضدها.

فسألت مستغربة:

— هذا كل ما قال في ساعة بكاملها ؟

— هذا ملخص ما قال، و لا تنسي أنني أنا الآخر، تكلمت كثيرا و كان علي أن أدور و ألفت لأدخل في الموضوع بطريقة دبلوماسية حتى لا أفزعه.

— و لكن اكيدا قال لك أكثر من هذا.

— طبعا ، قال كثيرا، قال أن الجرح لم يندمل بعد، و أن الزواج لا يجب أن يكون لسبب غير الحب ، و ترجائي ألا اضغط عليه، و أن اعطيه بعض الوقت:

فاقتربت منه مريم مستبطنة:

— و لكن ماذا فهمت من كلامه ؟ اعني من وراء كلامه، من نظراته ، من نبرات الكلمات و هو يقولها ؟ الرجل قد يقول " لا " ، و هو يعني " نعم " في بعض الاحيان ، أنت عارف، و خصوصا في مثل هذه المواضيع العاطفية .

فأجابها بحزم:

— اسمعيني يا امرأة، لم أفهم مما قاله أية رغبة في الزواج على الاطلاق ! لا فوق السطور و لا تحتها، و لا بين الكلمات و لا

وراءها، كان موقفه من الموضوع بأسره سلبيًا للغاية ، و كان يتألم و يتمنى لو لم أثره بالمرّة، و قد وعدته ألا أفعل إلا إذا أراد هو، فدعي الرجل و شأنه!

فضربت يدها ببعضهما ، و قالت:

— و ماذا سأقول لزبيدة الآن ؟ كانت المسكينة تنتظر نتيجة المفاوضات بعد ما أخبرتها بأنك ستكلمه في الموضوع.

فقال ابراهيم مستنكرا:

— كيف ؟! كيف تجرئين على فتح أبواب الأمل الكاذبة للفتاة المسكينة قبل أن تتأكدي من حقيقة شعور الرجل نحوها ؟ هذا منتهى حماقة و الطيش!

ورفع صوته فبادرته مريم:

— ششش ! اخفض من صوتك ! قد تسمعك!

فقال متبرئا من الموضوع جملة:

— أنا لا دخل لي في هذا، و انت التي عقدتها بيدك، عليك أن تفتحها بأسنانك.

و دخل الحمام و صفق الباب خلفه.

و في طريقه إلى منزله نظر اسماعيل من فوق مرتفع على الطريق فرأى نورا أخضر منفردا فوق سطح الدار.

و تساءل في سره عن السبب في تضاؤل الضحايا في الأسابيع الأخيرة ، هل لأنه أفنى أغلبهم ؟ أم لانهم شعروا بالخطر ؟

و استبعد النظرية الأولى .. لأن كل القرائن العلمية تدل على أن الجريمة في العالم كله في تفاقم مستمر، بسبب تزايد السكان، و تطاحن المذاهب السياسية، و تلويحها للطبقات المسحوقة بحياة أفضل، تلك الحياة التي يجب على الاجيال الحاضرة أن تضحي بهنائها من أجل تحقيقها للأجيال القادمة. زيادة على أن الجريمة هي الوجه الخلفي لجميع المجتمعات كيفما كانت مذاهبها السياسية ، و انظمة الحكم فيها، فالمجرمون مكروبات اجتماعية تتعايش مع كل نظام. و هي نفسها نظام قائم بذاته، لا تقبل الاندماج في أي نظام اجتماعي آخر.

فهل ، اذن ؛، شعر المجرمون بالخطر ؟

ربما، و تذكر ما قالته خادمتة حليلة عن الاشاعات الرائجة في وسط سكان مدينة القصدير من أن داره مسكونة، و أنه ملعون تلاحقه الكوارث.

و ابتسم في سره، فلا دخان بلا نار، لا بد أن معسكر الجريمة قد

منى بهزائم و خسائر فادحة في ارواح أبطاله من عتاة القتلة و
السفاحين، أولئك الذين ذابت أجسادهم القدرة في محلولة
المحرق، و تبخرت أرواحهم الشريرة في الهواء.

انتهى البارت..
دتم برعاية الله و حفظه..

الجزء 8:

فهل ، اذن ؛، شعر المجرمون بالخطر ؟

ربما، و تذكر ما قالته خادمتها حليلة عن الاشاعات الرائجة في
وسط سكان مدينة القصدير من أن داره مسكونة، و أنه ملعون
تلاحقه الكوارث.

و ابتسم في سره، فلا دخان بلا نار، لا بد أن معسكر الجريمة قد
منى بهزائم و خسائر فادحة في ارواح أبطاله من عتاة القتلة و
السفاحين، أولئك الذين ذابت أجسادهم القدرة في محلولة
المحرق، و تبخرت أرواحهم الشريرة في الهواء.

و على بوابة الفيلا الحديدية، وقف اسماعيل بسيارته، و ضغط
على أحد الأزرار أمامه، فانفتحت البوابة آليا عن طريق عين
كهربائية لاسلكية و دخلت السيارة، و عاد الباب إلى الانقفال،
دون أن يفطن الحارس العجوز النائم.

و خرج اسماعيل من السيارة، و ضغط على زر الميكانيزم
الجهنمي الذي يحولها من سيارة أنيقة معرضة للسرقة على باب
الدار إلى مصيدة للفيران البشرية.

وفتح صندوق البريد الخارجي فانقطع التيار الكهربائي آليا بداخله
و أخرج جرائد المساء، و بقية الرسائل، و عاد إلى اقفاله سعيدا
باختراعه الجديد الذي أبعد صغار اللصوص و المجرمين الذين
كانوا حين يعجزون عن سرقة ما بالصندوق، يلقون بداخله وقيدا
مشعولا، فيحرقون كل ما به. فلم يكن يجد إلا أكواما من الرماد،
أما الآن فكان التيار الكهربائي يركل بقوة كل من يتجرأ على
إدخال يده، و يطفىء الوقيد آليا بمروحة سريعة.

و صعد إلى غرفة نومه، فضغط زر آلية المراقبة، فخرجت من
مخبئها، و لمس بعض ازرارها، و نظر إلى الشاشة الكبيرة
المواجهة للسرير، فإذا بشاب في نحو الخامسة و العشرين واقع
داخل الأنبوب الزجاجي الضيق، يحاول يائسا أن يتحرك، و ينادي
و لا من يجيب.

و غير ملابسه ، و قعد يقرأ بريده بسرعة، ثم فتح الجريدة
المسائية و ذهب رأسا إلى الصفحات الداخلية الخاصة بالأحداث
المحلية.

و توقف عند صورة طفل جميل الوجه محاطة باطار اسود،
مكتوب فوقها " البحث عن متغيب " و تحتها كان وصف عام

للطفل و ملابسه و سنه الذي لم يتجاوز السابعة، و عنوان عائلته
و رقم التلفون، مع رجاء حار باك لكل من رأى الطفل باخبار
والديه أو قسم الشرطة.

و كانت مثل هذه الصورة ، التي تكاد تظهر يوميا بالجرائد تبخع
نفسه ألما و حزنا، و ثورة على المختطفين، و مشاركة لعواطف
والدي الضحية البريء، و كان يبدأ بمناداة صديقه رئيس
الشرطة، و سؤاله عن الضحية الجديدة، و هل عثروا عليها، ثم
عن الضحايا القدماء، و كان جميع المسؤولين يعرفون مأساته، و
يقدرّون مشاعره نحو الآخرين الذين أصيبوا بمثل مصائبه.

و في المرات القليلة التي كان الطفل فيها يعود إلى أهله، كانوا
يسرعون إلى اخباره بابتهاج كبير، و يحتملون تقريعه لهم عن
عدم نشر خبر ظهور الطفل بالجرائد حتى يطمئن الرأي العام، و
كانوا يعدونه، كل مرة، باخبار الصحافة، و لا يفعلون.

و رفع السماعة، و أدار قرص مكتب الشرطة، و سأل عن العميد
رحمون فوجده ساهرا في منزل الضحية للاشراف بنفسه على
توجيه عملية استرداد الطفل المخطوف.

و وصله المركز التلفوني بالعميد، فسأله مباشرة:

—هل هناك أمل ؟

—إننا ننتظر أن ينادوا مرة أخرى، يمكن أن تكون العملية كلها
خدعة من عصابة تحاول استغلال ظروف عائلة الصغير لابتزاز
بعض المال.

—لن أطيل عليك حتى لا أشغل الخط، أعانك الله.

و وضع السماعه، و قص الاعلان من الجريدة، و وضعه داخل ملف كبير، و تأبطه و نزل القبو.

و بمجرد دخوله غرفة الاستنطاق أشعل الضوء على الأسير، فرمش هذا عينيه، و حاول أن يرى الداخل عليه، و جلس اسماعيل، و ضغط على الطريقة رقم (1) ، فانطلقت مقدمة الاستنطاق تطمئن الأسير، بصوت ناعم منوم، إلى أن هذه مجرد عملية لدراسة الجريمة، و إصلاح المجرمين ، و أنه إذا تعاون مع المؤسسة الاجتماعية التي تقوم بالبحث فسيطلق سراحه في الحال، و حذرتة من الكذب ونتائجہ ، ثم بدأت تسأله:

—ما اسمك ؟

و لم يجب الأسير ، فأعادت السؤال:

—ما اسمك ؟ هل تسمعي ؟

—نعم اسمعك، و لكني لم أجب.

فضغط اسماعيل زر التحويل من الاستنطاق الآلي إلى الشخصي، و سأل:

—لماذا لا تجيب ؟

—لن أجيب.

—ألم تسمع ما قلناه ؟ كل ما نريده هو إصلاحك.

فأجاب الأسير بسخرية:

—إصلاحي ؟ ألا تعتقد انك جئت متأخرا ؟

و هنا ادرك اسماعيل أنه مع اسير غير عاد، مع لص ليس من سوق اللصوص و حثالة المجتمع ، فقال:

—لماذا تعتقد أنني وصلت متأخرا ؟

—الأمر واضح ، أليس كذلك ؟ أين كانت مؤسساتكم حين طردوني من المدرسة ؟ و أين كنتم حين كنت ابحث عن العمل ؟
و أين كنتم حين مات والدي جوعا و تركنا سبعة صغار لأم لا تعرف عن الحياة شيئا ؟

و وقفت في حلق اسماعيل غصة أمام هذا الرد الذي لم يكن يتوقعه ، و بعد لحظة صمت قصيرة عادت إليه فيها بداهته ، قال

:

—مؤسساتنا غير مسؤولة عن مشاكل المجتمع بأسره، و كل ما نستطيع عمله، هو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحالات التي تقع في أيدينا مثلك.

—من المسؤول إذن؟

—كلنا، و لا أحد، كلنا يتحمل نصيبه من المسؤولية عن اهمال
ما كان يمكن تداركه، و لا أحد بالذات كان يستطيع إيقاف كرة
الثلج المتدحرجة من قمة الجبل!

فأجاب الأسير بمرارة:

—إذن هي فوضى ! و لا مسؤولية لأحد فيها.

فرد اسماعيل:

—بل هي مرض يسمى " التخلف " ، و هو كالسرطان يقع عند
تكاثر الخلايا غير المرغوب فيها.

—على حساب بقية خلايا الجسم السليمة!

—تماما.

فقال الاسير بعنف:

—مثلك أنت و أمثالك تماما ! تتهبون ثروات الشعب و تكدسونها
لبناء مثل هذه القصور، و تركيب مثل هذه الآلات الجهنمية
لافتراس بقية الخلايا من ابناء الشعب أمثالي ! أنت و أمثالك
كالكرية السرطانية البيضاء التي تفترس كريات الدم الحمراء حتى

تقضي على الجسد و على نفسها في النهاية.

و أحس اسماعيل البناء بالدم يصعد إلى رأسه ، و باعصابه تتوتر، و بأصبعه تمتد إلى زر أحمر لتضغط عليه، و لكنه تراجع و هو ينظر إلى تقاسيم الأسير الشاب الخشنة المتشنجة، فقال
مغيرا الموضوع:

— غريب أمرك، من كلامك يبدو أنك شاب مثقف و ذكي، و فرص العمل و الحياة الكريمة مفتوحة أمام أمثالك في مجتمعنا الذي أغلب سكانه اميون، و قد وقع في فخنا العشرات، و لكنهم بدون استثناء، كانوا جهلة أو صعاليك، أو مجرمين بالسليقة و الميل الطبيعي، فلماذا تحترف أنت هذا العمل الدنيء و أنت على ما أنت عليه من ثقافة و ذكاء ؟

— غلط ! أنا لا أعتبره عملا دنيئا، إلا إذا اعتبرت الفدائية و الجهاد عملا دنيئا.

ففتح اسماعيل فمه مستغربا:

— الفدائية و الجهاد ؟ هذه أول مرة أسمع فيها اللصوصية العارية تسمى فدائية و جهادا!

— أنا لست لصا، إذا كان هناك لص فهو أنت ! أنت الذي كدست هذه الثروة في اقصر وقت " و كل ثروة كبيرة وراءها لص ! " أنا هنا لأخذ حقي و حق الآلاف من المساكين الذين خانتهم الشجاعة فجلسوا على النواصي يتسولون.

ووجد اسماعيل نفسه يستعد للدفاع عن نفسه، و عن نزاهته،
وراحة ضميره فيما يرجع لمصدر ثروته، و لكنه توقف قبل أن
يبدأ، و غير مجرى الحديث:

— يبدو أنك لا تقدر حقيقة موقفك، و لا الخطر الذي يحدق بك !
و دعني اذكرك بأنك أنت الذي دخلت علي داري، بدون إذني، و
بقصد السرقة، و ربما القتل، إذا اعترض أحد طريقك، و هذا عمل
تعاقب عليه جميع قوانين العالم.

فرد الأسير بشراسة:

—القوانين التي وضعها أمثالك لتحسين سركاتهم، و لكنكم
تعيشون أيامكم الأخيرة، و سوف نكتسحكم كالجراد، ، فلسنا في
نظركم إلا جرادا منتشرا، و قوة الجراد في تكاثره و انتشاره.

فوقف اسماعيل ، و قال منهيها المقابلة:

—كنت أظنك شابا مثقفا و عاقلا، و أحسست بموجة عطف
جارفة عليك، و كنت اعتقد أنك ستساعدنا كثيرا في تجربتنا
الحالية، و لكن يبدو أنك مجرد كلب مسعور ينبج الشعارات، و
يحرق الأخضر و اليابس.

و فتح الباب خارجا ثم التفت و أضاف:

—سنرى لمن ستكون الكلمة الأخيرة!

و أطفأ النور و خرج.

في السادسة من ذلك الصباح استيقظ اسماعيل البناء على جرس موسيقى ففتح عينيه بصعوبة ، و حاول معرفة مصدره .. ساعة الراديو لم تتطلق بعد، التليفون ليست تلك دقائقه .. و تذكر الباب .. و لكن من يطرق بابه في هذه الساعة المبكرة ؟ و مد يده من تحت غطاءه فضغط على زر كاميرا الباب ، فظهر له على شاشة التلفزيون المقابلة حارس الباب و هو يحاول منع فتاة شابة من ضغط جرس الباب، و هي تدفعه عنها بقوة و شراسة ، و تضغط الجرس و تصيح:

—افتح ! افتح الباب ، أعطوني أخي .. أخي عندكم محبوس هنا .

و رأى حليلة تنضم إليه و تحاول الفصل بينه و بين الفتاة الهائجة ، للأخذ بخاطرهما، و تهدئة روعها.

و هنا قام من سريره، فلبس عباءة صوفية بسرعة، و فتح باب الشرفة، و أطل على الباب الخارجي : ماذا حصل ؟

فالتفت الحارس نحو الشرفة يحاول رؤية اسماعيل من خلال ضباب عينيه، فسبقته حليلة إلى الإجابة.

—لا شيء يا سيدي .. هذه الفتاة تقول أن أخاها عندنا هنا.

و دون أن تنتظر الفتاة جوابه أخذت تقفز في مكانها ، و تقبل
رؤوس أصابعها مستعطفة اسماعيل:

—سيدي اسماعيل، أرجوك .. أرجوك أن تطلق سراحه!
فأجابها من الشرفة:

—ماذا تقولين ؟ سراح من ؟

—سراح أخي " مجاهد. "

و حاولت حليلة دفعها عن الباب قائلة باهتجان:

—أذهبي يا بنتي لشغلك، هل تظنين هذا حبسا ؟

و لكن الفتاة ابتعدت من بين يدي الخادمة بخفة القطة و رشاقتها
، و هي تنظر إلى اسماعيل و تقفز من جة لأخرى ، مادة يدها
نحوه، تلقي إليه بالقبلات الاستعطافية، و الدعوات:

—الله يعطيك الستر، السي اسماعيل ، الله يعلي درجاتك، الله
يقوي مالك إلا ما اطلقت سراح أخي مجاهد ! لقد دخل دارك هذه
الليلة بقصد السرقة ، الله يعفو عليه، و لم يخرج.
و نظر إليها اسماعيل معجبا بحركاتها الرشيقة العفوية التي تعبر
عن شعبيتها العريقة، كانت تلبس قميصا و بنطلونا من قماش
الجين الأزرق الحائل، و قد تفلفل شعرها من خواتم صغيرة، و
توهج وجهها الأسمر الجميل بحماس الحسة و الاستعطاف.

—خليها ، خليها تتكلم.

ثم وجه السؤال إليها:

—اسمعي يا آنسة، أنا لا أفهم ما تعنين، و إذا كان لك ما تقولينه
فتفضلي ادخلي.

و عاد إلى غرفة النوم، و وقف ينظر من قلف الأستار إلى الفتاة
و هي تتردد في الدخول، بينما حليلة تدعوها و تهدد بقفل الباب،
و كلما مسكت بذراعها انفلتت منها، و تراجعت:

—ابتعدي عني ! لا، لن ادخل!

و رفعت عينيها نحو النافذة ، و صاحت:

—أنا اعرف أنه هنا، أرجوك أن تطلق سراحه ، و اضمن لك أنه
لن يعود أبدا أبدا، و إذا لم تتركوه أثرت فضيحة ، و ذهبت الى
الشرطة.

و هنا ثارت اعصاب اسماعيل فلغنها بين اسنانه، و فتح باب
دولاب و تناول شيئا صغيرا بين أصابعه ، و نزل.

و على الباب أشار إلى حليلة برأسه لتدخل الدار، فتركت الفتاة و
دخلت غير راضية على سحبها من الموقف.

و وجه الكلام إلى الفتاة التي اقتربت من شباك الباب الخارجي:

اسمحي لي يا آنسة، لم اسمع كلامك جيدا من فوق، ماذا تريدین ؟

فامسكت بشباك الباب ، و قالت بلهجة المستعطف:

—أريد أخي مجاهد.

—أخوك مجاهد ؟ أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم ، و من قال لك أنه عندنا ؟

فاقتربت بوجهها الجميل من دوائر الشباك ، و واجهته بعينيها المستعطفتين:

—ارجوك، لا داعي لللتجاهل ، أنا أعرف أنه معتقل، فقد دخل في بداية الليل إلى الدار، تسلق الحائط و صعد السطح، و بقيت أنا أنتظره في الغابة حتى الآن.

و كان اسماعيل يتأمل وجهها المستدير ، و شفتيها الناضجتين، و اقترب منها بخطوات مهيلة ماذا عنقه ليسمع احسن.

و بدأت تقبل أطراف أصباعها و تقفز ، فقال لها بتفهم:

—اسمعي يا آنسة، هذه الدار قلعة محصنة، و لا يمكن لأي لص دخولها، و لا بد أن هذا الشاب الذي تدعين أنه أخوك احتال عليك ليهجر بك بهذه الطريقة الغريبة، و إذا لم تصدقيني فتفضلني، ادخلي و ابحتي عنه بنفسك حيث شئت، فقد اعجبت بوفائك لهذا الصديق

اللص الذي لعب بعواطفك و اختفى.

و نظر إلى يمين الطريق و يسارها، فلم ير أحد، و مد يسراه ففتح الشباك الذي كانت تمسك به، و قبل أن تتمكن من التراجع إلى الوراء، امسك بذراعها اليسرى بقوة، فأحست بلسعة الابرّة المخدرة بين أصابعه ، فشبهت، و حاولت الافلات منه، و لكن قبضته الحديدية كانت مطبقة على شراعها و بشدة.

و ثقل رأسها، و غامت عيناها بسرعة ، و فامسك بها و ادخلها الدار و اقفل خلفه الباب.

و ما كاد يتوسط القاعة حتى ارتخت الفتاة لجثة هامدة، فاضطر إلى حملها، و توجه إلى اسطوان يؤدي إلى سلم ينزل نحو القبو، و هناك توجه نحو غرفة عارية الجدران ، بها سرير واحد، فألقاها فوق السرير، و وقف يسترجع أنفاسه، و ينظر إليها و هي غائبة عن الوعي، و بعد لحظة انحنى و وضع رأسها على الوسادة، و تأكد من أن جسدها في وضع جيد و تنهد، و خرج فاقفل خلفه الباب الداخلي الحاجب للصوت، ثم الباب الخارجي، و صعد يفكر في هذا العنصر الجديد الذي لم يكن في حسابه. فلم يسبق له أن تعامل مع انثى وقعت في فخه بشكل أو بآخر، و خصوصا و أنها ليست من مرشحيه. و لكنها ، لسوء حظها ، تعرف أكثر مما ينبغي، و قد هددته بالفضيحة، فوضعتة أمام اختيار صعب ، إما أن يطلق سراحها ، دون صاحبها فتقيم الدنيا عليه، و إما أن يتخلص منها.

و لم يرد أن يستسلم للحيرة، فاقفل باب التفكير في الموضوع إلى

أن يفكر في واجباته لذلك اليوم.

و في الثامنة نزل إلى وسط الدار، ففتح الباب، و دق جرس الخادم فحضرت حليلة من المطبخ، و بمجرد دخولها سألتها:

—أين الفتاة ؟

فنظرت حليلة حواليتها باستغراب باحثة عنها، ثم قالت:

—لا ادري، يا سيدي اسماعيل، هل تركتها وحدها هنا ؟

—نعم، شعرت بدوار خفيف، فادخلتها لتستريح.

—لا بد بأنها خرجت.

و نظرت الخادمة إلى الباب المفتوح فذهبت لتطل منه إلى الخارج ، ثم أقفلته و عادت:

—أكيدا خرجت، فقد تركت الباب مفتوحا ، و الحمد لله على ذهابها. مصيبة على الصباح، لا أدري ما أصاب عقلها، أرجو ألا تكون محتالة تدخل المنازل بهذه الطريقة الشيطانية لتسرق و تهرب.

و دارت داخل القاعة تتأكد من وجود القطع البلورية ، و التحف الفضية الثمينة في أماكنها من الرفوف الزجاجية.

و تركها اسماعيل، و نزل المرأب ، و خرج بسيارته تتفتح أمامه
الأبواب في طريقه إلى المدينة الهادرة ، و صورة وجه الفتاة
الأسيرة الجميلة يلمع في مخيلته دون انقطاع.

انتهى الجزء.

دمتم في رعاية الله وحفظه

الجزء 9:

و في مكتبها ، جلست زبيدة تقرأ الصحف و ترشف من فنجان
قهوة، و رن التلفون فالتقطته:

—آلو.

—آلو ، زبيدة ؟ مريم.

—أهلا.

—ماذا تفعلين هذا الظهر ؟

—لا شيء. لماذا ؟

—سنتغدى في مقصورتنا على الشاطئ.

—من سيكون هناك ؟

—لا أحد ، لماذا ؟

—لا لشيء، اردت فقط أن أعرف.

و كأنما تذكرت مريم شيئا فاستدركت:

—ربما استدعى ابراهيم صديقه اسماعيل، و هو ليس غريبا، لا تنسى المايوه و كذلك البيجامة، ربما نمنا هناك.

و حوالي الواحدة ظهرا ، كان ابراهيم يخرج بسيارته الكبيرة من ازدحام الدار البيضاء متوجها إلى الطريق السريع الرابط بين الرباط و الدار البيضاء ، حيث تخترق (المحمدية) لينحرف يسارا في (بوزنيقة) إلى حيث توجد مقصورته على شاطئ هادئ شبه مهجور.

و لم يلبث ابراهيم ان خرج من المقصورة ، في سروال عومه، يعدو كطفل كبير نحو البحر، و هو يطلق أصواتا مضحكة.

و رفعت مريم رأسها عن صندوق السيارة لتتظر إليه، قائلة
لزبيدة التي كانت تضحك من أصواته:

—خرج العفريت من القمقم!

و حين عاد يقطر من البحر ، وجد زوجته مريم منهمكة في ترتيب المائدة و الأرائك بالمنتزه المشرف على البحر، و اقترب منها

دون أن تراه و وضع كفه الباردة على ظهرها العاري فصرخت ،
و همت بمطاردته.

و في تلك اللحظة خرجت زبيدة لترى ما يحدث، و هي ما تزال
ممسكة بخصلات شعرها الحريري الأسود، و وقف ابراهيم ينظر
إلى جسدها الناصع الرشيق بالبيكيني الوردي المزخرف بالزهور
البيضاء و الذي كان هو عبارة عن مثلثات صغيرة موصولة
بسلاسل ذهبية من الجانبين، و بين النهدين، و على الكتفين، و
وقف فيها و يصفر، و هي تفهقه و تحاول دفع نظراته الشرهة
عنها بالاختباء خلف مريم.

و رفع قبضته مهددا:

—ويلك، ويلك يا اسماعيل!

فالتفتت إليه مريم:

—ماذا فعل اسماعيل المسكين !؟

فاجاب باندهاش لبلادتها:

—ماذا فعل ؟ انظري إلى كل هذا الجمال، و هو لا يريد أن
يتزوج ! لا بد أنه اعمى!

و وقف قليلا و ضرب كفه بجبينه:

—ولكنه لم يرها هكذا من قبل!

و توجه بالكلام إلى زبيدة:

—هل رآك هكذا من قبل ، يا زبيدة ؟

فردت زبيدة باستنكار:

—ماذا تعني ، عارية ؟

—أعني هكذا، كما أنت الآن ، بالمايوه ، فقط.

—حين كنا صغار ، كنا نذهب للعوام جماعة في " مرقالة " بطنجة ، وكنا..

فقاطعتها:

—لا اعني حين كنتم صغارا، أعني قريبا، و في هذه السن ، سن النضج و الاكتمال.

و لم ينتظر جوابها ، فقال:

—سيأتي غدا للغداء معنا، قال إنه مشغول اليوم، أنا اقسم بالله،
إن هو رآك هكذا و لم يتزوجك في الحال ، أن ، أن ، أن أتزوجك
أنا!

و مد يده نحو زبيدة مستعطفا:

—تعالى ، تعالى ، يا عزيزتي.

و هم بمطاردتها فاخذت تدور حول المائدة و تصرخ، و مريم تحاول الإمساك به، و أخيرا اطلقت زبيدة ساقها للريح في اتجاه البحر، فاسرع خلفها حتى اقترب منها، و هم بالارتقاء على قدميها ، فافلتت منه بنعومة الغزال، و وقع هو على وجهه فوق الرمل!

و وقفت مريم تنتظر إليهما ، و تحرك رأسها في أسف على عقل زوجها.

عاد اسماعيل إلى داره ذلك الظهر، يقلب النظر طول الطريق بين وجه أسيره المتمرد الشرس، و وجه أسيرته المضيء بجماله المتوحش الجذاب.

و في بهو الدار وجد نور التلفون الأحمر مشعولا، علامة وجود مكالمة مسجلة أثناء غيابه، و رفع السماعة، و ضغط الزر فسمع صوت ابراهيم يلح عليه، بأسلوبه البهلواني، في القدوم إلى مقصورة الشاطئ، و يعده بمفاجأة أحلى مما يستطيع خياله الهندسي أن يتصور!

و ارتسم السيناريو في ذهن اسماعيل في الحال، لا بد أن زبيدة ، العنكبوت، تدفع مريم و ابراهيم لتتسج بهما حواليه هو شبكة من خيوطها الناعمة الآسرة.

و ضغط جرس المطبخ فظهرت حليلة:

—هل الغداء جاهز؟

—نعم، يا سيدي.

—أدخله غرفة المطعم، و ضعي صحنًا إضافيًا لضيف و
انصرفي.

و صعد إلى غرفة نومه حيث نزع ملابس العمل، و لبس قميصًا
خفيفًا، و بنطلونًا و اغتسل و نزل إلى المطعم، فوجد حليلة
وضعت كل شيء، و ذهبت تستعد للذهاب إلى بيت ابنتها، كعادتها
كلما طلب منها الانصراف.

و تناول طبقًا وضع فيه بعض الأكل، و كأس ماء و نزل القبو، و
توجه إلى غرفة الاستنطاق حيث كان أسيره الغريب ينتظر مصيره
في ود معلق.

و أدار أرقام الباب، و فتحه، و أشعل النور، فاغمض الأسير
عينيه متألمًا لسطوعه، فوضع اسماعيل صحن الطعام، و كأس
الماء على الأرض أمامه، و نظر إليه و هو ينظر إلى الأكل بلهفة
لا تكاد تخفيها كبرياؤه و تمرده.

و سأل اسماعيل:

—هل فكرت

لا جواب.

—تركت لك الوقت الكافي لمراجعة موقفك، و التعاون معي،
فماذا قررت ؟

صمت.

—فهمت، انت اغبى مما كنت اتصور.

و دفع بقدمه طبق الطعام و الماء إلى مربع قريب من انبوب
الأسير، و ضغط بقدمه على زر على الأرض فانفتح باب صغير
دخل منه الطبق و الكأس، ثم انقل، و هنا قال اسماعيل:

—ما كان ينبغي أن أفعل هذا، و كان بإمكانني أن أتركك تموت
جوعا حتى تستعطفني و تقبل قدمي لاستجوبك، و لكن حدث تطور
جديد، فقد جاء من يشفع فيك.

و ضغط على زر آلة المراقبة أمامه، فظهر وجه الفتاة الأسيرة في
غرتها على شاشة صغيرة أمامه، و استطاع اسماعيل أن يلمح
لحظة ضعف على وجه الأسير الحجري لم تلبث أن اختفت بنفس
السرعة التي لاحت بها ، فسأل:

—هل تعرفها ؟ لقد ادعت أنها أختك، و لكني اعرف أنها كاذبة،

لا بد أنها تحبك حبا كبيرا، فقد أثارت ضجة على باب الدار و
كادت تكتشف سرنا الصغير هذا لولا أنني أسرعت إلى انقاذ
الموقف.

و مد يده فأطفأ الصورة، و قال بصوت يوحى بالاعجاب و
الاستفزاز:

—أجدها رائعة الجمال، و أجمل من وجهها و جسدها خفة دمهـا،
و حيوية شبابها، و قدرتها على الحب و الولاء، لذلك انصحك، إذا
كنت تحبها و تريد المحافظة على عفافها، أن تتكلم، و الـافـات
الأوان، فمثـلـها يستحق رجـلا أحسن من لص مثلك.

و لاحظ صدر الأسير يهتز من عميق الغضب، و الـاهـانة، و العجز
القاتل، فابتسم ابتسامة التشفي، و قد اومضت في ذهنه صورة
من داره بطنجة و الدم يلطخ جدرانها.

و قبل أن ينفجر الأسير، تحرك اسماعيل خارجا، قال:

—سأتركك الآن لتتغدى، و تفكر، و سأعود إليك هذا المساء
لأعطيك فرصتك الاخيرة، و آمل أن تكون اجابتك مطابقة لاجابات
صديقك.

و اقفل الباب خلفه، و صعد إلى طابق القبو الفوقي، و قصد غرفة
الفتاة.

فتح اسماعيل الباب الأول العازل للصوت، ثم الباب الثاني، و دخل

ليجد الفتاة واقفة تنتظر من سيدخل عليها في توجس ؛ فبادرها
بابتسامة و تحية هادئة:

—صباح الخير.

و لم ينتظر ردها، و اضاف:

—كيف تشعرين الآن ؟

و داخلها نوع من الطمأنينة، فسألت:

—أين أنا ؟

—أنت في داري . هل نسيت ؟

—ماذا حدث ؟ و لماذا أنا هنا ؟ هل أفهم أنني اسيرة مثل أخي
مجاهد ؟

—أبدا، لماذا ؟

—حين افقت، حاولت الخروج، فوجدت الباب مقفلا.

—أنا آسف، نسيت أن الباب لا تفتح إلا من الخارج، و بما أنك
كنت مرهقة من طول السهر ، فقد حسيت أنك حتى أعود من
العمل، فخادمتي تأخذ عطلتها ظهر السبت.

ثم أشار إلى السلم قائلاً:

—أنت حرة طليقة، إذا اردت الذهاب فتفضلي، الأبواب مفتوحة.

فترددت:

—و لكني أريد أخي ، فأين هو ؟

فمد يده نحو ذراعها دون أن يلمسه، و أشار إلى الباب:

—تعالِي، سنتحدث على مائدة الغداء، و لا بد أنك تموتين جوعاً.

و مشت أمامه طائعة، فأقفل باب الغرفة و تقدمها نحو المطعم
بالبطابق الأرضي.

كان المطعم مكيف الهواء، و مضاء بشمس النهار المصفاة
بزجاج معتم.

فتح لها اسماعيل الباب فدخلت، و وقف خلف مقعدها و دفعه قليلاً
إلى الأمام و هي تجلس ، و قد خدرتها حركاته المسرحية ، و أناقة
المكان، و كأنها تتفرج على نفسها، في شريط سينمائي مفصول
عن واقعها.

كان هو يتأمل ملامح وجهها الدقيقة ، و صفاء عينيها
الشهلاوين، و ظمأ شفثيها و نعومة جبينها، و دقة أنفها، و طول
عنقها، فبدت له أجمل كثيراً مما رآها عليه في الصباح. و كان

يشعر في قرارة نفسه بفرحة الصيد الذي أوقع في شباكه صيدا نادرا ثمينا.

و جلس هو فتناول طبقها و غرف لها و قال:

— لا بد أنك نسيت ما حدث لك هذا الصباح، فقد ايقظتنا في الساعة السادسة صباحا، و وقفت على الباب تطلبين اطلاق سراح أخيك، هل تذكرين الآن ؟

—أذكر ذلك، ما لا أذكره هو كيف دخلت دارك ؟

—أنا أدخلتك محمولة بين يدي.

و توقفت عن المضغ، و ارتسمت على وجهها علامة استفهام، و هي تحاول تذكر أي شيء عما يقوله دون فائدة.

و استأنف هو شارحا:

—أصابك ضعف شديد، و انت تستعطينني أن أطلق سراح أخيك، و هويت بين ذراعي كالعجينة، فحملتك إلى الدار، لا بد أنها كانت بداية إصابة بالزكام من مبيتك بالعراء، و قلقك على مصير أخيك.

فوضعت الفتاة الشوكة و السكين و سألت بجد:

—و أين هو ؟ أين مجاهد ؟

فأشار إلى صحنها:

—لنأكل أولاً، ثم نتحدث عن أخيك.

و انصرف إلى صحنه يأكل بشهية و في صمت. ثم ، كأنما تذكر شيئاً مهماً، رفع رأسه وسألها:

—بالمناسبة ، ما اسمك يا آنسة ؟

و بدا عليها التردد، فأضاف:

—لقد اشتركنا في الطعام، و أنت تعرفين اسمي، و ليس عدلاً ألا أعرف اسمك.

فاجابت و هي تنظر إلى صحنها:

—اسمي زينة.

—زينة اسم جميل و نادر.

و مد يده فغير صحنها، و غرف لها من طبق شطائر اللحم المشوي و وضع في طبقه شطيرة ، و اقبل عليها.

و في نهاية الوجبة، مسح فمه، و مد يده إلى الحق الفضي على المائدة ، ففتحه و مد إليها:

—سيجارة ؟

—لا ، أشكرك.

فتناول هو واحدة و اشعلها ، فبادرته:

—لقد تغدينا ، أرجوك الآن أن تطمئنني على مصير أخي.

فنفت دخان السيجارة ، و قال:

—لا تقلقي ، إنه هنا.

—أين هو ؟ أريد أن أراه، أرجوك!

و وقفت أمامه و قد ارتسمت على وجهها الحلو التعاسة و
الاتعاطف فقال اسماعيل بجد:

—كان يمكن أن يخرج من هنا ليلة أمس لو أنه تعاون معي في
البحث الذي أجريه، و لكنه رفض الاجابة عن جميع الاسئلة.

فقالت موافقة:

—أنا أعرف أنه عنيد، و رأسه حديد ! و لكنه في أعماقه طيب ،
و يحب الخير للناس.

فحرك اسماعيل رأسه غير مصدق:

—انا آسف، إنه لم يعطني هذا الانطباع، و قد شرحت له أهداف الدراسة الاجتماعية التي أقوم بها مع عدد من العلماء، لمعرفة أسباب الجريمة، و وسائل القضاء عليها، و هذا هو السبب في بناء هذه الدار في هذه المنطقة بالذات . بتشجيع و مساعدة الدولة ، و قد فهمها جيدا، فهو ليس من نوع الحثالة الفقيرة التي تقع في قبضتنا عادة، و لكنه رفض كليا التعاون معنا، بل تعدى ذلك إلى اتهامي أنا باللصوصية و سرقة أموال الشعب!

انصتت زينة بتركيز إلى كلام اسماعيل و قالت برغبة شديدة في المساعدة:

—اسمح لي، اعتقد انني استطيع التأثير عليه و جعله يتعاون معك، فهل تسمح لي بمقابلته لحظة ؟

فحرك اسماعيل رأسه غير مقتنع:

أشك في ذلك.. فهو يعتقد أنني أعمل مع مصالح الأمن، و أريد أن أورطه بالاعتراف بجميع سرقاته السابقة، و تسليمه إليهم.. فهل تستطيعين نزع هذه الفكرة من دماغه ؟

—لا أدري .. و لكنني سأحاول..

فتنهذ اسماعيل ، و حرك رأسه غير فاهم:

—بصراحة ، لا أدري ما يشدك إلى هذا اللص المتمرد العنيد، و
أنت على ما أنت عليه من جمال و ذكاء..

فرفعت رأسها و قد اغرورقت عيناها ، و همست:

—أنا الأخرى أتساءل أحيانا..

و استدركت بسرعة:

—ولكنه أخي..

فوقف اسماعيل وواجهها ، و نظر في عينيها:

—أحقا هو أخوك ؟

فارتعشت شفتاها ، و تفادت عيناها عينية ، و قالت:

—أرجوك ، دعني أراه.. دعني أكلمه،.. أعدك بأنني سأقنعه..

و وقف هو ينظر إليها و يقرض ظفر ابهامه مفكرا، ثم قال:

—و إذا لم تفلحي ؟

—إذا لم أفلح فسأتبرأ منه، سأتركه لكم تفعلون به ما تشاؤون!

فتنهذ اسماعيل بعمق و هو يقرر قرارا خطيرا:

—حسنا..

و ارتمت الفتاة على يده لتقبلها و لكنه سحبها بسرعة، و أضاف

:

—لا تتسرعى.. فلن تقابليه شخصيا...

—ماذا تعني ؟ هل سأكلمه بالتلفون أو شيء من هذا القبيل ؟

—سترينه ويراك ، و تكلمينه و يكلمك، و لكن من خلال شاشة
التلفزيون .. هل توافقين ؟

—نعم.. نعم .. لا مانع عندي بالمرّة.

—تعالى، إذن.

و تبعته إلى القبو الأسفل، حيث فتح لها باب غرفة جلوس صغيرة
بها جهاز عاد للتلفزيون، فأشار لها إلى كرسي مواجه للجهاز، و
خرج لحظة ثم عاد، فظهرت صورة الأسير على الشاشة الصغيرة
... و قفزت زينة في مقعدها لمنظره الغريب داخل الأنبوب، فقال
لها اسماعيل:

—تكلمي، إنه يراك و يسمعك، سأتركك معه الآن، و أعود بعد
نصف ساعة.. التلفون يرن..

و نادت بصوت أجش:

—مجاهد..

فرفع رأسه نظر إليها، و قال:

—زينة ، أين أنت ؟

—أنا هنا داخل دار اسماعيل المهندس.

—هل وقعت أنت الأخرى في أحد فخاخه ؟

—لا أنا ضيفة معززة مكرمة عنده.

—هل هو معك هناك ؟

—لا ، ذهب ليرد على التلفون.

—لا بد أنه في مكان ما يستمع إلى حديثنا.

—أؤكد لك أنني سمعت جرس التلفون بأني و أنه ذهب للرد عليه..

فهمس بين أسنانه:

—إذن اسمعي ، أخرجي حالا من هذه الدار الملعونة ! إنه يريد أن يستعملك ، فلا تتخدي له!

—إسمع يا مجاهد، لقد أكد لي أنه سيطلق سراحك حالما يستجوبك، إنه يستجوب الكثير من اللصوص، لبحث اجتماعي يقوم به للقضاء على الجريمة، و لا علاقة له بالأمن بالمرّة، كل معلوماته تبقى سرية ، فلماذا لا تجيب على أسئلته ؟

فنظر إليها بعينين جاحظتين:

—أنت لا تعرفين شيئا، الرجل مجنون ! و قد تأكد لي الآن كل ما كنا نسمعه عن هذه الدار ولا نصدق، إنه نسخة عصرية " لفرانكن شتاين ! "

—لا تصدق الاشاعات، انه رجل عاد، و لطيف المعشر، و قد تحدثنا عنك طويلا فلم ينكر وجودك عنده.

—هل قلت له شيئا عني ؟

—لا ، لماذا ؟

—لا تقولي له أي شيء ، اسمعت ؟

—هل تعتقد أن له علاقة بالأمن ؟

—لا ، ليست له علاقة بالأمن بالمرّة، و هذا ما أزعجني ، إنه

يعمل وحده و لحسابه الشخصي.

—تعني لإنجاز بحث ؟

—كلا يا غبية ! بل للانتقام !

—الانتقام ! منك ؟

—من جميع اللصوص الذين يقتحمون المنازل ، و قد تذكرت ،
بعد فوات الأوان ، ما كنت قرأته في إحدى جرائد طنجة، من
اقتحام عصابة لداره هناك بالجبل، و قتلها لزوجته الأمريكية ، و
طفلة الصغيرة.

ففتحت زينة فمها مبهورة:

—يا إلهي!

—و قد وصل إلى الدار في اللحظة التي اكتشفت الشرطة فيها
الكريمة ، و رأى بعينه بشاعة الجريمة في مرأته و طفلة ، و
يظهر لي أنه أصيب في تلك اللحظة بما أصيب به من خلل عقلي.

—و لكنه لا يوحى، من خلال أحاديته ، بأنه مصاب بأي خلل في
عقله.

—لعل الخل أصاب روحه، وهو أدهى و أمر، لذلك أرجوك أن
تسرعي بالنجاة بنفسك قبل فوات الأوان، و أخبري الشرطة بما

رأيت، لا تخبري رئيس هذه الدائرة ، أخبري الدائرة المركزية.

ثم همس لها:

—قولي له اذا منعك من الخروج ، انك أخبرت افراد عائلتك
بمجيئنا إلى هذه الدار ، و أنهم سيأتون للبحث عنك هنا إذا
تأخرت ، قد تكون فرصتك الخريدة.

و بانث الحيرة على ووجه زينة، فقالت:

—اسمع يا مجاهد، إذا كان ما تقوله حقا، فسوف أعرفه هذا
المساء، فإذا كان ينتقم من جميع اللصوص فلماذا لا يعذبك أو
يقتلك في الحال.

—لا بد أنه يبحث عن افراد العصابة التي دخلت داره بطنجة.

—و لكنك لست من أفراد العصابة!

—و كيف سأتبث له ذلك ؟

—عن طريق الاستجواب.

—و هل سيصدق أقوالي ؟ إذا لم اعترف بأنني من العصابة
فسوف يعذبني حتى اعترف تحت التعذيب، و حينئذ سيصدر علي
حكمه.

فحركت زينة رأسها محتارة، ثم قالت، و هي غير مقتنعة بما
تقول:

—أنت متشائم فوق اللزوم، و لا بد أنه إذا تأكدت لديه براءتك
سيطلق سراحك.

—كما أطلق سراح جميع الذين اختفوا من لصوص المنطقة، و
لان آخر ما سمع عنهم أنهم سيدخلون هذه الدار ! هل حقا
تصدقين انه سيطلق سراح أحد بعد أن يكشف هذا سره ؟
فوضعت زينة وجهها في كفيها و حركت رأسها رافضة:

—لا أستطيع تصديق هذا!

و رفعت وجهها الدامع لتتظر إليه ، و كأنها تودعه:

—لا بد من وجود طريقة لانقاذك!

و همت بالانخراط في البكاء، فجاءها صوته صارخا في همس
يائس:

—لا تبكي يا مغفلة!

—قل لي ماذا افعل ؟

—اخرجني من هذه الدار حالا، و افعلي ما قلت لك!

و هنا شحبت الصورة على جهاز التلفزيون، و انقطع الصوت فوقفت زينة و راحت تبحث حول الجهاز عن زر أو مفتاح لتعديله و لكنه كان أملس من كل جانب.

و ترامى إليها خارج الغرفة صوت اسماعيل و هو يضحك . اتم كلماته و هو يودع أحدا و يضع سماعة التلفون، و انفتح الباب فأطل عليها وجه اسماعيل و آثار الابتسام لا تزال تضيئه ، فنظر إليها ثم إلى الجهاز و سأل:

—ماذا ؟ هل أصيب بعطب ؟

فرفعت زينة وجهها دامعا نحوه، و لم تجب عن سؤاله. كانت تحاول الخروج من زوبعة عنيفة من الانفعالات إلى فجوة صفاء في ذهنها. كانت تشعر في داخلها بخطر غامض داهم، و كأن غولا بشع الوجه سيخرج لها من وراء الضباب العاطفي الذي تسبح فيه، كان عليها أن تتخذ قرارا ، و بسرعة.

و تكاثرت الأصوات الصامتة في رأسها منها ما يقول:

"اهربي الآن ! انجي بنفسك قبل فوات الأوان ! " . و منها ما يقول : " استعملي ذكائك ، و لا تستسلمي للرعب ! أنت امرأة ، و الذكاء امرأة " و منها ما يهمس باقناع : " لقد اعجبته و هذه نقطة ضعف امامك ، فلا تضيعي هذل الفرصة الذهبية " !

و تداخلت الاصوات و اختلطت بأصدائها ، و بدأت تسمع صراخ مجاهد و هو يمد يده مستنجدا بها، و صياحها و هي تبعده عنها :
" إذهب ، ابتعد عني أيها الوحش الالهوج ، أيها اللص البليد ! "
ثم تنفس الصوت باكيا ينادي : " حبيبي مجاهد لن أهجرك أبدا ، لا تفرع، لا تخف، سأنقذك من بين مخالب هذا الوحش " و يعود الصوت الآخر : " اسماعيل يحبك ، إنه معجب بك، و يريدك لنفسه، و مجاهد ليس إلا حشرة سامة فاشلة ، فلا تضيعي فرصتك الوحيدة في حياة أفضل و أجمل " !

و أخرجها اسماعيل من خيالها بقوله:

—أرأيت ؟ كيف أثار أعصابك ، كما أثار أعصابي أنا ، و ابكاك ؟

فنظرت إليه زينة و سألت دون أن تعبأ بما قال:

—هل صحيح ما قاله ؟

—ماذا قال ؟

—أرجوك لا تتصنع البراءة ، فقد كنت تنصت إلى حديثنا و سمعت ما قاله عنك.

فقال بقليل من نفاذ الصبر:

—اسمعي يا آنسة ، كنت اتحدث في التلفون، و لم اسمع ما قاله

صديقك و لا يهمني ما قاله ! شرطي الوحيد لاطلاق سراحه هو
أن يتعاون معي في الاستجواب.

—إنه يعتقد أنك لن تطلق سراحه ، (و ترددت قليلا ثم أضافت)
و لا سراحي أنا!

—و لكن لماذا ؟

—قال إنك تكره اللصوص جميعا ، و تستجوب كل من يقع في
قبضتك منهم للعثور على عصابة طنجة التي قتلت زوجتك و
طفلتك.

و ابتلع اسماعيل الطعنة ، و تماثل سريعا ، فقد كان يتوقع أن
يكتشف أحد أمره في يوم من الأيام، المهم هو ألا يستسلم، فقال:

—برافوا ! افتراض ذكي ، على أسس خاطئة.

فقالت:

—إذا كان مخطئا في افتراضه، فهل تتركني أذهب ؟

فابرز شفتيه ، و فكر قليلا ثم قال:

—سأفعل أحسن من ذلك ، سأطلق سراحكما معا.

فغمرتها موجة تفاؤل فقفزت قفزتها المحببة:

—صحيح ؟

—صحيح.

—حتى لو لم يتعاون معك مجاهد في الاستجواب ؟

فأحنى رأسه موافقا:

—نعم، حتى ولو لم يتعاون.

و استدرك:

—يكفيني أن تتعاوني أنت!

—في الاستجواب ؟

—أنت لست لصة ، و لم تقتحمي علي داري من السطح ليلا.

فنظرت إليه بتردد و تشكك ، و رجعت خطوة إلى الوراء، و سألت
:

—كيف أتعاون معك أنا ؟

فركز عينيه الواسعتين في عينيها:

—أنت فتاة جميلة.

فشبكت ساعديها على صدرها ، و كأنها عارية تتستر من نظراته
، و أمسك هو بمقبض الباب ، و قال:

—فكري جيفا ، أنا ذاهب الآن إلى عملي ، و سأعود في المساء
، و أرجو أن أجدك قد توصلت إلى قرار.

و قبل أن يقفل الباب قال:

—أنا الآخر لا أريد استبقاءك طويلا ، أنا أعزب ، و قد يزداد
الوضع تعقيدا، فقد شغلت بالي رغم قصر مدة وجودك هنا.

و أقفل الباب ، و خرج، و بقيت تتردد في ذهن زينة أصداء
كلمتين فريدتين : " شغلت بالي ، شغلت بالي "

انتهى البارت.

دمتم في رعاية الله و حفظه

الجزء 10:

و أقفل الباب ، و خرج، و بقيت تتردد في ذهن زينة أصداء
كلمتين فريدتين : " شغلت بالي ، شغلت بالي "

و على باب مقصورة ابراهيم على شاطئ (بوزنيقة) ، خرج
اسماعيل من سيارته و توجه نحو المنتزه المشرف على البحر.

كان الوقت أصيلا ، و الجو ما يزال دافئا ، و صفحة البحر هادئة
ناعمة ملونة بصفائح الذهب ، و النحاس ، و دنانير الفضة و
البلور.

و كان يجلس إلى المائدة الحديدية البيضاء رجلان، احدهما صديق
ابراهيم و الآخر عرف من صوته أنه " عزوز " عميد الشرطة ،
و وقف الاثنان لتحيته ، و بادره ابراهيم :

— أين كنت ؟ تأخرت يا أخي كثيرا.

ثم ضغط على ذراعه ، و همس في أذنه:

— عندي لك مفاجأة ، و أية مفاجأة!

و غمز بعينه في اتجاه الشاطيء ، فنظر اسماعيل ، فإذا بثلاث
سيدات في مايوهات السباحة ، عرف من بينهن مريم، زوجة
ابراهيم ، و حسناء زوجة عميد الشرطة ، و لم يستطع تمييز
الثالثة التي كانت أصغرهن سنا ، و أرشقهن عودا، و أكثرهن
أناقة فقد كانت تلبس قبعة واسعة بيضاء و نظارة شمس كبيرة
الحجم تغطي نصف وجهها و " بكيني " مزخرف بالزهور
موصول الأطراف بسلاسل من ذهب.

و كان النساء الثلاث على الشاطيء مستغرقات في الحديث ،
يتحركن ببطء شديد نحو المنتزه، و لم يكن بقي على الشاطيء
من السابحين إلا القليل . و التفت اسماعيل إلى ابراهيم و قال له:

—عرفت مريم و حسناء ؛ فمن هي الثالثة ؟

فاقترب منه ابراهيم متحمسا:

—قل لي أولا ، ما رأيك فيها ؟

فهز اسماعيل كتفيه حرجا:

—أنا لا أعرفها.

فضحك عميد الشرطة حتى اهتزت بطنه ، و قال:

—يذكرني جوابك بحكاية أشعب حين رأى جماعة يأكلون ، فدخل بينهم و أخذ يأكل ، و حين سأله احدهم : هل تعرف منا أحدا ، أجاب : نعم ، أعرف هذا و أشار إلى الطعام!

و عاد يضحك على نكتته ، ثم قال شارحا:

—هل لا بد من الحديث إلى الموزة و اللوزة أو التفاحة ، و تبادل العناوين و التلفونات معها ، قبل أكلها ؟

و ضحك اسماعيل ، و علق:

—تعجبني فلسفتك ، يا حضرة العميد ، و اتمنى لو استطعت تطبيقها!

فرد العميد:

—لو فعلت لو فرت على نفسك كثيرا من المتاعب.

و خشي ابراهيم أن ينحرف العميد بالموضوع فيصيب جرحا داميا
في نفس اسماعيل ، يفسد الجو المهيا ، فتدخل:

—أنا لم أرد رأيك في طبعها ، و أخلاقها ، أو ثقافتها ، أريد
رأيك في شكلها كامرأة.

و مد يده ، فتناول منظارا مقربا و أعطاه إياه:

—خذ ، انظر إليها ، انظر.

فتردد اسماعيل ، و بدا عليه الحياء و الحرج ، فعلق العميد:

—مسكين اسماعيل ، يعاني من أعراض العزوبة ، الخجل ، و
التعفف الناتج عن حرية الاختيار ، و كثرة المعروضات و الشبع
و التخمّة ، انتظر حتى تتزوج فتصبح شرسا مثلنا!

فرد عليه ابراهيم:

—تكلم عن نفسك ! اسماعيل ليس من ذلك النوع ، انه خلق
ليكون متزوجا و رب عائلة.

و نظر عبر المنظار ، و ركزه قليلا ثم ناوله لاسماعيل:

—انظر الآن ، انه مركز على المسافة.

و علق العميد ضاحكا:

—إذا لم تعجبك النحيفة ذات القبعة ، و ما دمت شابا مهذبا فلا مانع عندي من أن تنظر إلى زوجتي " حسناء " فإذا اعجبتك فسأكتب لك تنازلا عنها في الحال!

و ضحك الثلاثة ، فقال ابراهيم:

—انت يجب طردك من نادي المتزوجين!

فرد العميد:

—لن تحتاجوا لمجهود كبير!

و أمسك اسماعيل بالمنظار ، و نظر فبدت له النساء الثلاث و كأنهن أمامه . و دقق النظر في وجه الفتاة الرشيقة فاستدارت لتواجه مريم التي كانت تتحدث ، فنظر إلى تفاصيل جسمها البديع .

و أزال المنظار و علق:

—لا استطيع رؤية وجهها ، إنها تمشي إلى الوراء.

ثم أعاد المنظار إلى عينيه فوقعت نظرتة على وجهها المستدير و
شفتيها الممتلئتين ، و أنفها الصغير الأشم ، فوضع المنظار ، و
التفت إلى ابراهيم باسم من غفلته:

—زبيدة!

فضحك ابراهيم:

—نعم ، زبيدة ! أنا نفسي لم أصدق أنها تخفي كل ذلك الجمال و
كل تلك الأنوثة خلف مظهرها الكفاء العلمي ، و ذكائها الحاد البارد
!

و التفت إلى العميد الذي كان يعب من علبة عصيره الباردة:

—أليس كذلك يا عزوز ؟

فحرك رأسه موافقا:

—مفاجأة سارة!

و التفت ابراهيم لاسماعيل :

—ما رأيك ؟ هل سبق لك أن رأيتها هكذا من قبل ؟

فحرك اسماعيل رأسه نافيا.

—كنا ننزل للشاطيء معا كطلبة في الابتدائي و الثانوي ، و
كانت زبيدة نحيفة لا تثير انتباه أحد ، في الواقع كانت تدعو
للرثاء !

و تحمس ابراهيم:

—أما اليوم : " ماما ميا ! "

و قبل أطراف أصابعه قبلة الاعجاب ، و التفت إلى العميد و قال:

—اسمع يا عزوز ، أنت شاهد ، لقد حلفت لزوجتي بالايمن
المغلظة ، و الطلاق الثلاث ، أنه إذا لم يتزوجها ، فسأتزوجها أنا
!

و التفت إلى اسماعيل:

—و الله العظيم ، لا يمكن أن أتركها لصعلوك آخر!

فهز العميد رأسه متأسفا في سخرية من ابراهيم:

—مسكين ! يا لها من تضحية عظمي!

و اقترب النساء الثلاث فوقف ابراهيم ، و أخذ يناديهن ، و يشير
إلى اسماعيل:

—مريم ، عندك ضيف.

و رفعت النساء أيديهن بالتحية.

و وقف اسماعيل فقبل النساء الثلاث على خدودهن ، و ضغطت زبيدة على يده بيد باردة ، و نزعت النظارة و القبعة ، و حركت رأسها حركة رشيقة إلى الوراء ، فانسدل شعرها اللامع الأسود على ظهرها و كتفها و جلست إلى جانبه تنظر إليه و تبتسم هو يجيب عن اسئلة مريم:

—أين تأخرت ؟ لقد انتظرناك بالغذاء ، ألم تصلك مكالمة ابراهيم ؟

—تأخرت في الورش قليلا ، و اضطرت للغذاء خارج الدار . و بمجرد استماعي للمكالمة المسجلة جئت.

و وقفت زبيدة فسألته:

—هل تريد مشروبا ؟

و رفع هو يده إلى رأسه ، و عيناه على صدرها الصغير ، فقال ابراهيم مجيبا عنه:

—هاتي له بيرة لتفتح شهيته للعشاء ، و لنا كذلك.

و وافق اسماعيل ، و دخلت النساء إلى المقصورة ليهيئن العشاء

، و عادت زبيدة بالمشروبات ثم انضمت إليهن .

و غرق الرجال الثلاثة في صمت مفاجيء و الشمس تتحدر إلى
مغربها في حفل رائع صامت ، كان لهدأة الغسق ، و رتابة انكسار
الأمواج الصغيرة و انحسارها ، و نداءات النوارس و طيور
البحر العائدة إلى أوكارها ، مفعول مخدر عليهم يضاعف من
نشوة الكحول.

و وجد اسماعيل نفسه سابحا في حلم لذيق مع أسيرته زينة ، ذات
الجمال المتوحش ، و كلما رشف من بيرته رشفة منعشة تخيل
أنه يقبل شفيتها الخمريتين ، و يغرق في عينيها الساحرتين ، و
استعجل الزمن للعودة إليها.

و لم ينتبه الثلاثة من غفوتهم اللذيذة إلا على ضحكة مريم التي
خرجت لترتب المائدة للعشاء ، فوجدتهم صموتا كالتماثيل تحت
عتمة المساء ، و اشعلت مصابيح المنتزه المرفوعة فوق
السواري ، و صاحت:

— ما لكم ساكتين و كأن على رؤوسكم الدجاج!

و أطلقت زبيدة ضحكة ذهبية خجولة ، و هي تساعد مريم على
ترتيب المائدة.

و أثناء العشاء تطرق الحديث إلى غلاء أرض البناء بالدار
البيضاء ، فاغتم اسماعيل الفرصة ليقول:

—غلاء الأرض في " انفا " و الضواحي العصرية كان من
جملة ما دفعني إلى بناء داري في تلك المنطقة الفقيرة.

و علق عميد الشرطة:

—في البداية ، خفت عليك من السكنى هناك ، و اعجبت
بشجاعتك ، و اليوم، و بعد مرور عام على سكنك هناك، بدأت
اعجب بحكمتك.

و توقف اسماعيل عن المضغ ، و نظر إلى وجه العميد لعله يرى
علامة هزل أو سخرية ، و لكن الرجل كان جادا ، إذ استأنف:

—أتعرف أن نسبة الجريمة قلت بشكل ملحوظ منذ بنيت دارك
هناك ؟

و التفت الجميع إلى العميد الذي كان ينظر إلى اسماعيل كمن
ينتظر تفسيراً لهذه الظاهرة الغريبة.

و انتقلت الانظار إلى اسماعيل الذي كان يمضغ لقمته ببطء
مقصود ، و يحاول اعطاء انطباع الاندهاش جواباً على تساؤل
العميد، و في تلك اللحظة رن صوت زبيدة بكلمة واحدة وقعت
على اسماعيل كطوق نجاة في خضم ارتبائه ، قالت:

—الاضواء!

و أحاطت العيون بوجهها الأبيض المستدير ، فبرقت عيناها و هي

تضع الكوب البلوري الطويل الساق ، و تمص شفثيها الممتلئتين
، و أضافت:

—الأضواء تبعد الجريمة ، جميع علماء الجريمة يؤكدون ذلك.

و كان اسماعيل قد استعاد بديهته و تماثل من مفاجأة السؤال ،
فاضاف مستبقا تساؤل العميد و فضول النساء:

—إلى جانب ما قالتة زبيدة ، هناك هندسة المبنى نفسها ، فقد
أخذت في حسابي البيئة الاجتماعية الفقيرة و الموبوءة بالجريمة
، أثناء تصميمي للدار ، فجعلتها محصنة تماما ضد الاقتحام أو
السرقه.

و ابتسم ابتسامة عريضة و قال و هو ينظر إلى زوجة العميد:

—و قد قمت بعملية تحصين أخرى ، تحصين بسلوكولوجي!

فاسرعت مريم تقاطع:

—سمعت بذلك ، و قد قتلها لابراهيم فلم يصدق ، بعض الناس
يدفنون كتابات و توائم خاصة في أساس الدار فتحميهم من
السرقه ، حتى أثناء غيابهم عنها ، أليس كذلك يا اسماعيل ؟

فرد اسماعيل:

—أنا الآخر سمعت بذلك ، و لكن عمليتي لم تكن عملية روحانية
بهذه الدرجة ، كانت سلوكولوجية كما قلت ، و بسيطة في نفس

الوقت ،فقد نشرت إشاعة في الحي بأن الدار مسكونة ، و سكانها لا يقبلون الغرباء عنها ، و كل غريب دخلها لا يخرج منها أبدا ، استغنت على نشر ذلك بالحارس العجوز ، و الخادمة حليلة ، و يبدو أن الفكرة نجحت فقد وصلتني اصداء مشجعة في هذا الباب.

و مسح العميد فمه ، و قال:

—وصلتنا نحن كذلك بعض الأصداء كتفسيرات محتملة لاختفاء بعض اللصوص المحترفين بالمنطقة.

فشرح اسماعيل:

—أنا لا أعرف لصوص المنطقة ، و لكن كثيرا من الشبان العاطلين جاؤوني لطلب العمل في أوراشي فكنت استخدمهم ، و حين امتلأت أوراش الدار البيضاء بدأت ابعث بهم إلى أوراشي أو أوراش الأصدقاء المهندسين بالمدن الأخرى ، و ربما كان هذا سبب بعض الاختفآت المفاجئة.

و مسح الوجوه بنظرة متسائلة ، فوقعت عيناه في عيني زبيدة ، فلاحظ فيهما بارق حيرة خاطف ، أسلبت على اثره جفניה و انشغلت بما في صحنها.

و في طريق العودة اختار اسماعيل تسجيلا موسيقيا رقيقا ، و دس الكاسيت في آلة التسجيل و راح يتصور زينة تراقصه و تعانقه.

و في الدار فتح الباب على زينة فوجدها واقفة و كأنها كانت
تنتظره . كانت تلبس بيجامة بيضاء ، و فوقها معطف حمام ازرق
، و شعرها معقود إلى أعلى.

—كنت أنوي الرجوع إليك مبكرا ، ألم تنامي بعد ؟

—لم أفعل شيئا غير النوم ، ماذا يمكن أن يفعل الواحد بين أربعة
جدران ؟

—أراك اغتمت فرصة فراغك للاستحمام.

و أقفل الباب خلفه ، و وقف ينظر إليها فأحست كأنه يعريها
ليلتهمها ، فتراجعت قليلا و ضمت صدرها بذراعيها ، فقال:

—هل توصلت إلى قرار ؟

فأجابت بسؤال مفحم و بدون انفعال:

—و هل تركت لي أي اختيار!

فابتسم اسماعيل و قال مهونا عليها:

—ما كان ينبغي أن ألقى عليك ذلك السؤال ، أنا أسف ، كم
تمنيت لو كنت هنا معي بمحض اختيارك.

و تنهد و أضاف:

—كانت سعادتي ستكون مضاعفة!

و لم تزد على أن أسلبت عينيها ثم رفعتها ، فتوجه نحوها لينظر إلى وجهها الغض الناعم ، و كانت هي تنظر إليه باسترخاء و بدون عداء ، فقال ملاحظا هدامها الجديد :

—لا أدري أيهما انسب إليك ، ملابس الجين الرجالية الخشنة التي تتناقض مع نعومة الأنوثة فتبرزها أو ملابسك الحريرية هذه ؟

فقالت:

—أنا افضل ملابسني الأخرى ، و لا اعتقد أنها تبرز أية أنوثة ، لذلك البسها.

فاقترب منها و أمسك بحزام معطفها ، و قال:

—بالعكس ، كنت في منتهى الجاذبية في ملابسك الأخرى ، و قد حاولت أن اتصورك في ملابس غيرها فخانني الخيال . و حاولت أن أتخيلك عارية فلم..

و هنا ابتعدت عنه زينة بحركة مفاجئة ، و بقي طرف الحزام في يده فسحبته منه ، و راحت تعقده بنوع من العصبية الهادئة ، و هي تقول مقاطعة كلماته الأخيرة:

—اريدك أن تعرف أنني لست من أوليـك ، في بلادي تموت
النساء من أجل شرفهن!

فانزعج اسماعيل لتصلبها ، و دق قلبه و هو يرى الهوة تنفتح
بينها و بينه ، فقرر اسرضاءها!

—سامحيني يا زينة ، لم أقصد اهانتك أو المس بشرفك ، أنا
الآخر لست من أولئك.

و نظر إليها ، فبدا له أن ملامحها قد استرخت قليلا ، فاضاف:

—لو عرفت انك من ذلك النوع ما فكرت فيك ، و لا ضيـعت
ساعات من الأحلام اللذيذة عليك ، ألم أقل لك أنك تضيعين شبابك
و جمالك على شخص لا يستحق ، و لا يستطيع أن يعطيك شيئا
مما تستاهلينه ، و لا اعني الأشياء المادية ، رغم أنها مهمة
بالنسبة للمرأة ولكن أعني الحب العظيم ، و المنزلة الكبيرة في
القلب ، و الوجدان.

و اقترب منها و أمسك بيدها فلم تعارض ، فقال:

—كم كان أمني عظيما أن التقى بفتاة مثلك ، و ها نحن التقينا ،
و كم تمنيت لو كنا التقينا في غير هذه الظروف الشاذة.

و رفع يدها إلى شفـتيه فقبلها بحرارة ، و نظر إلى عينيها بعينين
تكادان تغرورقان فرأى دمعـتين في حجم اللؤلؤتين تجريان على
خدها ، فاخرج منديلـه و أخذ يمسح به دموعها بلطف و حنان

كبير ، ثم انحنى فطبع قبلة مليئة بالعطف و المحبة ، فاغمضت
عينها في استسلام مسحور.

و أمسك بيدها:

—تعالى ، تعالى معى إلى فوق.

و صعد السلم إلى غرفة نوم واسعة مكسوة الجدران بورق ملون
بالوردي الفاتح و بها سرير مستدير مزخرف الغطاء بنفس
اللون.

وقفت زينة تنظر حوالها مبهورة بجمال الغرفة و إضاءتها
الخفية ، و العطر الخفيف الذي يفوح من أثاثها ، و الموسيقى
الناعمة الدفينة في أرجائها ، و البساط الوردي الناعم ، و المرايا
البلورية الكبيرة.

و أقفل هو الباب خلفها ، و أمسك بكتفها من الخلف ، و همس
في أذنها:

—أريدك لي ، و لي وحدي.

و انزلت يده على المعطف الناعم إلى خصرها النحيل ، ففسخ
حزام المعطف و خلعه عن كتفها ، و تركه يسقط على قدميها و
أدارها نحوه وضمها إلى صدره ، فأحس بدفع صدرها الشاب
على ظلوعه التي أوهاها الألم ، و أحرقها الحقد الأسود على
العالم.

و وجدت هي نفسها في يده دمية طيعة يفعل بها ما يشاء . و
أقفلت باب ذهنها تماما عن التفكير ، و أخذت تعيش اللحظة
الحالية حالمة ، هائمة تستمرىء لمساته ، بل و تضحك حين
يصدر عنه ما يسليها.

و أثناء إحدى القهقهات الناعمة مد يده فضغط على أحد الأزرار ،
فتوقفت الموسيقى ، و أحست زينة بشك غامض كأن غطاء زال
عنها بتوقف الموسيقى ، و بأنها أصبحت عارية ، فأخذت تبحث
عن قميصها بحركات لا إرادية و هي تسأل:

— لماذا اوقفت الموسيقى ؟

— أريد أن اسمع اصواتك انت ، ضحكاتك أحلى من الموسيقى ،
و أنفاسك أطيب من مسك الليل!

فتوسلت إليه بطريقتها الساحرة:

— أعدّها ، أعدّها ، يعطيك الستر!

و وضعت اصابعها على شفتيه ، فقال:

— حسنا يا عزيزتي ، و لكن لماذا ؟

— بدونها أحس كأني عارية!

و ضحك ، وهو يضغط الزر مرة أخرى ، فقالت :

—إنه عرى من نوع آخر ، لا أدري ! و لكني شعرت كأن أحدا يراقبنا.

—و الآن ؟ هل تغطيتم ؟

فأجابت بجفنيها ، و عادت إلى حركاتها و ضحكاتها اللعوبة..

و عاشت تلك الليلة بجسدها وحده حلما معطرا ، دافئا مخمورا.

و في القبو الأسفل ، كان مجاهد الأسير يتفرج على ما يحدث في غرفة النوم على الشاشة العريضة أمامه بالالوان الطبيعية ، و حاول الانعتاق فوجد نفسه مفرغا داخل أنبوبة كمومياء في تابوت ، و أخذ يعض على قضيب من حديد أمامه ، و يصرخ فيتضخم صراخه عشرات المرات حتى كاد صداه يفجر أذنيه ، و في النهاية أخذ يضرب رأسه مع جدار الأنبوبة في جنون انتحاري.

كان اسماعيل يتفرج عليه في غرفة نومه على شاشة صغيرة داخل نافذة برأس الفراش لا تراها زينة ، و لم يعرف في حياته نشوة أعظم ، و لا لذة أعنف و أعمق من هذه التي عرفها في تلك اللحظة ، كل آهة و كل أنة ، و كل ضحكة و حركة ، ولمسة ، و كل خلجة او انتفاضة تصدر عنهما ، كانت طعنة دامية في قلب اللص الأسير ، مجاهدا!

و حاول اسماعيل تحليل اسرار هذه النشوة العارمة ، و هو
منطرح إلى جانب زينة ، جسدا خاويا من كل طاقة ، يسبح في
عالم دافىء ناعم بين اليقظة و الحلم ، فلم يصل إلى نتيجة .

فهل كان سببها حرمانه الطويل من جسد الأنثى الذي يلمسه منذ
وفاة زوجته (كارين) ؟ أن كان شيئا ما في زينة الوحشية
الجمال و الجاذبية ؟ أم أن لذة الجسد امتزجت بلذة الانتقام من
مغتصبي زوجته و قاتليها ؟

إلا أنه كان مؤمنا في اعماقه بأن مجاهدا لم يكن من أفراد
العصابة ، و بأن هدف حياته سيبقى غير محقق إذا هم لم يسقطوا
في قبضته ، و تصرخ أرواحهم القذرة طالبة النجدة و هو يقتلهم
ببطء ثم يحييهم ألف مرة كل يوم .

و تعزي في موقفه ذلك بأن مجاهدا ، رغم أنه ليس من أفراد
عصابة طنجة ، فهو لص شرس على أي حال ، و قادر لو مكنته
الظروف على القتل و الاغتصاب و أبشع أنواع الارهاب و التنكيل
بالنساء و الأطفال الأبرياء !

و أخذ النعاس ، فامتزجت أفكاره بأحلامه ، حتى غرق في سبات
عميق .

انتهى البارت .

دمتم في رعاية الله و حفظه .

الجزء 11:

و في الصباح أفاق اسماعيل على فكرة أطارت نشوة النعاس من رأسه ، فخرج من السرير بهدوء ، حتى لا يوقظ زينة ، و لبس معطفه ، و نزل إلى القبو السفلى حيث كان مجاهد ، و فتح عليه باب الغرفة ، و أشعل النور ، ثم ضغط على زر أصبح معه الحائط الأمامي شفافا يكشف عن مجاهد وراءه.

و بنظرة واحدة إليه ، ادرك انه فارق الحياة ، كان رأسه ملقى إلى الوراء ، و قد شحب لونه حتى أصبح في لون الزعفران ، و انفتح فمه و عيناه ، و سال الدم من منخيريته و أذنيه ، و خرجت من فمه رع"وه" ممتزجة بالدم.

وقف اسماعيل لحظة ينظر إليه دون احساس معين ، ثم ضغط على زر فانهسر اللوح الشفاف ، فتقدم و مد يده فجس نبض الأسير خلف أذنيه ، ثم مر بكفه أمام فمه فوجده انتهى.

و عاد فضغط على الأزرار فعاد اللوح ، و تغير لونه تدريجيا من شفاف إلى أبيض ، و انطفأ النور في الغرفة ، كانت نشوة الليلة التي قضاها مع زينة ، و وقوعه أسيرا لجاذبيتها الوحشية الغريبة ، عاملا حاسما في قراره بالاحتفاظ بها بصفة دائمة ، و بأي شكل من الأشكال!

و على مائدة الفطور ، نظر اسماعيل إلى وجه زينة الجميل ، و هو ينضح حيوية من جدة الصباح ، و فكر بأن المرأة هي الفاكهة الوحيدة الي لا تنقص بالاستهلاك.

و نظر إلى طبقها ، فوجده كما كان ، فسألها:

—ألا تأكلين ؟

—لا رغبة لي في الأكل ، أريد أن أرى مجاهد ، و نذهب إلى
أهلنا . فلا بد أنهم قلقون عليها.

و لم يجبها ، بل انحنى على صحنه يتم فطوره ، و وقفت هي
فجأة بنوع من الاحتداد:

—اريد الذهاب الآن ، من فضلك ، إذا لم يكن لك مانع!

فرفع رأسه مبتسما نصف ابتسامة:

—أفضل طريقتك الأخرى في الاستعطاف..

—أرجوك ، ليس لي قابلية الدعابة.

—مالك ؟ هل فقدت مرحك فجأة ؟

و مسح فمه بالمنديل ، ثم أضاف:

—هل تشعرين " بندم الصباح " من ليلة أمس ؟

فعقدت قبضتها بعصبية مضبوطة و قالت:

—بالأمس اتفقنا على أن أعطيك نفسي مقابل اطلاق سراح

مجاهد. ألا تتوي الوفاء بعهدك ؟

فرشف اسماعيل من فنجان قهوته ، و أجاب متجاهلا سؤالها:

—أراك حريصة على مجاهد ، بينما هو غير حريص عليك.

—لا دخل لك في هذا ! ألا تتوي الوفاء بوعدك ؟

—بلى ، و قد اطلقت سراح مجاهد هذا الصباح.

—أين هو ؟

—ذهب.

—ذهب ؟ بدوني ؟ إنه يعرف اني هنا ، ألم يسأل عني ؟

—بلى ، و قلت له أنك بخير.

—لا أصدقك!

و ضربت على مائدة الفطور بقبضتها حتى قفزت الاطباق و
الفضيات!

فنظر إليها اسماعيل بعينيه الواسعتين الحزینتين ، و قال بهدوء:

—لا داعي للانفعال ، يا عزيزتي زينة ، اقеди ، و سأشرح لك ،

اقعدي.

— لا ، شكرا.

— كما تشائين ، سأشرح لك على أي حال ، في الواقع كان هناك اتفاقان كلاهما يناقض الآخر ، أولهما اتفاقي معك على اطلاق سراح مجاهد مقابل ، (و تتحنح) أنت تعرفين ، و بالمناسبة ، أود أن أقول لك : لقد كنت رائعة!

فتصلب وجه زينة مستسخرة حشره الموضوع في سياقه:

— أرجوك ، أتم كلامك.

فأحني رأسه مطيعا:

— حسنا ، و الاتفاق الثاني كان مع مجاهد ، و ليس على اطلاق سراحك.

فبدت المفاجأة على وجهها ، فأضاف:

— اتفقت مع مجاهد على أن أشتريك منه ! لنقل : أن يتنازل لي عنك.

ففتحت زينة فمها ، و أرتج عليها لحظة ، ثم قالت شبه صائحة:

— ماذا ؟ ! اشتريتنى منه ؟ !

—نعم ،

—أنت مجنون ! هل أنا بضاعة ؟ و هل يملكني مجاهد حتى
يبيعني لك أو لغيرك ؟

فحرك اسماعيل رأسه أسفا:

—آسف يا عزيزتي ، لقد قلت لك إن اللصوص لا شرف لهم ولا
ولاء ، و إلا ما كانوا لصوصا ، اللصوصية تعني الحقارة و الجبن
، و الخيانة و الغدر ، و مجاهد لص رخيص حقير ، فقد تنازل لي
عنك ، دون لحظة تردد ، و باعك لي بأتفه الأثمان ، تنازل عنك
مقابل اطلاق سراحه ، و أقسم لي على المصحف أنه لن يطالب
بك ، و لن يخبر الشرطة بوجودك عندي ، و بالطبع لم أصدق
قسمه ، فلا كرامة للص ! و لكني أعرف أنه لن يخبر الشرطة
فهو أجبن من ذلك ، و بمجرد أن فتحت له باب الدار ، انطلق
يعدو كالأرنب الهارب من الفخ ! و تركك لي ، رماك كما يرمي
منديل ورق مستعمل في سلة المهملات!

وتطاير شرر الغضب من عيني زينة ، و أخذ صدرها يرتفع و
ينخفض ، و صرخت في وجه اسماعيل:

—كذاب ! كذاب و مجرم ! اللعنة عليك ! اللعنة عليك!

و بدا على وجهها التمر و التشنج ، فأمسكت بسكين الفطور ، و
ارتמת عيله كالبوّة الجريحة ، و لم يشعر اسماعيل حتى كانت

فوقه ، و السكين على عنقه ، و هي تصرخ فيه :

— كذاب و مجرم ! ماذا فعلت بمجاهد ؟

و لم يستطع زحزتها من فوق صدره ، و لا الامساك بالسكين ،
فقد كانت أقوى منه بكثير ، و زادها انفعالها الجنوني قوة و
شراسة ، فقال من خلال لهاته :

— لن يجديك قتلي شيء ، إذا قتلنتي فستحكمين على نفسك
بالاعدام في هذه الدار ، بل حتى هذه الغرفة تنسد كالمحارة آليا ،
بحيث لا يمكن الخروج منها ، و لا الدخول إليها بأي شكل كان ،
و إذا قتلنتي فستبقين هنا سجينه مع جثتي الأيام و الأسابيع ، حتى
تنتن و تتعفن ، و تقتلك الروائح الكريهة و الميكروبات ، هذا إذا
لم يسبقها لقتلك الجوع و العطش و فساد الهواء .

فقالت ، و كأنها لم تسمع ما قال :

— ماذا فعلت به ؟

و أحد اسماعيل بجد السكين يضغط على حنجرته ، و رأى وجهها
يكاد يلمس وجهه ، و قد احمرت عيناها المتوحشتان المشرفتان
على الجنون ، و أخذ يبحث في ذهنه عن فكرة ذكية بسرعة
المشرف على الهلاك ...

— ماذا فعلت به ؟ تكلم، ماذا قلت له عني ؟

و زاد السكين ضغطا ، فخرج لسانه و جحظت عيناه و أخذ يسعل
بقوة و يحاول الكلام، فتخرج كلماته مبحوحة:

—زينة أرجوك ، إذا قتلتني فستقتلين رجلا يحبك..

و أحس بجسدها فوقه يرتعش و ينتفض بقوة ، و خفت حدة ضغط
السكين على عنقه ، فأضاف لاهثا:

—إذا كنت فعلت شيئا أغضبك ، فبدافع حبي لك ، و رغبتني في
الاحتفاظ بك لنفسي ، أنت تعلمين أنني رجل وحيد و شقي.

و فاضت عينا زينة ، و سقط السكين من يدها ، و هي تضرب
على صدره بقبضتها و تردد:

—كذاب ! كذاب!

فأمسك هو بيدها ، و أزالها عنه برفق ، و نهض فبقيت هي
جائبة .

و غادر الغرفة ، و أحكم أقفال الباب خلفه ، و خرج إلى الحديقة
ليفكر بوضوح فيما سيفعله بجثة أسيره مجاهد ، كان عليه أن
يقرر ما إذا كان الأفضل التخلص من الجثة عن طريق القائها
داخل السائل المفترس ، و بذلك ستختفي كل آثارها إلى الأبد ، أو
بإخراجها إلى ضاحية البحر ، حيث تكثر الكهوف و المخابىء
الموبوءة بالمجرمين ، و السكارى ، و المقامرین و اللصوص ،
و القاؤها هناك لتكتشفها الشرطة ، و تتحدث عنها الصحافة ، و
بذلك يثبت لزينة براءته من دم مجاهد ، أو يبذر الشك في تهمتها

اياه ، على الاقل.

و مال إلى الرأي الخير ، رغم ما ينطوي عليه من مغامرة و مفاجآت ، و قبل أن ينفذه ، أخرج سيارته ، و توجه نحو الشاطئ حيث مسح بعناية تضاريسه و تعاريجه ، و لم يتوقف عند اي نقطة حتى لا يثير شك أحد من العابرين .

و عرج في طريق عودته ، على سوق الفواكه و الزهور ، فاشترى باقة ندية من الورود و سلة من الفواكه المتنوعة ، و عاد إلى الدار بفكرة واضحة عما يجب أن يفعله تلك الليلة.

و نقر باب زينة بلطف ثم فتحه و دخل عليها فإذا هي ملقاة على وجهها على السرير بملابسها الزرقاء ، و رن جرس حاد في رأسه خشية أن تكون ارتكبت في نفسها حماقة ما ، و ندم على ترك أدوات الأكل معها داخل الشقة ، و دق قلبه بسرعة و هو يقترب منها و يناديها:

— زينة ، زينة.

و لحسن حظه ، رفعت رأسها و التفتت نحوه ، و على وجهها آثار البكاء الطويل ، و النوم العميق.

و تنفس اسماعيل الصعداء ، و سارع بوضع باق الورد ، و سلة الفواكه على المائدة التي كانت ما تزال كما تركها منذ الفطور ، و اقترب منها بحذر ، و جلس على حافة السرير ، و وضع يده فوق

رأسها و ظهرها في حنان كبير ، و قال:

—كيف تحسين ؟ لابد أنك جائعة و عطشى من كثرة البكاء ، لقد
جئتك ببعض الفواكه و الزهور ، قومي ، إنه يوم صيفي جميل ،
و إذا طاوعتني فسوف نتغدى إلى جانب المسبح على السطح،
قومي سيعجبك ذلك.

و نهض فأمسك بيدها ، و أجلسها ، فوقفت ، و اسرعت نحو
الحمام و يداها على وجهها ، و جمع هو أدوات الفطور وسط
غطاء المائدة ، و وضعه داخل مصعد صغير يؤدي إلى المطبخ
الرئيسي ، و ضغط الزر فتحركت الصرة إلى فوق.

و خرجت زينة ، و قد عاد إلى وجهها بعض الانتعاش و النضارة
، ففتح لها الباب ، و قادها إلى مصعد انفتح أمام اسماعيل آليا.

و لاحظت زينة ذلك من خلال غشاوة الضباب التي ملأت رأسها
منذ وقوعها في شرك اسماعيل ، و قررت أن تراقب حركاته بدقة
عند فتح الأبواب.

فأشار لها فدخلت ، و انقفلت الباب ، فضغط اسماعيل على الزر
الأعلى و صعد بهما المصعد إلى السطح و توقف ، و انفتحت بابه
على مسبح على شكل قيثارة مأوءه الصافي في لون اللازورد
الفاتح. و بهرها المشهد فنسيت حالها لحظة و هي تجيل بصرها
بين الأرائك البديعة التي اختلط في أشكالها الجمال بالراحة ، و
بين الزهريات و النباتات الاستوائية الغريبة الزهور و الأوراق.
يحيط بذلك كله سور من معدن زجاجي شفاف.

و قادها اسماعيل إلى مقصف على الطرف الجنوبي للمسبح ،
يمتد أمامه عريش من القلع الأبيض المزخرف بمشاهد بحرية و
حيوانات أسطورية ، و دخل المقصف الذي كان مزودا بكل ما
يحتاج إليه مطعم صغير ، و ناداها:

—زينة ، ماذا تريدين للغداء ؟

و لم تجب ، فخرج يبحث عنها فإذا هي تقف أمام السور الزجاجي
تنظر إلى معالم مدينة الدار البيضاء الممتدة أمامها كبحر من
الاسمنت الأبيض.

و نظر إليها و هي مستغرقة في تأملها ، ثم إلى المنظر ، و علق
:

—مشهد أخاذ ، أليس كذلك ؟ و لكن من بعيد فقط ، لذلك وضعت
بيني و بينه هذا السور الشفاف ، و لا يغريك مظهره الزجاجي
الهش ، فهو في صلابة الفولاذ ، و ينطبق عليه ما ينطبق على
بقية الدار ، فهذا السطح مقفل و محروس اليكترونيا ، بحيث
يستحيل اجتيازه من الداخل او الخارج.

فالتفتت نحوه ، و نظقت لأول مرة:

—هل هذا تهديد غير مباشر لي حتى لا أحاول الهرب ؟

فرد معتذرا:

—آسف ، لم أقصد ذلك ، كنت فقط أشرح لك مزايا الدار ، هذه بعض عيوب المهندسين.

ثم اضاف مغيرا الموضوع :

—جئت لأسألك ماذا تريدون للغداء ؟

فقالت و هي تنظر بعيدا:

—لا شيء ، لست جائعة.

و لم يناقشها ، بل انصرف قائلا:

—سأقلي بعض السمك ، أعرف أنه سيعجبك ، و سوف تغيرين رأيك.

و على المائدة ، جلست زينة تنظر إلى طبقها في شبه اغفاءة ، فدق اسماعيل بسكينه على الكأس أمامه ليلفت انتباهها و قال مشيرا إلى السمكات الثلاث على الصحن:

—ذوقيه ، سيعجبك ، صدقيني ، أنا من طنجة ، و السمك اختصاصنا.

فرفعت رأسها نحوه:

—كيف يطيب لي الأكل ، و أنا لا أعرف مصيري ؟

فمال برأسه جانبا و قال مهدئا:

—زينة ، هذا تهويل لا داعي له ، من سمع شكواك يقول انك في
زنزانة أو دهليز من دهاليز القرون الوسطى ، و ليس على حافة
مسبح بأجمل بناية في المدينة ، كثير من النساء يحملن بمثل هذا
الأسر و يتمنيه..

فردت بقوة:

—ليس أنا ، أنا لم أحلم بهذا و لم أتمنه ، أنا فتاة مسكينة ، و
من عائلة متواضعة ، أحلامي على قد حالي ، و حتى لو خطبتني
من عائلتي ، و جئت بي إلى هنا ، فسأجد نفسي في غير مكاني.

فنظر إليها مبتسما:

—أليس لك طموح بالمرّة ؟

—لا.

فأشار إلى طبقها بسكينه.

—كلي الآن ، قبل أن يبرد السمك ، و اعدك أن نناقش هذا
الموضوع بتوسع قريبا.

و في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، خرج اسماعيل بسيارته الثانية الصغيرة البيضاء متوجها نحو شاطئ الضاحية الجنوبية ، متفاديا الطرق الرئيسية ، و الشوارع المضاءة و حين اقترب من مكان خال أبطأ السير ، و أطفأ النور تدريجيا ، ثم توقف .

و خرج من السيارة ، و نظر في كل اتجاه ، ثم فتح صندوقها ، و أمسك بالجلّة من تحت الابطين ، و انطلق بدون نور بضعة كيلومترات حتى اختفى بين المنازل .

و في الصباح عادت الحياة إلى الدار البيضاء الغامضة الراقدة وسط الغابة و المحاطة بهالة من الأسوار الرهيبة .

عادت الخادم حليلة من عند اختها ، و فتح لها الحارس البوابة الخارجية ، فوقفت تتبادل معه التحيات ، و تسأله عن حركات السيد اسماعيل ، ثم دخلت المطبخ من بابه الخلفي لاعداد الفطور .

و دق جرس الباب مرارا ، فجاء غلام الدكان ، و الجزار و الخضار يحملون تموين الأسبوع كما اعتادوا كل اثنين صباحا .

و كان اسماعيل يتفرج من سريره على حركة الباب من خلال جهاز تلفزيوني داخلي ، و يسمع الأحاديث ، حتى الهامسة منها ، عن طريق توجيه آلة الانصات الحادة ناحية المتكلم .

و بعد لحظة مد يده فضغط زرا آخر ، فبدت له غرفة زينة خالية
فهبط قلبه و لكن سرعان ما اطمأن حين رآها تخرج من الحمام و
قد غسلت شعرها و لفته في فوطة و التفت في معطف قطني ، و
جلست إلى مرآة الزينة تنظر إلى وجهها ، و كأنها سيدة بيت
عادية ليس ببالها ما يقلق.

و سرح اسماعيل في حلم من أحلام يقظته يتخيلها ملكا خالصا له
، و تحبه و لا تريد فراقه ، و قد اصبح مجاهد ذكرى سقيمة ،
بالية مكروهة في حياتها ، ترفض حتى أن تخطر على بالها.

و تذكر الليلة التي استسلمت له فيها في غرفته الوردية . و تمنى
لو أنها فعلت ذلك حبا له و رغبة في الاستمتاع به ، بدل أن تكون
فعلته حبا لصديقها الوسخ ، الأهوج المتمرد، و تمنى لن أنها
رفضت الاستسلام له ، اذن لكان ذلك دليلا على عدم حرصها على
حرية مجاهد و حياته ، و لكن استسلامها له مزج استمتاعه
بجسدها الغض الملتهب ، بألم الغيرة و الحسد لمجاهد الذي كان
يمتلك قلبها و وجدانها ، و ربما كان الاستمتاع الذي لم تستطع
اخفائه حين كانت معه ، كان استمتاعا بمجاهد ، و ليس به هو ،
كانت تتخيل جسد مجاهد بين ذراعيها ، و رائحته في أنفها ، و
صوته في سمعها معوضة بصورته في خيالها ، عن واقع جسد
اسماعيل ، وجوده بأكمله:

إذ كان ذلك ما حدث فعلا ، فما اتعس حظه!

و لكنه وجد العزاء في أنه لا يمكن التأكد من أن هذا ما حدث فعلا
، فقد تكون أعجبت به هو لذاته ، و قد لا تكون واقعة في حب

مجاهد بالشكل الذي يتصوره!

و أقوى عزاء له ، هو انتحار مجاهد ، و انفجاره بذلك الشكل
البشع ! فقد أكلت الغيرة قلبه ، و أحرقت أعصابه و هو يشاهد ما
كان يحدث في الغرفة الوردية بينه و بينها ، و لو عرف ما كان
يعانيه اسماعيل من غيرة منه ، وحسد له على حبها الحقيقي له
هو ، لهدأت اعصابه ، و لشعر في ساعة قهره و عجزه ، بكثير
من العزاء و الانتصار.

و ضغط على زر آخر فظهرت على الشاشة الصغيرة صورة
حليمة و هي تدور في المطبخ.

—صباح الخير حليمة.

فرفعت وجهها نحو مكبر الصوت و عدسة الكاميرا:

—صباح الخير سيدي اسماعيل ، كيف أصبحت ؟

—الحمد لله ، كيف وجدت ابنتك ؟

—بخير ، يا سيدي و تسلم عليك.

—بلغيتها تحياتي ، أريد إعداد الفطور لاثنتين و ارساله بالمصعد
إلى جناح الضيوف التحتي.

—حالا يا سيدي.

و ضغط زرا آخر فعادت صورة زينة ، و هي تخرج من الدولاب
ملابسها الزرقاء المهترئة ، فحياها بصوت مرح:

—صباح الخير ، يا زينة.

فقفزت في موقفها فزعا ، و غطت صدرها نصف المكشوف
بحركة آلية من يدها ، و نظرت حواليتها تبحث عن مصدر
الصوت، و أخيرا لاحظت صورة اسماعيل على شاشة التلفزيون ،
و هو يبتسم لها:

—أسف لافزاعك ، كيف اصبحت ؟

—لم أنم حتى الصبح.

فضحك اسماعيل ، و أضاف:

—بالصحة الحمام ، و لا داعي للبس تلك الملابس ، اتركها
هناك لتغسل ، و البسي غيرها ، ستجدين في الدولاب شيئا
يناسبك.

—شكرا ، سأغسلها بنفسي حالما أخرج.

—كما تشائين ، الفطور جاهز ، و سأنزل حالا لنفطر معا.

و اختفت صورته ، و قام فدخل الحمام.

و على مائدة الفطور ، سألته بقلق:

—ماذا قررت بشأنني ؟

و انشغل عن جوابها بقطع البيضة المقلية فوق شطيرة الخبز المحمر ، و لاحظت لأول مرة أنه يستعمل سكيناً و شوكة من البلاستيك فأعادت السؤال:

—هل سمعتني ؟ ماذا قررت في شأني ؟

—لا شيء.

—ماذا تعني بلا شيء ؟

—قلت لك سنناقش ذلك بتوسع قريب ، فاعطيني مهلة من فضلك.

—قريباً ؟ متى ؟ الليلة ؟ غدا ؟ بعد اسبوع ؟ أو شهر ؟

—لا ادري ، الأمر يحتاج إلى تفكير طويل.

—اتعرف انك تعرض وضعك لخرج كبير ، و ربما لخطر أكبر باستمرارك في حجري هذا ؟ ثم ان والدتي لا بد أنها قلقة علي للغاية ، و ربما أخبرت الشرطة باختفائي أنا و مجاهد ، و ماذا

لو أخبرها مجاهد بمكاني ؟

فقاطعها اسماعيل:

— لن يخبرها ، و لن يتصل بها ؟

— كيف عرفت ؟

— سأقول لك ، إذا وعدتني ألا تغضبي و تهاجميني كالمرّة السابقة.

— لا تخش شيئا ، لم يبق لي ما أهاجمك به غير معالق البلاستيك.

فضحك اسماعيل ، و قال بجذ:

— مجاهد ، الذي تعرفينه تغير تماما ، لقد استطعت اقناعه بأخذ عمل جيد بالخارج ، و حصلت له على جواز سفر ، و أعطيته مبلغا من المال و تذكرة سفر ، و نقلته من هنا رأسا على المطار حيث سافر تاركا المغرب وراءه دون دمة حسرة لفرقه.

و فتحت فمها للمفاجأة ، فقال مجهزا:

— أنت تعرفين أن العمل بالخارج كان نقطة ضعفه الكبرى.

و لم تستطع هي انكار ذلك ، و حتى لا تنهزم امام منطقته ، جادلت

:

— ماذا لو عاد من السفر ، و أخل بالاتفاق ، و أخبر الشرطة ؟

فقال اسماعيل بثقة كبيرة:

— لن يفعل من ذلك شيء ، و قد اخذت حيطتي للأمر على أي حال ، و اقسمت له ، على نفس المصحف الذي اقسم لي عليه انه لن يفعل ، بأن اتخلص منك بقتلك إذا شممت رائحة خيانة منه..

و رشف من فنجان قهوته ، و نفخ البخار ، و أضاف:

— افهمت الآن لماذا يجب أن ننتظر قليلا لنناقش موضوع إطلاق سراحك ؟

فجددته بنظره متوحشة يائسة:

— إذن انت لا تنوي اطلاق سراحي بالمرة ، تريد إبقائي هنا رغم ارادتي ، و إلى آخر حياتك أو حياتي.

فقال ببرودة:

— إذا لم تتركي لي أي خيار.

فوقفت في مكانها غاضبة:

—أنت مجنون!

و نهض هو بسرعة ، و دفع الكرسي إلى الوراء و ادخل يده في جيبه و أمسك بأنبوب الغاز المسكن ، استعدادا لرشه في وجهها ، إذا هي هاجمته، و قال بصوت موزون يخفي غضبا عميقا:

—حذار من أن تكرري تلك الكلمة مرة أخرى!

فابتسمت زينة ابتسامة انتصار شرسة ، و قالت بتشف كبير:

—اذن انت تعرف انك مجنون!

فاتسعت عيناه عن غضب وحشي ، و هو يخرج الأنبوب من جيبه و يسير نحوها مكررا:

—اخرسي ، اخرسي ، اخرسي!

فتراجعت ، و هي و ابتسامة التشفي ما تزال على شفيتها ، و في عينيها ، و هي تقول:

—لن أكررها ، لا ، لن أكررها ، و الا كنت أنا الاخرى مجنونة.

و هنا لاحظت زينة الأنبوب ، لأول مرة ، مصوبا نحو وجهها ، فأصابها دعر شديد و تراجعت بسرعة حتى التصقت بالحائط ، و هو يقرب منها مرددا:

— ما أبشع وجهك ، و ما أخبث ابتسامتك !

و ضغط على زر الأنبوب ، فانطلق منه بخار نحو خياشيم زينة و
فمها المفتوح بالصراخ ، فهوت على الأرض مغمضة العينين
فاقدة الوعي.

و خرج اسماعيل ، و أقفل الباب وراءه بعنف ، و هو يرتجف من
الانفعال ، هذه أول مرة ينفعل فيها مع أحد أسراه و يفقد أعصابه
، كانت اليد العليا دائما له عليهم ، و كان يتفرج عليهم و هم
يستعطفون ، و يستجدون و يستخذون ، فيحس بتلك العين
الكبيرة ، المفتوحة أبدا داخل دماغه ، تزيد انفتاحا ، و بريقا فيمد
اصبعه إى الزر الاحمر ، فيضغطه ، و يرتفع السائل الناري
المفترس ليلتهم جسد اللص الأسير ، ابتداء من قدميه ، إلى شعر
رأسه ، و حينئذ تغمض العين الكبيرة داخل دماغه في ارتياح ، و
نشوة و اغتباط . و تسترخي اعصابه هو ، فيتحول إلى انسان
لين ناعم مرح.

فماذا أصابه اليوم ؟

لقد خرج من عند أسيرته هذه كسيرا مهزوما ، و كان بإمكانه ،
كما حثته العين الكبيرة الجاحظة بداخله ، أن يلقي بجسدها
المخدر إلى اللجة الجهنمية لتحولها إلى ماء كما فعلت بعشرات
الجثث قبلها، فماذا يمنعه من ذلك ؟

انتهى الجزء.

دمتم في رعاية الله و حفظه ..

الجزء 12:

لقد خرج من عند أسيرته هذه كسيرا مهزوما ، و كان بإمكانه ،
كما حثته العين الكبيرة الجاحظة بداخله ، أن يلقي بجسدها
المخدر إلى اللجة الجهنمية لتحولها إلى ماء كما فعلت بعشرات
الجثث قبلها، فماذا يمنعه من ذلك ؟

إنها ليست لصة ، لم تقع في فخه بالطريقة العادية ، بل دخلت من
الباب ، و ارتفع بداخله صوت آخر يفند هذا المنطق:

"بل لأنك تحبها ، تحبها ، تحبها" !

و ترددت اصدااء الكلمة داخل رأسه ، فصعد يجري إلى غرفة
نومه ، و ارتمى على السرير هربا من الصوت ، و هو يردد:

"بل اكرهها ، اكرهها ، اكرهها" !

و مد يده إلى جانب السرير ، فضغط على احد الأزرار ، كما كان
يفعل في لحظات ضيقه الكبير ، فاظلمت الغرفة ، و انبعثت انغام
من الموسيقى التصويرية الرقيقة الحاملة من كل مكان ممتزجة
بخير الشلالات ، و زقزقة الشلالات ، و زقزقة العصافير ، و
انطبعت على الحائط الكبير أمامه صور شفافة بالأحجام الطبيعية
لزوجته القتيلة " كارين " ، و طفلة الصغيرة ، في أوضاع
شاعرية صامتة أو مرحة باسمه ، أو متحركة أو ساكنة تنطق

بالسعادة و الدفاء و الجمال.

و تخللت انغام الموسيقى أصوات كارين ، و ضحكات الطفلة و هي تستجيب لمناغاة أمها ، و قهقهتها و هي ترفعها في الهواء.

و تمنى من أعماقه لو بكى ، لو انفجرت دموعه ، و تهاطلت تهاطل الغيث من سحابة مثقلة سوداء ، إذن لانطفأت النيران المضطربة في آفاق روحه ، و لنبتت زهور الرحمة في أرضها ، و انقشعت سحائب الدخان الكثيف عن فضائها لتكشف عن زرقة المساء و جمال الكواكب ، و حلقة الليل ، و نعومة الهواء ، بدل هذه الدماء التي ما يفتأ يفسحها فلا تكاد تخدم النار حتى تزيدها اشتعالا.

ووجد نفسه يردد وعده القديم لطفلته و لزوجته كارين:

"سأبكي يوم ترجعين" !

و رن جرس التلفون ، فأخرجه من كابوسه القائظ ، و مد يده فضغط زر الاستماع على جهاز بدون سماعة و تكلم:

—نعم.

و جاءه صوت زبيدة واضحا ، ناعما ، مرحا كعادته كل صباح ، فقد كانت عصفورا مبكرا ، تحب اليقظة و الحياة ، و لا تنام إلا اضطرارا . قالت مزقزقة:

—صباح الخير!

—صباح الخير ، زبيدة.

—هل أيقظتك ؟

—لا ، أبدا ، أنا صاح منذ السابعة.

و أحس في غيبوبته كأنها معه داخل الغرفة تتجسس على أحاسيسه و تتفرج على عواطفه العارية ، فمد يدا مرتعشة ، فأطفأ الموسيقى و الصور و أعاد النور تدريجيا إلى الغرفة.

و جاءه صوت زبيدة الرقيق الحازم:

—ناديتك لاذكرك بغذاء الاجتماع مع المهندس ، اليوم بمطعم " المجرة " بفندق المنارة ، على الساعة الثانية عشرة و النصف.

—شكرا يا زبيدة ، سأكون هناك.

—لا تنس الخرائط.

—شكرا.

—صوتك متهدج ، هل بك زكام ؟

—لا.

—لا بد أنه التلفون . إذن إلى اللقاء.

—مع السلامة.

و اقفل الجهاز و نهض شاكرًا لزبيدة إخراجها من كابوسه الذي لم يكن يعتريه إلا عند حالة الوحدة الحادة ، و في الليل فقط.

و في الغرفة الخاصة برجال الأعمال " المجرة " جلست زبيدة و ابراهيم ، و المهندس السعودي الشاب ، أمين ناصر الاختصاصي في هندسة المنازل الشمسية ، ينصتون إلى اسماعيل البناء ، و هو يشرح على خريطة ملصقة بسبورة أهدافه من مشروعه الجديد الذي ينوي تجربته قبل تقديمه للمعرض الدولي للمنازل الشمسية.

"المنزل ، كما ترونه ، سيكون لعائلة من أربعة إلى ستة أفراد ، و سيعمل الطاقة الشمسية في التدفئة ، و التبريد ، و تسخين الماء ، و الطبخ ، و التصبين ، و الاضاءة ، و تشغيل جهازين للتلفزيون ، و راديو في نفس الوقت ، إلى جانب تشغيل جهاز تصفية المياه المستعملة ، و استغلالها لسقي الحديقة ، و غسل الأرض ، و السيارة و غير ذلك من الأغراض باستثناء الطبخ ، و الاغتسال ، و الشرب و ليس لأنها غير صالحة لذلك ، و لكن فقط لأن الناس ينفرون منها.

و قلب الصفحة:

"هذا سطح المنزل ، و السقف الهرمي المستطيل يعكس اشعة الصباح ، و الزوال و المساء ، و يمتص عن طريق المرايا المزودة بخلايا خاصة شديدة الحساسية حرارة الشمس مهما بلغ ضعفها ، و مهما كانت السماء غائمة ، لاستعمالها في تسخين الماء لدرجة الغليان ، و استغلال البخار الناتج لتشغيل المحركات ، و توليد الطاقة التي يحتاج إليها المنزل.

و قلب الصفحة:

"هذا جزء الدار المدفون في الارض ، و هذا جهاز تكرير المياه المستعملة و إرسالها إلى الخزان بالسطح ، و هذا هو بئر المياه الحارة ، لن نحتاج إلى ربط المنزل بشبكة المياه الحارة للتخفيف من التلويث".

و كاد يقلب الصفحة ، فاستوقفته زبيدة رافعة يدها لتسأل:

—ذلك الأنبوب الواسع الذي ينزل من السطح إلى القبو ، و يصب في ذلك البرميل.

فقاطع اسماعيل شارحا:

—نسيت أن أشرح ذلك ، شكرا يا زبيدة ، هذا نظام جديد تحت التجربة ، لاعداد القمامة محليا ، عن طريق إذابتها كيماويا ، فجميع الازبال المنزلية العادية قابلة للاحتراق أو الانصهار في محاليل كيماوية قوية.

فقال ابراهيم:

—ألا يسبب ذلك خطرا على السكان ، الأطفال على الأقل ؟

فرد المهندس السعودي:

—أبدا ، سيكون مأمونا للغاية ، حتى بالنسبة للحيوانات المنزلية
الليفة.

فسألت زبيدة:

—و ماذا عن الابخرة الكيماوية ؟ ألا تكون خطرا على السكان ،
و عاملا من عوامل التلوث ؟

فأجاب اسماعيل:

—ابدا ، فالانبوب يحتوي على صمامات عدة لا تسمح للأبخرة
بالصعود بالمرّة ، و حتى لو حدثت هزة ارضية ، فالوحدة السكنية
ستبقى قائمة سليمة . و حتى لو حدث انفجار داخل الدار ، فإن
أوعية الكيماويات تنسد آليا.

و رفع راسه باسم:

—لم نجرب الانفجار بعد ، و لكنه احتمال يجب أخذه في الاعتبار
في عصرنا هذا.

و قلب الصفحة ليكشف عن صورة كاملة لمظهر المنزل الخارجي
الأنيق جدا ، و هو محمول على ظهر جمل كالهودج ، و قال:

—هناك إضافات أخرى ، و كماليات ، مثل أجهزة خاصة
لاستغلال طاقة الريح في المناطق التي تكثر فيها الرياح ، و
أجهزة أخرى لاستغلال طاقة الموج بالنسبة للسكانين على
الشواطئ ، و إذا لم يكن هذا كافيا ، فهناك أجهزة تحت الدرس
لاستغلال الجو القاري البارد ليلا ، و الساخن نهارا ، عن طريق
استغلال تقلص بعض المعادن أو السوائل بفعل البرد ، و تمددها
بفعل الحرارة.

"و هذا أيتها الأنسة ، و السادة ما يجعل من منزلنا هذا سكنا
فريدا من نوعه . فهو مستقل في احتياجاته ، بحيث لا يكلف
المدينة شيئا.

و عقب المهندس أمين الناصر ، موجهها الكلام إلى زبيدة التي
أسرت عينيه ببريق عينيها السوداءوين ، الصافيتين ، المشرفتين
على الابتسام ، و قال:

—إذا نجحت التجربة العلمية التي سنقوم بها ببناء نسخ طبق
الأصل لهذا التصميم في ضواحي المدن المغربية ، فسوف نشن
حملة إعلام عالمية للتعريف بمزاياه و حينئذ سيكون علينا أن
نبني مصانع البناء الجاهز في جميع الدول ، لافراغ منزلنا
النموذجي في قوالب جاهزة ، بحيث يصبح صنعه كطبع عشرات
آلاف النسخ من الكتاب الواحد.

و سكت لحظة مستمرنا مفعول كلماته على وجه زبيدة الشفاف ،
ثم أضاف:

—سنقضي على أزمة السكن في العالم بأسره.

فمد ابراهيم يده ، و نقت بقبضته على رأس زبيدة ، و علق مازحا
:

—لنلمس الخشب ، حتى لا يسبقنا أحد لتسجيله!

و مدت زبيدة يدها ، هي الأخرى ، وسط ضحكات الجميع ، و
نقرت رأس ابراهيم قائلة:

—الخشب المسوس أكثر جلبا للحظ!

و ضحك أمين ناصر الذي لم يكن يستطيع إخفاء إعجابه بزبيدة
الأنيقة ، والذكية ، و كأنما فوجيء بمرحها و خفة دماغها.

و دخل النادل بأواني الطعام ، فقام الجميع للجلوس حول المائدة.

و بعد الغذاء ، ودع اسماعيل الجماعة و عاد إلى داره ليعد حقائب
السفر.

و في الطريق ، توقف عند مكتبة ، و اشترى نسخة من كتاب "
علم نفس السجن " ، ليقراه في الطائرات و الفنادق ، أثناء
أسفاره عبر أقاليم المملكة في مهمة اختيار بقع البناء ، و الاعداد
لمشروعه الكبير.

و في غرفة نومه فتح شاشة التلفزيون الداخلي ، على غرفة زينة
فوجدھا تذرعھا جبئة و ذهابا و كأنھا لبوة في قفص.

و مرة أخرى تصور وجهها ، و هي تصرخ فيه : " أنت مجنون
" ثم تبتسم له ابتسامتها البشعة ، و تقول بلهجة من كشف السر
الكبير : " إذن أنت تعرف أنك مجنون! "

و غلى الدم في عروقه ، و أطبق شفتيه على أن يجعلها تتوصل
إليه و تستجدي رحمته و عفوه!

و في صباح الغد ، سافر صحبة زبيدة و أمين ناصر بطائرة
خاصة إلى مراكش . و كان في انتظارهم مقاول محلي و سمسار
، فأخذهم رأسا إلى المكان الذي تتوفر فيه المواصفات التي
اشتراطها اسماعيل مسبقا.

و اشرفت زبيدة على توقيع عقود الشراء و البناء . و انتقل
الجميع إلى قصر البديع لتناول الغذاء في مطعم الخيمة.

و في صباح الغد انتقل الفريق إلى أكادير حيث قاموا بنفس
العملية.

و حرص اسماعيل على اخفاء عنوان كتابه عن سيكولوجية
السجن عن زبيدة حتى لا يثير فضولها القديم ، و ينشط ذهنها
الجهنمي ، فتصل إلى استنتاجات مقلقة لراحته . و عمد إلى
تغليف الكتاب بورق سميك ، و عدم تركه لتفتيشها في أي مكان ،

فكان يضعه في جيب سترته كلما انتهى من قراءته.

و سألّه أمين ناصت مرة بطريقة عابرة ، بعد لحظة صمت أثناء
حديثه مع زبيدة التي كانت تجلس دائما بينه و بين اسماعيل في
الطائرة.

—طال عمرك ، ماذا تقرأ ، يا اسماعيل ؟

—رواية بوليسية.

—لابد أنها شيقة للغاية.

—فعلا.

و لم تقتنع زبيدة ، لم يسمح لها ذهنها الشكاك بالاقتناع ، و
اغتنمت فرصة استغراق اسماعيل في القراءة ، فأخرجت مرآتها
الصغيرة من حقيبة يدها ، و أخذت تنظر إلى وجهها ، و تميل
برأسها ، متظاهرة بتفادي الأشعة حتى استرقت النظر إلى عنوان
أحد الفصول بداخل الكتاب ، هو " الحبس الانفرادي . "

و دامت الرحلة ثلاثة و عشرين يوما ، زار فيها الثلاثي عشر
مدن كبيرة و متوسطة على المحيط ، و على البحر الابيض ، و
بالداخل . و تركوا التصميم النموذجي للمقاولين في كل من أكادير
و مراكش و الجديدة و فاس و مكناس و الرباط و سلا و طنجة و
تطوان و الناظور ، على أن يبدأ البناء في الحال.

و كان اسماعيل طوال الرحلة ممتنا للمهندس السعودي الشاب ،
أمين ناصر ، على أخذه عبء زبيدة من فوق كاهله ، فكان
يتركهما يتحدثان على موائد الكوكتيل بحانات الفنادق المعتمدة ،
العبقة بدخان السجائر ، و الموسيقى المعلقة ، و يصعد إلى
غرفته لقراءة كتابه ، أو يخرج للتجول في المنطقة التي اختار
فيها بقعة البناء ، و التي غالبا ما تكون موحشة خطيرة على
المتجول المنفرد الغريب ، لكثرة اللصوص و قطاع الطرق ، و
المقامرين و السكارى الذين تعج بهم الطرق بين المدينة ، و قرى
الصحف.

و كان دائما يتسلح بأنبوبة الغازي ، و يشعر بنشوة الصيد الذي
اكتشف بقعة من البحر عامرة بالاسماك ، و يتخيل اعدادهم
الهائلة التي ستقع في شركه.

و أكد لنفسه انه بهذا التنظيم الجديد ، لابد سيقع في قبضته أحد
الأفراد عصابة طنجة.

و رغم بعد هذه المنازل و انتشارها عبر مدن المملكة ، فإن
جهازه الجديد لتسجيل اعترافات اللصوص الأسرى ، و ارسالها
إليه بالتلفون في منزله بالدار البيضاء ، يسهل عليه مهمة
المراقبة ، رغم خلو المنازل من السكان.

و في كل مساء ، بعد انتهاء العمل بالخارج ، كان اسماعيل يعود
إلى غرفته بالفندق و يطلب داره بالدار البيضاء . كان تلفونه
موصلا بجهاز إجابة آلي يختزن مكالمته و يعيدها عليه بإشارة
خاصة عبر التلفون ، و كان هو يسمع إلى المكالمات بصبر فارغ

، في انتظار إشارة شفوية معينة تخبره بما إذا كان قد وقع اسير
جديد في أنبوب الاستنطاق.

و في الأسبوع الأول بكامله ، كانت الإشارة الشفوية سلبية ، و
كان اسماعيل يضع السماعاة في خيبة أمل ، و كأنه فتح صندوق
بريده فلم يجد خطابا هاما كان ينتظره ، و كان يحس بصداع
يتزايد كل يوم لا تأتي فيه الإشارة ، كان يحس بالعين العملاقة
تتسع داخل رأسه و تتمدد حدنتها و تفتح عروقها ، و تتوتر
اعصابها ، و تحتقن ، و تجحظ حتى تكاد تنفجر ! و يؤرقه ذلك
طوال الليل فيلجأ إلى الحبوب المنومة.

و في اليوم العاشر نادى داره من فندق (عبر الاطنطي)
بمكناس ، فسمع في نهاية الرسائل الشفوية نبض الإشارة
الشفوية تبشره بوقوع صيدين ، و قبل أن يضع السماعاة قبلها و
هو يحس أن العين الداخلية أخذت تسمع نشوة و توقعا.

و عاد فرفع السماة و أخبر زبيدة بأنه عائد إلى الدار البيضاء في
مهمة مستعجلة و سيعود في الصباح لمتابعة الرحلة . و طلب
منها إشعار الطيار في الحال.

و في الطائرة بينمكناس و النواصر ، كان ينظر إلى الأفق
المخضب و إلى الشمس ، كرة النار الخالدة ، و قد ثلم حذة
أشعتها الغبار الكوني و أبخرة المحيط ، فتحولت إلى برتقالة
باردة . كان ينظر إلى مشهد الغروب المترامي أمامه من ذلك
الارتفاع ، و يفكر ماذا سيفعل لو وقع في يده أحد أفراد العصابة ؟
و تين أنه يعيش من أجل ذلك الأمل ، و ذلك الأمل وحده !

و ماذا لو تحقق ؟

هل ستغض العين الداخلية و تنام ؟

أم هل ستختفي من داخله إلى الأبد ؟ أم ستبقى تطالب بدم اللصوص و المجرمين إلى أن تغرقه في بحر من الدم ، أو يكتشف أحد أمره ، و يصبح سره فضيحة القرن ؟

لم يستطع الإجابة على أي من هذه الاسئلة ، فقد كان يحس بأنه مسير بإرادة باردة لا يعرف كنهها و أن عليه أن يقبض على العصابة أولاً ليعرف مصيره .
انتهى الجزء .
دمتم في رعاية الله و حفظه .

الجزء 13:

و في الطائرة بين مكناش و النواصر ، كان ينظر إلى الأفق المخضب و إلى الشمس ، كرة النار الخالدة ، و قد ثلم حذة أشعتها الغبار الكوني و أبخرة المحيط ، فتحولت إلى برتقالة باردة . كان ينظر إلى مشهد الغروب المترامي أمامه من ذلك الارتفاع ، و يفكر ماذا سيفعل لو وقع في يده أحد أفراد العصابة ؟ و تين أنه يعيش من أجل ذلك الأمل ، و ذلك الأمل وحده !

و ماذا لو تحقق ؟

هل ستغمض العين الداخلية و تنام ؟

أم هل ستختفي من داخله إلى الأبد ؟ أم ستبقى تطالب بدم اللصوص و المجرمين إلى أن تغرقه في بحر من الدم ، أو يكتشف أحد أمره ، و يصبح سره فضيحة القرن ؟

لم يستطع الإجابة على أي من هذه الاسئلة ، فقد كان يحس بأنه مسير بإرادة باردة لا يعرف كنهها و أن عليه أن يقبض على العصابة أولاً ليعرف مصيره.

و فكر في أن " المنازل - المصايد " ستسهل تلك المهمة.

و في الدار ، نزل إلى القبو الاسفل ، و فتح باب الزنزانة ، و أضاء الحائط الشفاف ، فإذا الاثنان يقفان جنباً إلى جنب ، و بنظرة واحدة إلى شكلهما ، ادرك أنهما من لصوص اسواق البادية ، و انهما هاويان ، و لا يمكن ان يكونا من العصابة.

و فتح أولهما عينيه بصعوبة أمام الإضاءة المفاجئة ، أما الآخر فكان يبدو عليه أنه ميت، كانت الرغبة تملأ فمه المفتوح.

و ضغط اسماعيل على الزر الاحمر ، فسقطت جثة الميت في بئر الحامض ، و اهتز الآخر رعباً و توقعا!

و ضغط اسماعيل على زر الاستنطاق ، فبدأ الاسير يستغيث و يستجدي حالما سمع صوت التسجيل . واصابته نوبة هوس عنيفة ، فلم يجد اسماعيل فائدة من متابعة الاستنطاق على هذا الوحش البشري ، فضغط الزر الاحمر ، و ألحقه بجثة صاحبه ليأخذ حمامه الأخير.

و صعد إلى غرفة نومه ، و فتح قناة الاتصال بغرفة زينة فوجدها في ملابسها الداخلية ، تجري حول المائدة بحركة رياضية ، ثم تتناول حبلا تقفز عليه ، و وقد وضعت على المائدة عدة علب للمأكولات ، و زجاجة ماء معدني ، و فتح الصوت فسمعها تصرخ بملء رئتيها لتطرد شبح العزلة و الانفراد.

و أطفأ الجهاز ، و نزل إلى سيارته قاصدا المطار حيث كان ينتظره طياره إلى جانب طائرة (السييسنا) الصغيرة.

و في منتصف الليل ، كان داخل فراشه النظيف بأطيل (عبر الأطلنطي) بمكناس ، و قد صفا ذهنه ، و نامت العين بداخله قريرة هائلة.

و في الصباح ، اقلعت بهم الطائرة نحو الشمال.

و انتهت الرحلة بعد ثلاثة و عشرين يوما من القفز من مدينة إلى أخرى عبر جبال الريف بالشمال. و عاد اسماعيل ليجد سيارته في انتظاره بموقف المطار.

و بعد أن وضع المهندس أمين ناصر ، بباب فندقه و زبيدة بباب
عمارتها ، توجه نحو داره متوقعا أن يرى ثلاثة أضواء خضراء
على سطحها.

و نزل إلى القبو الأسفل ، مباشرة ، بعد أن أخبر حليلة بوصوله ،
و قصد غرفة الاستنطاق.

و خرج منها بعد ساعة بادی الارتخاء و الارتياح، كأنه وضع
عبئا ثقيلا ، أو تخلص من ألم حاد.

و صعد إلى غرفة نومه ، و قلبه يدق خشية أن يكون حدث شيء
ما لزيينة أثناء غيابه ، و بمجرد دخوله الغرفة ، ضغط على أحد
الأزرار فظهرت غرفة زينة على الشاشة ، و ظهرت هي جالسة
القرفصاء على سريرها ، و رأسها على ركبتيها و كأنها ، في
وضع من أوضاع (اليوغا) الهندية.

و قبل أن يضغط على زر الاتصال ، رفعت رأسها ، و نظرت
حواليها بعينين غائرتين ، نظرات جنونية مذعورة ، و كأنها
شعرت بأحد يراقبها ، و مدت يدها بحركة لا ارادية فغطت ساقها
العاريتين بأطراف قميصها الحريري الطويل.

و ضغط على زر الاتصال ، و نطق محاولا تقليد الادمغة
الاليكترونية الناطقة ليمحو آثار انفعاله الشخصي:

—زينة ، هذا مجرد تسجيل ، لا تحاولي مخاطبتي ، حين
تسمعين رنة الجرس تكلمي . اطلبي ما تحتاجين إليه.

و مس اصبعه فضغط زرا آخر ، سمع على إثره رنين جرس دخل
غرفة زينة ، و كانت هي قد وقفت ، فانسدل القميص على قدميها
، و توجهت نحو جهاز التلفون تنظر إليه ون تحاول الكلام و لكنه
كانت تفتح فمها دون جدوى ، و ارتعشت شفتاها ، و اهتز بدنها
بكامله ، و طفرت دموعها بسرعة . و أخيرا استطاعت أن تهمس
لنفسها:

—يا الهي ! يا الهي ! اسماعيل ؛ أرجوك ، تعال عندي ، أرجوك
، أريد أن أراك ، أريد أن أرى وجهك ، وجه أي بشر حي ! أريد
ان اتحدث إليك ، أرجوك لا تتركني وحدي ، فقد كدت أخرج عن
عقلي ! لقد ظننتك ذهبت و لن تعود إلى الابد . ظننت حادثا ما
وقع إليك ، و بقيت هنا وحدي و الدار مقفلة علي كالمحارة ،
أتذكر ما قلت لي عن انسداد الدار كالمحارة آليا ؟ ذلك ما ظننت .
أنا آسفة إذا كنت أسأت إليك ، لقد ندمت ، و تبت على كل ما قلت
، أرجوك ، سامحني ، أرجوك!

و ركعت على ركبتيهما ، و انخرطت في نحيب مر و هي تردد:

—سامحني ، أرجوك ، لا أريد الذهاب ، لا أريد الحرية ، كل ما
أريده هو الا تتركني وحدي ، إفل بي ما شئت ، و لكن لا تتركني
وحدي ، فأنا أخاف من وحشة الوحدة ، أخاف من أن أكون جنت

!

و رن الجرس مرة أخرى ، و وقف اسماعيل يغالب عواطفه ، و
يحاول السيطرة على اعصابه ليقول وسط البوق بصوت ميكانيكي

محايڊ:

—ستلبى جميع رغباتك الممكنة.

و رن الجرس منها التسجيل.

و بقي اسماعيل مسمرا في موقفه حتى أحس بألم في قدميه ،
فاستلقى على سريره يحاول اتخاذ قرار في موضوع زينة ، و
حين أرهقه التفكير ، استسلم للنوم.

و وجدت زينة نفسها وحدها ، مرة أخرى ، و نهضت متثاقلة من
ركعتها و قد جفت الدموع على خديها ، و تدلى شعرها الأشعث
على وجهها ، فقامت تنظر إلى نفسها في مرآة الحمام.

و أفزعها منظر وجهها في المرآة ، فتراجعت إلى الوراء قليلا ، و
تذكرت صوت اسماعيل ، فعادت تمسح وجهها ، و تجمع شعرها
إلى الوراء ، ثم فتحت ماء الحمام حتى امتلأ الحوض ، فرشت فيه
بعض الزيوت المنعمة المعطرة ، و خرجت من قميصها ، و دخلت
الحوض ، فاحتضنها ماؤه الساخن المعطر ، فاغمضت عينيها و
راحت تحلم بدخول اسماعيل عليها ذلك المساء ، و تحاول تخيل
وجهه الحزين المستطيل ، باسماء و عينيها الواسعتين في عينيها
أثناء لحظات الحب القصيرة التي قضتها بين أحضانها.

و جلست في مكانها فجأة و قد خامرها شك حاد في أن تكون
سمعت صوتا ما في غرفتها.

فماذا كان ذلك ؟

هل كان ما سمعته مجرد سراب عابر في رحلتها الموحشة عبر
هذه الصحراء التي لا شاطئ لها و لا حدود ؟

أم هل كان مجرد بوق باخرة خيالية مرت على بعد من طوفها
التائه في ليل المحيط البهيم ؟

و نظرت من خلال البخار إلى أعلى المرأة ، حيث كانت تسجل
الأيام بأحمر شفاهها بخط عمودي لكل يوم ، و كل أربعة خطوط
عمودية يقطعها خط مائل لتسهيل عملية الحساب و حسبت
المجموعات الخماسية للمرة الألف ، أربعة مجموعات ، و ثلاثة
خطوط عمودية .. ثلاثة و عشرون يوما من الوحدة و الشك
القاتل في أنها آخر من بقي على الارض مدفونا تحت انقاض
زلزال.

و الآن ، لم يبق لها من الأمل في الحياة إلا هذا الصوت
الميكانيكي الذي سمعته عبر البوق داخل غرفتها..و أصرت بكل
قواها على أنه كان حقيقة لا وهما.. و راحت تدلك أطرافها و
تغني حتى تطرد من ذهنها خفافيش الشك الحائمة..

أفاق اسماعيل من رقدته العميقة و نظر إلى الساعة ؛ فإذا هي
السابعة ، و لم يدر هل كانت الساعة السابعة صباحا أو مساء ،
حتى نظر إلى نفسه، فوجد أنه نائم بمجموع ملابسه ، فنهض
يخلع ربطة عنقه ، و دخل الحمام و فتح الماء ليملأ الحوض.

و عاد إلى الغرفة فاتصل بحليمة عن طريق (الانتركوم) ، و طلب منها اعداد عشاء جيد لاثنتين ، ثم ضغط على زر باصبع مترددة ، و وقف ينصت إلى اعادة تسجيل ما قالته زينة حين اتصل بها قبل أن ينام.

و دخل حوض الماء الساخن و هو ينصت إلى استغاثات زينة و استعطافها الدامع المتوسل، فأحس لوحشتها و ذعرها صدى بعيدا في نفسه ، أحس كأنها تعبر عن مشاعر وحدته الهائلة هو الآخر ، و شعر ، و هو يطل عليها من فم الحب المظلم السحيق ، و هي تستنجد و تستغيث ، أنه يقف إلى جانبها في قعر الجب يردد صرخاتها كصداها.

و لبس فوق منامته جلبابا من الصوف الأبيض الخفيف الموشع بالحرير ، و نزل إلى جناح زينة بالقبو الأول.

و طرق بابها ، فسمع شهقة المفاجأة ، ثم حركات يدها على الباب و هي تحاول فتحه دون جدوى، فقد كان يفتح من الخارج فقط ، أما من الداخل فكان لا يفتح إلا بإشارة خاصة من اسماعيل.

و انفتح الباب ، و وقف اسماعيل ينظر إليها و قد زينت وجهها ، و لبست قفطانا أخضر فاتحا خفيفا ، و تحزمت بمضمة حرير ، و وقفت هي تنتظر إليه غير مصدقة ، و قد بدأت عيناها تغرورقان.

و دخل هو و أقفل الباب خلفه، قائلا:

—سمعت نداءك فجئت ، كيف أنت ؟

فطوقته بذراعيها ، و أجهشت باكية:

—شكرا لك ، شكرا على قدومك ! لا تتركني وحدي أبدا بعد الآن
، أرجوك يا اسماعيل ، سأكون أمة طائعة لك ، و جارية ملك
بيمينك ، افعل بي ما تشاء ، و لكن لا تتركني وحدي.

فمسح ظهرها بيديه و هو يقاوم غصة في حلقه:

—لا تخافي ، لن تبقي وحيدة بعد اليوم ، إذا احسنت التصرف.

فقالت و هي ما تزال متمسكة به:

—هل ما زلت غاضبا علي ؟

—لننس ما حدث ، و نبدأ من جديد ، فقد ندمت على ما فرط منك
و اعتذرت.

فقاطعته:

—و عوقبت عليه بالدفن حية!

و قد أشرفت غير ما مرة على الجنون ، و لا أدري كيف بقيت
على قيد الحياة!

همس لها:

—لا خوف عليك بعد الآن ، حين خرجت من هنا لم أكن أفكر في
العودة إليك أبدا ، و سافرت في بعض أعمالتي ، و لا اكتمك أنني
تمنيت في البداية أن اجدك ميتة حين أعود .

فنظرت إليه بعينين حزينتين:

—هكذا. إلى هذا الحد بلغ غضبك علي ؟

و تراجعت فجلست على حافة السرير:

—لقد كادت أمنيته تتحقق.

—كيف ؟

—مرضت في الاسبوع الثاني لغيابك ، أصبت بنوبات من الدوار
و القيء فظننت أنني سأموت ، و حاولت الاتصال بالعالم الخارجي
بكل وسيلة ممكنة ، فلم أفلح. هذه الدار ، حقيقة محارة مقفلة ،
كما قلت ، داخلها مفقود، و الخارج منها كأنه مولود.

فابتسم اسماعيل ليتردد سحابة الغم المعلقة بجو الغرفة، و قال:

—لعل سبب ما أصابك هو أكل المعلبات ، المهم ، من الآن
فصاعدا ، لن تأكلي إلا الطازج من اللحوم و الخضراوات، ابتداء
من الآن.

و نظر إلى ساعته ، و ذهب ففتح باب مصعد المطبخ ، و أخرج الصينية التي نزلت ساخنة لتوها ، و وضعها على المائدة.

و لاحظ تغييرا ما على مظهرها ، و هي جالسة أمامه تأكل ، دون أن يعرف نوعه بالضبط ، فسألها:

—تغيرت ، و لكن لا أدري كيف.

فأشارت إلى شعرها:

—لعله شعري.

فتذكر:

—تماما ، كان مبلولا أو مخرصا ، فماذا حدث له ؟

—غسلته فعاد إلى أصله خيوطا مستقيمة متهذلة.

و لم تخفض عينيها عن وجهه طوال العشاء ، كانت تخشى أن ترمش فيختفي كجني قصص الأطفال ، و كانت تستمتع بأنس وجوده معها و كأنها تعب من ينبوع ماء معين بعد ظمأ طويل.

كانت الغرفة ممثلة به. جاءت معه الموسيقى الحاملة ، و ظهرت الصورة على جهاز التلفزيون بعد أن كان صندوقا ميتا طول غيابه ، رغم محاولاتها المتكررة معه، و جاء العطر ، و الشموع ، و الزهور ، و فوق كل ذلك صوت الرجل ، و رائحة الرجولة ، و

هالة الجاذبية المحيطة به.

و كان يعذبها الخوف من وداعه لها ، و صعوده إلى غرفة نومه ،
ففكرت في أقصر الطرق لاستبقائه.

و حين انتهاء من العشاء ، قامت فأشعلت له سيجارة ، و أمسكت
بيده و جذبته نحو الأريكة ، و جلست إلى جانبه ملتصقة به ، و
قالت:

—الآن يمكنني أن أقول بكل قوة : إنني أسعد امرأة في العالم ،
على الأقل هذه اللحظة.

—حقا ؟ ألا يمكن أن تكوني أسعد بالخارج ؟

فحركت رأسها بنفي قاطع:

—أبدا ، لم أعد أذكر ما هو الخارج ، و لم يعد يهمني ، ما دمت
أنت بجانبني فلن أطلب الذهاب أبدا ، أبدا.

و مالت فطبعت على شفثيه قبلة خفيفة ، فضمها هو إلى صدره ثم
ارسلها فقالت:

—حدثني عن نفسك ، أريد أن أعرف كل شيء عنك.

فلم يزد على أن ابتسم لها ، و نفث دخان السيجارة في الهواء ،
فأضافت:

—إذا أردت . و سأحكي لك أنا بدوري ، كل شيء عن حياتي ،
سأبوح لك بجميع أسراري ، و حتى عقدي و مخاوفي و نقائصي
. و أرجو ألا يبعدك ذلك عني.

و ضحكت و دفنت وجهها في صدره ، و قد عاد إليها بعض
مرحها و ظرفها السابق . و قالت:

—الإنسان يحتاج إلى الانسان ، و خصوصا المرأة ، تحتاج إلى
الكلام ، إلى الاتصال بالناس ، و ليس اعرف مني الآن ، و بعد
هذه التجربة ، بهذه الحقيقة.

و مسحت خده بيدها و قالت:

—ألا تشعر أنت كذلك بهذا الشعور أحيانا ؟ ألا تحس بالحاجة
إلى تفريغ نفسك مع صديق حميم أو صديقة ؟

فمط اسماعيل شفثيه و قال:

—ليس لدي أصدقاء..

فأحست بنبرة المرارة مكبوتة في كلماته فوضعت يدها على
صدره ، قائلة:

—أنا آسفة .. لم أكن أريد إحراجك.

فرد بهدوء:

—لم تخرجيني بالمرة.

فعادت إلى مرحها و قالت متطوعة:

—أنا أكون صديقتك .. فحدثني بجميع أسرارك ، و أفكارك ، و حتى عقدك و نقائصك ، إذا كان ذلك سيريحك... و ستجدي بئرا مغلقة .. و لن أخرج من هنا لأحكي لأحد على أي حال.

و باتا تلك الليلة معا في غرفة نومه.

و في الصباح نزلا للفطور في جناح زينة بالقبو العلوي..
نزلت أمامه طائعة ، و قد حملت تحت ذراعها رزمة من المجلات المصورة ، و الروايات..

و بعد الفطور ، ودعته بقبلة و ترجته ألا يغيب عنها طويلا..

و انشغل اسماعيل بمشاريعه الكبيرة ، المحلية منها والمنتشرة عبر اطراف المملكة ، فكان يعود إلى داره في ساعة متأخرة من المساء فيجد نفسه منساقا إلى جناح زينة ، و كأنه منحدر في أحد أنابيبه دون إرادة .. كان يجدها دائما تنتظره في أبهى زينة و أروق مزاج.. فكانت تصب له كأسا من بيرته المفضلة، و تضعها أمامه ، و تجلس إلى جانبه تؤنسه بحديثها ، و كأنها قضت طول النهار بالخارج.. و حين يسألها من أين كل هذه الأخبار كانت

تشير إلى الراديو ، و الجرائد و المجلات ..

و مرت الأيام ، و أصبحت زينة عادة ثابتة من عاداته .. و لاحظ
أنها تغيرت كثيرا مما كانت عليه منذ دقت جرس بابه .. كانت تميل
إلى نضج الأنوثة و وداعتها بدل الاسترجال الذي جاءت به .. و لم
تعد تلبس السراويل و ملابس " الجين " الخشنة ، و بدأت تمشط
شعرها بطريقة كلاسيكية هادئة .

و لاحظ كذلك نعومة بشرتها و صفاءها ، و هدوء طبعها ، و دعة
نفسها التي كانت تصبغ عليها في نظره مسحة خفيفة من الحزن ،
حين تنهمك في القراءة أو عمل " التريكو . "

و فاجأها مرة تبكي حين دخل مبكرا على غير عادته ، فدخلت
الحمام بسرعة ، و لكنه لحق بها قبل أن تغسل عن وجهها آثار
الدموع ، فأمسك بكتفها ، و نظر إلى عينيها في المرأة :

—مالك يا زينة ؟

—لا شيء ..

و أدارها نحوه ، ونظر إلا وجهها فأسبلت جفنيها :

—مالك ؟

و لم تجب ...

—هل تريدin الخروج ؟

حركت رأسها بالنفي.

—هل هي والدتك ؟ تريدin رؤيتها ؟

—لا..

—ما لك إذن ؟

و انهمرت دموعها ، فرفع وجهها نحوه ، فأغمضت عينيها..
و رن في رأسه جرس مخدر ، فنبس بكلمة واحدة:

—حبلى!

و أحنت رأسها في استسلام

—متى عرفت ؟

—منذ شهرين..

—لماذا لم تخبريني ؟

—لم أكن متأكدة .. ليست لي خبرة كبيرة بمثل هذه الأمور..

و أغمض عينيه و راح يسبح في دوامة لم يعرف مثلها من قبل،
و جاءه صوتها الباكي:

اسماعيل ، هل أنت غاضب ؟

و لم يجب .. لم يكن يعرف الجواب..

و لم ينم يلك الليلة . بات يرقب عقربي الساعة الفسفورين
المضيئين في الظلام و يفكر..

و في الخامسة صباحا، أغمض عينيه على قرار ، و راح يفكر في
سبات عميق.

انتهى الجزء.

دمتم بخير.

الجزء 14:

و في الخامسة صباحا، أغمض عينيه على قرار ، و راح يفكر في
سبات عميق.

و حين عاد من عمله ذاك المساء ، كان الارهاق باديا عليه ، و نظرت إليه زينة بعينين صامتين ، فتفادى نظراتها ، و قصد خزانة المطبخ الصغير ، فأخرج زجاجة صب منها في كأس ، و استرخى على الأريكة يرشف من السائل الذهبي الدافىء و ينتظر مفعوله في عروقه.

و التقطت هي زجاجة البيرة المثلجة ، و أخذتها إلى الثلاجة ، و عادت لتجلس على الجانب الآخر من الأريكة.

و لاحظت معطفه المبتل بماء المطر ، فقالت محاولة كسر جليد الصمت:

—ألا تعطيني معطفك لأعلقه ؟

فعب من الكأس ملء فمه ، وحرك رأسه بالنفي.

—ألا تزال غاضبا مني ؟؟

فركز عليها ، و قد أحس بحرارة الكحول تشع من وجهه:

—إذا كنت تعتقدين أن الحمل سيخرجك من هنا ، فأنت مخطئة.

و أحنت رأسها لتتظر إلى يديها:

—لم تعد لي رغبة في الخروج..

—و لن تخرجي ، على أية حال .. فأنت عرفين اكثر مما هو في
مصلحتك..

—كل ما عرفته في وقت ما.. هو ما قاله لي مجاهد .. و قد
نسيت الآن.

و تنهدت:

—لم أعد أذكر شيئا عن حياتي خارج هذا الجناح.. كل شيء
أصبح في ذاكرتي سرايا و خيالات مهزوزة.. حتى مجاهد.. و كأن
عمرا كاملا يفصلني عنه.. لم أعد أذكر حتى ملامح وجهه..

و سكنت لحظة ثم نظرت إليه:

—و حتى لو أخرجتني فلن أذهب في حالتي هذه ؟ أمي تعيش
في قرية صغيرة بقبيلة " بني كرفط " بالشمال.. و سيسبب لها
ظهوري هكذا حرجا كبيرا بين الناس. و حتى مجاهد لن يقبلني
هكذا.. فهو مغفل كبير.. و معتز برجولته إلى حد الشراسة ،
بحيث لم يأخذ امرأة مسها رجل آخر.. فإلى أين أذهب ؟

و حاولت الابتسام:

—أرأيت ؟ أنت أسيري بقدر ما أنا أسيرتك..

و حين نهض ليصعد إلى غرفته ، لم تلح عليه البقاء..

و في عطلة نهاية الاسبوع بدا على اسماعيل أنه تماثل من
الصدمة و قد ظهر عليه الاسترخاء و حتى بعض علامات
الاغتراب.

و قضى ليلة السبت عند ابراهيم و مريم التي دعت المهندس أمين
ناصر، و زبيدة ، لعلها تثير غيرة اسماعيل من اعجاب المهندس
الشاب بزبيدة و تعجل بالقائها في فراشه..

و أصرت على مناوراتها ، حتى و هي تودع ضيوفها على الباب
.. فقد طلبت من زبيدة أن تأخذ ناصر إلى فندقه ، بدلا من أن
تطلب ذلك من اسماعيل .. و زمت شفيتها و هي تنظر إلى
اسماعيل يركب سيارته ، غير عابىء بما تحكيه حوله...

و اقترب اسماعيل من الغابة القريبة من منزله.. في داخله شعور
غريب بالخوف، أحس كأن عيوننا تراقبه، فأطفأ الراديو، و أخذ
ينظر حواليه ، و قد بدأ جلده يتشوك..

و فجأة ظهرت أمامه صخرتان على حافة الطريق، فداس على
الفرامل ، و مال بسرعة ليتفاداهما ، فخرج له من وراء شجرة
شبح يحمل صخرة على رأسه رمى بها عليه من خلال واجهة
السيارة ، فاخترقت الزجاج و مسحت جانب وجهه الأيمن، و
سقطت على المقعد بجانبه تاركة فجوة كبيرة في الزجاج
الأمامية..

و بجهد كبير استطاع أن يسيطر على السيارة الخارجة على الطريق.. و كانت الحجارة تتساقط على ظهر السيارة ، و تخرق زجاجها من كل جانب، و أصوات الأشباح تتراعى إليه من بعيد صائحة:

—أيها القتال ! أيها السفاح ! اقتلوه .. لا تتركوه يفلت ..

و اختفى خلف زوبعة الغبار التي أثارها خروجه على الطريق المعبد، و سمع اصطداما على مقدمة السيارة.. و ثقلا في حركتها .. و من خلال الغبار و الظلام استطاع أن يميز وجه رجل منبطح على غطاء المحرك يحاول الاحتفاظ بتوازنه، و ينظر إلى يساره فإذا شخص آخر يمسك بمقبض الباب يحاول فتحها و استقحامها عليه، فمد يده ، و ضغط زر الأمان فانقفلت الأبواب الأربعة آليا.. و نظر حواليه فإذا أشخاص آخرون ممسكون بمقابض الأبواب الثلاثة الأخرى، و بسرعة مد يده فضغط على زر تحت لوح المؤشرات، فالتصقت الأيدي المبتلة بالعرق بالمعدن البارد المكهرب بتيار عال، و راح هو يدور بالسيارة في كل اتجاه دورات عنيفة حتى رمى بالشخص المنبطح أمامه، و تأكد من أن صرخات المكهربين قد توقفت ، فعزل الكهرباء و انصت إلى الجثث الأربعة تضرب الأرض ، و أحس بالسيارة يخف وزنها مرة أخرى.

و انطلق نحو منزله مستعدا لأية مفاجأة، و واجه باب الدار، و ضغط زر العين الكهربائية فانفتح الباب الحديدي و دخل بسرعة حتى وقف بداخل المرأب ، وأسكت المحرك، و أطفأ النور، و جلس يلهث لحظة محاولا تصور ما حدث.

و أحس بقطرات الدم تنزل ساخنة على صدره من ذقنه، فوضع كفه على خده ، فأحس بألم الجرح، و تناول رزمة مناديل الورق من صندوقها إلى جانبه، و وضعها على خده، و فتح خزانة الأوراق، فأخرج منها مسدسا و خرج متوجها نحو الباب الخارجي.

و كان الحارس العجوز ، قد أفاق منزعا من زعيق العجلات مع الأرض، فخرج ليرى ما يجري ، و فوجيء باسماعيل شاهرا مسدسه يحاول اختراق ستار الظلام بعينيه النمريتين.

و في حمام غرفة نومه، نظر إلى الجرح في المرأة، و رش عليه مطهرا من زجاجة رشاشة و غطاه بضمادة، و راح يخلع ملابسه شاعرا بخفة و نشوة شادتين، لأول مرة كانت العين الكبيرة داخل دماغه تبتسم؛ بل ربما كانت تضحك بالدموع تشفيا من فشل القتلة. لابد أنهم سيحاولون اقتحام الدار عليه، و سيستقبل هو كل واحد منهم بقوله: " هيت لك ! " و سوف يعتصرهم واحدا واحدا من كل ما يعرفون، قبل أن يلقي بهم للسائل الجائع ليمص لحومهم، و يمش عظامهم.

و فكر هل ينادي الشرطة و يخبرهم بما حدث. و قد يؤدي ذلك إلى تسليط الضوء عليه، و بالتالي على داره و مشاريعه الأخرى، و ربما تسرب ذلك إلى الصحافة.

و من جهة أخرى ، إذ لم يخبر الشرطة فربما عثرت بنفسها على أثر يشير إلى ما حدث الليلة ، و لن يجد شرحا شافيا لصمته.

و في النهاية قرر أن يعزف أوتاره بالسمع، فرفع السماعة، و نادى مركز الشرطة ، و سأل عن البعيد، فقليل له إنه في بيته، و حين سأل ضابط الحراسة عن سبب المكالمة، أخبره بأنه كان يود أخبار العميد بحادث اعتداء تعرض له الليلة، و سأل الضابط:

—هل أصبت بشيء ؟

—جرح خفيف.

—هل تعرفت على المهاجمين أو احدهم ؟

—كان الظلام كثيفا.

فانهى الضابط المكالمة بوله:

—إذا لم يكن هناك ما يدعو للاستعجال من طرفك، فسنبعث بضابط تحقيق غدا إلى عين المكان، و يمكن أن تدلي له بالمعلومات.

و وضع السماعة.

و لم يأت أحد في اليوم التالي، و لا الأسبوع أو الشهر الذي بعده.

كان اسماعيل يعرف " خروب بلاده " ، فخاطب ضابط الشرطة بلهجة مؤدبة هامسة حتى لا يوقظه من سبات تخلفه الثقل.

و لحسن حظه ، لم يترك المهاجمون وراءهم أثرا يذكر ، و لم يتوقعهم أن يفعلوا فالكوماندو لا يترك جثث صرعاة على أرض المعركة.

و مع خيوط الفجر الأولى، ايقظته ساعة الراديو بموجة من الموسيقى ، فتدثر بمعطف صوفي و صعد إلى السطح ، فكشف الغطاء عن منظر مقرب في حجم مدفع صغير يستعمله لمراقبة الكواكب، و وجهه نحو ميدان معركة أمس، و أخذ يمسح الأرض الندية حبة حبة، حتى أثر العجلات، و مساحب الأقدام، و شظايا الزجاج ، مسحوها قبل أن ينسحبوا..

و تساءل : " لصالح من يعملون ؟"

و ترك الجواب للأيام.

و نزل إلى الحديقة ، فقطف بعض الزهور، و قد أحس بخفة غير عادية و بفيض من الأريحية نحو زينة، فأخذ الزهور إلى جناحها.

و حين رأت الضمادة على جانب وجهه، شهقت، و وضعت يدها على فمها:

—ماذا جرى ؟

فناولها الزهور، و قبل خدها:

—لا شيء. حادث سيارة بسيط.

—ماذا تعني ، حادث بسيط ؟ لقد كاد يذهب بنصف وجهك.

—تأكدي أنها مجرد خدوش سطحية لن تترك أثرا يذكر . هل أعجبك الزهور ؟

فنظرت إليها و كأنها تراها لأول مرة:

—هل هي لي ؟

—هي لكما معا.

و أشار إلى بطنها ، فابتسمت من تحت سحابة من الكآبة.

و عز عليه أن يراها كذلك فقال:

—تعالى نصلد إلى السطح ، اليوم الأحد ، و ليس لي التزام ، إلى جانب أن الأم و صغيرها يحتاجان إلى الهواء الطلق، و أشعة الشمس.

و على السطح وجدت نفسها تحت قبة زجاجية دافئة تغطي المسبح و المقصف و تحجب برد فبراير القارس.

و وقفت هي تنظر بشوق إلى الأفق الغربي ، و قد تراكضت الغيوم المثقلة السوداء آتية من المحيط نحو المدينة، و وقف هو خلفها

ينظر إلى سياط البرق تشق بطون الغمام على مرمى البصر، و
يصيح إلى هزيم الرعد الذي يأتي خافتا من بعيد.

و أمسك بكتفيها ، و الصق صدره بظهرها و قال:

—قريبا ستمطر ، تعالي نعد الفطور.

و على المائدة جلست هي تحتسي قهوتها صامتة مطرقة ، فسألها
:

—فيم تفكرين ؟

و بقيت مطرقة ، فأعاد السؤال:

—شيء ما يشغل بالك ؟

فرفعت رأسها:

—إذا قلت لا شيء، سأكون كاذبة. و من جهة أخرى ، لا أريد
تعكير صفوك هذا الصباح ، فلم أرك بهذه السعادة و المرح من
قبل.

فقال باسم:

—لذلك ينبغي أن تستغلي الفرصة و تطلبي ما تشائين. فأنا في

حالة أريحية قد لا تتكرر.

و ابتسمت زينة و قالت:

— لا مطالب لي بالمرّة. مبدئيا حياتي مكفولة، و ليس لي مسؤولية على شيء.

— فماذا يقلقك ؟

— ما قلته لي مرة من أن هذه الدار محارة تسد آليا، و لا يستطيع أحد النفاذ إليها!

— هذا صحيح ، فماذا يقلقك منه.

— هذا الحادث الذي تعرضت له خارج الدار ؛ ماذا كان سيجري لي لو قدر الله أن أصبت بسوء ؟

— لا تقلقي، يا عزيزتي بالمرّة من هذه الناحية . في حالة غيابي النهائي هناك وصيتي بالبنك، و معها جميع أسرار هذه الدار، و مفاتيح أرصادها الاليكترونية.

و توقف ثم سأل:

— هل هذا كل ما يقلقك ؟

فتنهدت ، و قالت:

—ما يقلقتني بطريقة أعمق هو هذا.

ووضعت يدها على بطنها و أضافت:

—هل سيولد سجيناً، و يعيش سجيناً ؟

—اطمئني من هذه الناحية كذلك. فقد اعطيت الموضوع تفكيراً طويلاً. الوضعية التي نعيشها الآن مؤقتة و عابرة، و سوف تنتهي بمجرد انتهاء أسبابها و سأخبرك بكل شيء في حينه ، إتفقنا ؟

و قام فمد يده لها.

—تعالى نلعب مع بعض تنس الطوالة، فأنت في حاجة إلى تمارين رياضية.

و بعد بضع دقائق من اللعب المجهد، اظلمت السماء حين اطبقت الغيوم الكالحة على المدينة، و سطع البرق باهراً خاطفاً، فتوقف الاثنان عن اللعب، و خافت زينة فالتجأت إلى اسماعيل الذي ضمها إليه، و وقفا يتوقعان انفجار الرعد الهائل الذي لم يلبث أن هز المبنى من تحتها.

و انفتحت أبواب السماء بوابل من المطر الطوفاني، خشيت معه زينة أن يخترق القبة الشفافة. و لكن اسماعيل كان أكثر ثقة بسقفه منها فأخذ يحثها على النظر إلى البحر الهادر فوقهما دون

أن يصيبهما ببلل.

و نظرت إلى وجهه، و هو منشغل عنها بالنظر إلى الماء الهابط،
فرأت في ملامحه براءة الأطفال، و شقاوة الغلمان، و تمنّت لو
بقي كذلك مقطوع الصلة بماضيه و أحداثه التي شوّهت نفسه.

و حين خف انصباب المطر، و لم يبق منه إلا رذاذ خفيف أحس
الاثنتان براحة داخلية عميقة، و تنهدت زينة بصوت مسموع، فقال
اسماعيل:

—هل اشتقت إلى المطر أنت كذلك ؟

فحركت رأسها بنعم:

—في صباي كنت أقف تحته حتى يصل الماء إلى عظامي.

و رن جرس التلفون فأسرع اسماعيل يلتقط السماعة:

—السيد العميد، كيف حالك ؟ نعم. حادث اعتداء مؤكد. لابد أنها
عصابة. لا. جروح خفيفة لا أدري. ربما كانوا يريدون السرقة .
لا، لم أميز أحدا. كان الظلام حالكا. شكرا، مع السلامة.

—قلت لي كان حادثا ، و ليس اعتداء عصابة.

—ما الفرق ؟ النتيجة واحدة.

فسألت بخشينة و ارتياب:

—هل كان من بينهم مجاهد؟

فارتفع صوته قليلا:

—أكيدا ، لا.

—ولكن لم تميز منهم أحدا.

—و لكني متأكد من أن مجاهد لم يكن معهم، فقد ذهب و لن يعود.

و أضاف مصححا:

—و عدني ألا يعود.

فقالت بشفتين مرتجفتين:

—هذا عمل شبيه بأعماله . مجاهد عنيف الطبع، و يرفض الهزيمة.

—قلت لك ليس هو. فاطمئني على مجاهدك.

و أحست هي بنبرة الغيرة في صوته، فأسرعت نحوه:

—لم أقصد. لم أقصد ما تظن. أرجوك ألا تفهم ذلك.

و وضعت يدها على صدره و نظرت إليه من تحت:

—أنا أخاف عليك أنت.

فنظر إلى عينيها الخائفتين من غضبه ، و قال:

—إذا كنت صادقة ، فلا تذكر لي اسمه بالمرّة.

فوضعت وجهها على صدره:

—لن تسمعه مني أبدا.

و في صباح اليوم التالي ، الاثنين ، مر على مكتبة فاشترى عدة كتب و مجلات مصورة من بينها كتاب بعنوان : " الحمل و الوضع بدون ألم " ، ثم مر على بائعة أصواف واشترى بضعة كبات من عدد من الألوان ، و أدوات عمل التريكو ، و خرج نحو سيارته ، و على بعد رأى زبيدة جالسة في سيارتها بمحاذاة الرصيف، و شخصا يمسك ببابها و يتكلم معها، و هي تريد اقفال الباب.

و خاف أن يكون محتالا أو ثقيلًا يضايقها، فذهب إليها، و بمجرد ما رآه الشخص، رفع يده لها ابالتحية، و ساعدها على اقفال الباب و ذهب.

و ابتسمت زبيدة في وجهه ، حين سألها:

—من كان ذلك ؟ عاشق متيم يريد احتلال قلبك بالقوة ؟

—لا، ليس لي مثل ذلك الحظ ، إنه زبون. من النوع الذي يعطي القضية للمحامي، و لا يثق في كفاءته، فيطارده بالنصائح و الفتاوي .

و لاحظت الضمادة على وجهه :

—ماذا حدث لك ؟

—حادث سيارة بسيط . سأقول لك عنه حين نلتقي.

ودعها ، و مر على الخزانة العامة، فاستعار جزءاً من دائرة المعارف الطبية يحتوي على قسم الحمل ، و الوضع ، و التوليد ، فأخذه ، و عاد بهداياه إلى زينة التي استقبلتها بسرور الطفلة يوم عيد ميلادها.

و بعد يومين أخبرت الصحافة بمقتل أربعة اشخاص صعقا بالكهرباء، لسقوط أحد أسلاك التيار العالي عليهم في إحدى ضواحي المدينة.

و ابتسم اسماعيل و هو يقرأ الخبر ، و تعليق الصحيفة اللاذع على إهمال عمال الكهرباء الاجرامي.

و أقفل الصحيفة مفكرا في أن محاولة اختطافه أو اغتياله هذه ،
لن تكون هي الأخيرة و أن عليه أن يسبقهم بالاحتياط و الحذر .

و مرت الأيام .

و ثقلت زينة ، و أشرفت على الوضع ، و سمح لها اسماعيل
بالصعود وحدها إلى المطبخ لاستعمال أدوات الرياضة ، و الحركة
في الهواء الطلق ، و كانت تشعر في حالتها تلك القناعة و الرضى
بالواقع ، فلم يلمس منها ثورة أو تمردا .

و جاءها المخاض ، فنادت إسماعيل الذي كان في مكتبه يشتغل
بعد العشاء ، فأعدها للولادة ، و لبس حلة معقمة كان يحتفظ بها
لهذه المناسبة .

و سارت الأمور كما تدربا عليها عدة مرات ، و من أجل طمأننتها
و تهدئة أعصابها ، وضع جهاز التلفزيون بجانبه ، و رقم أحد
أصدقائه الأطباء جنب الجهاز ، و راح يشجعها على التنفس
العميق و الدفع ثم الاسترخاء .

و في أقل من ساعتين ، رن في الغرفة صوت صبية وردية اللون ،
كاملة الخلقة ، فرفعها من قدميها ، كما يفعل الأطباء لتراها أمها ،
و ضرب على ردفها في ثقة بمعارفه الطبية .

و نام تلك الليلة على الأريكة في جناح زينة ، و بات يحاول تحليل
مصدر الخفة التي كان يجدها في قلبه ، و يتساءل هل ستكون لهذه
التجربة نتائج ما على مجرى حياته .

و قضى الأسبوع كله مع زينة، يساعدها على العناية بالمولودة
التي كانت تقضي أغلب وقتها نائمة.

و في اليوم السادس طلب من زينة أن تحمل الطفلة و تصعد بها
إلى السطح . و من هناك قادها إلى حيث أطلت على كبش أبيض
ذي وجه أسود و سألها:

—ماذا تريدان تسمية الطفلة ؟

و اغرورقت عيناها تأثرا و هي تنظر إلى الكبش الفاره ، و
اقتربت حتى لامست بكتفها كتف اسماعيل ، و قالت:

—فكرت في تسميتها بأسماء . اتعرف لماذا ؟

—لماذا ؟

—لأن " أسماء " هو نصف اسمك ، إسماعيل.

و في صباح الغد ، اشرفت في نفس المكان على الحارس و هو
يذبح الكبش و إسماعيل و حليلة يساعده.

و خرجت زينة من تجربتها رزينة هادئة، و استرجعت قوتها على
الحركة بسرعة، و كان باديا أنها وجدت الهدف من حياتها ، و أن
سفينتها رست على بر الأمان.

على العكس من حالته هو ، فقد كان يشعر بأن فترات الراحة و الاسترخاء التي كان يجدها بين استنطاق و آخر أخذات تقصر ، و بأنه أصبح معتمدا في صحته النفسية و توازنه العاطفي ، على لحظات القسوة السادية التي كان يقضيها مع أسراه.

و اقلقه شعور غامض بأن اللصوص بدأوا يحسون بما كان يحدث لزملائهم داخل الدار ، رغم أن أحدا لم ينج ليحدثهم بما رأى ، فبدأوا يتجنبون الدار، و لم يعد يقع منهم في فخه إلا العابرون ، و الأفاقون و الرحل من غير أبناء الدار البيضاء ، فكان أحيانا يمر أسبوع كامل دون أن يرى الضوء الأخضر من سطح فندقه المفضل.

و قضى عدة ليالي يفكر في الخروج من هذا الركود. و ايقظه الحل في منتصف ليلة ، و كان عقله الباطني كان يبحث عنه حتى وجده.

الحل يكمن في تحطيم الأسطورة ، أسطورة الدار المسكونة أو الملعونة ، الدار القبر التي ما دخلها أحد و خرج منها حيا أو ميتا !

و في تلك اللحظة أشعل النور ، و مد يده إلى جهاز المراقبة الاليكتروني.

و في صباح اليوم الثاني تعمد إخراج حقيبتة ، على غير عادته ، ليضعها في صندوق السيارة أمام الباب الخارجي تحت أعين جميع المارة ، ليشتيع أنه مسافر.

و فعلا ذهب في رحلة تفتيش أخذته إلى أكادير ، و مراكش ، و
مكناس ، و فاس ، ليشرف على سير الأعمال.

و في غرفة فندقه بمكناس ، آخر مراحل تفتيشه ، رن جرس
التلفون من عميد الشرطة بالبيضاء ليخبره بحادث مؤسف وقع
في منزله ، و انقبض قلبه خشية أن يكون أمر زينة انكشف أو
أصابها و الطفلة مكروه.

و لكن قلبه انشرح بعد بأن أخبره العميد بأن داره تعرضت لسرقة
كبيرة ، و حريق مهول.

انتهى الجزء.
دمتم في أمان الله.

الجزء 15:

و لكن قلبه انشرح بعد بأن أخبره العميد بأن داره تعرضت لسرقة
كبيرة ، و حريق مهول.

—هل أصيبت حليلة او ابا الجيلالي بسوء ؟

—لا ، لم يصب أحد بسوء ، فلا تقلق.

—يا إلهي ! الحمد لله ، هل قبضتم على الفاعل ؟

—لم نعرف حتى أخبرنا المطافىء ، و لو كنت قبلت وضع
الحراسة في شارعك ، لما حدث هذا.

—أنا آسف ، سأعود حالا، و نتحدث.

و شكر العميد ، و وضع السماعة.

و في داره ، نزل رأسا إلى القبو حيث كانت زينة و الطفلة ليطمئن
على حالهما . و لقيته زينة بترحابها الباسم ، و السؤال عن
صحته ، و نتائج رحلته ، كأن شيئا لم يقع في الجزء الاعلى من
الدار التي تسكنها ، و فضل هو أن يتركها جاهلة بما حدث حتى لا
تنزعج ، و انصرف إلى صغيرته يناغيها و يقلب فيها وجهه تقلب
وجه العابد في السماء.

و رن التلفون من العميد فصعد إلى الصالون الكبير لانتظاره.

وقفت حليلة و الحارس أبا الجيلالي خائفين مرتجفين أمام
اسماعيل و هو ينظر إلى بقايا أثاثه الثمين ، و آثار الحريق على
الأرض ، و الجدران و الأستار فوق التحف ، و الزرابي و غيرها.

و وقف العميد على الباب ينظر إلى اسماعيل نظرة سخرية و
عطف:

—هذه هي الدار المحصنة ضد السرقة ؟

فمد اسماعيل يده مصافحا مبتسما:

—الكمال لله.

—هل لك تأمين؟

—لا أتحرك بدونه.

و وصل ابراهيم صحبة زوجته مريم و زبيدة ، و معهم سلال
الشاطائر و المشروبات و الفواكه للغذاء معه و تهوين الحادث
عليه.

و طول الغذاء ، كان الجميع يتسائلون : " السرقة معقولة ، و
لكن الحريق " !

و شرح العميد:

—هذا قد يدل على حقد قديم.

فالتفت إليه اسماعيل ببراعة الطفل:

—لا أعرف أحدا فعلت به ما يجعله يحقد علي هذه الدرجة.

—لا أعني الحقد الشخصي ، بل الحقد على هذه الدار التي لم
يجدوا إليها سبيلا من قبل.

و علق ابراهيم:

—و هناك المخربون من اللصوص الذين إذا لم يستطيعوا حمل شيء كسروه و أفسدوه.

فقال العميد:

—هذا هو أخطر أنواع اللصوص ، فهو لا يسرق للانتفاع بقدر ما يسرق لحرمان اشخص الآخر و إذايته . و هم لا يترددون في قتل من يعترض سبيلهم أو يوجد في المكان عند دخولهم.

و علق اسماعيل:

—لابد أن الفاعل أو الفاعلين من غير سكان المنطقة . علاقتي بهؤلاء طيبة للغاية ، فأنا لا أرفض لهم طلبا في التوظيف أو التوسط أو المساعدة المالية ، و لا أعتقد أنهم يتجرأون على عمل كهذا.

و لم يزد العميد على أن قال:

—سنعرف قريبا.

و حدث ما توقعه اسماعيل ، شاع خبر السرقة و الحريق بين سكان مدن القصدير القريبة و البعيدة ، وقبل أن يصل إلى الصحافة ، و تحطمت أسطورة الدار المسكونة ، و المنزل المقبرة

. و بدأ أهل و أصدقاء المختفين يبحثون عن شروح أخرى لغياب المتغيبين من أبناهم اللصوص.

إلا أن الأضواء التي ألقته شهرة السرقة و الحريق على الدار أبعدت عنها المقتحمين مدة جعلت اسماعيل يشك في صواب الحل الذي اختاره.

و أسرع بإصلاح الدار و إعادة تأيثها ، و رص التحف على رفوفها ، و إضاءتها لتصبح طعاما مغريا للعيون المطلة من فوق الأشجار المجاورة بالليل.

كان يعزيه عن فشل خطته قرب انتهاء اشتغال البناء بالمنازل الاقليمية ، فراح يستعجل المقاولين و يسافر للوقوف بنفسه على اللمسات الأخيرة صحبة أمين ناصر.

و من رحلته الثانية عاد مشتاقا إلى طفلته الصغيرة التي بدأ الشبه بينها و بين طفلته من (كارين) يظهر بشكل ملحوظ.

و في غرفة نومه ، نظر إلى صورتها و هي في تلك السن ، فوجد أن الشبه تعدى الطفلتين إلى والدتيهما ، و كلما زادها نظرا زاد الشبه عمقا و وضوحا.

فهل كان ذلك شبها حقيقيا ، أم سيكولوجيا ، اسقاطيا ، لا تراه العين المحايدة ؟

و في صباح الغد أخذ بعض الأوراق و ذهب ليرى زبيدة في

مكتبها بمؤسسة ابراهيم القانونية.

و رفع يده ليطرق الباب فأوقفه صوت جدل مكبوت بينها و بين رجل ، كلاهما حريص على عدم رفع صوته ، و تظاهر بالتوقف لمراجعة الملف و الانصات لعله يسمع شيئا . و فجأة انفتح الباب في وجهه فجاءه صوت زبيدة واضحا:

—لا تكن مجنونا!

و خرج من المكتب نفس الرجل الذي رآه يتحدث إليها ممسكا بباب سيارتها في الشارع و هي تحاول التخلص منه.

و فوجئت هي برؤية اسماعيل فزاد وجهها شحوبا ، و لكن سرعة بديهيته المعهودة لم تترك مجالا للتردد ، فأشرق وجهها بابتسامة و قالت مرحبة:

—إسماعيل ، ادخل ادخل.

و أقفلت الباب ، و بادرت إلى شرح الموقف:

—كل يوم ازداد اقتناعا بأن هذه المهنة لا تصلح للنساء.

—لماذا ؟

—لأنني أشعر أحيانا بالرغبة في استعمال قبضتي بدل لساني.

و جلسا يضعان اللمسات القانونية الأخيرة على أوراق المنازل
الاقليمية و يدرسان الترتيبات النهائية لحفلات التدشين ، و توزيع
الدعوات بالداخل و الخارج.

و مر أسبوعان لم تتكلم فيهما الصفحات الاجتماعية لصحف البلد
إلا عن حفلات تدشين تلك المنازل المستقبلية البديعة الصنع . و
عن عمال الأقاليم و الأعيان و هم يفتتحون عرض النماذج الأولى
للمنازل الشمسية المستقلة ، و يقطعون الأشرطة ، و يصافحون
اسماعيل و أمين ناصر ، مهنئين و متمنين للمشروع النجاح.

و ظهرت زبيدة في عدد من الصور الصحفية ممسكة بذراعي
اسماعيل و أمين ناصر ، و على وجهها ابتسامة سعادة مشرقة.

و عادت الجماعة بعد انتهاء حفلات التدشين مرهقة و لكن سعيدة
راضية.

و في صباح اليوم التالي من عودة الفريق إلى الدار البيضاء رن
جرس التلفون في غرفة اسماعيل ، فإذا بزبيدة تخبره بصوت باك
بالحادث المروع الذي ذهب ضحيته المهندس السعودي الشاب ،
أمين ناصر.

و قالت له أنه رمى بنفسه من نافذة غرفته بالدور الحادي عشر
بالفندق.

و جلس اسماعيل يحاول أن يبتلع ما قالته زبيدة آملا أن يكون
مجرد كابوس أزعجه في نومه:

—و لكن لماذا ؟

—لا أدري . أنا نفسي لا أكاد أصدق ، كان بالأمس في منتهى
السعادة.

و قام فأسرع إلى مركز الشرطة حيث وجد زبيدة ، و ابراهيم ، و
مريم في غرفة العميد.

و سأل اسماعيل العميد:

—هل هو انتحار مؤكد ؟

—وجدنا الباب مقفلا من الداخل ، و لا أثر لعراك أو سرقة.

و لكن ما هو الدافع ؟

فعلقت مريم:

—كان يطير سرورا بالأمس ، طول الطريق و هو يغني في
الطائرة.

فنظر إليها العميد نظرة المجرب و قال:

—رأس الانسان هو الثلث الخالي . لا أحد يعرف ما يجري فيه.

و قام ابراهيم بالواجب المر لاخبار عائلته ، و بالاجراء ات
القانونية و القنصلية لنقل جثمانه إلى بلده ، و سافر معه
اسماعيل صحبة أفراد عائلته لحضور الجنازة.

و طول طريق العودة كان يتساءل : " هل كان أمين يحب زبيدة ؟
هل طلب يدها تلك الليلة فرفضت ؟ هل كان حبه لها بهذا العمق و
العنف ؟ أم هل قتله أحد ؟ رماه من النافذة حتى يغطي الجريمة
بشبهة الانتحار ؟ »

و في طريق عودته من المطار لاحظ ضوء ا أخضر على سطح
المنزل فخفق قلبه.

و في الدار وجد رزمة من الرسائل تنتظره ، فجلس على الأريكة
في جناح زينة يحتسي قهوة و يتصفحها ، و يقرأ المهم منها . و
عندما انتهى ، وقف ليصعد إلى غرفة نومه ليأخذ حمام و يستريح
.

و حين خرج ، لاحظت زينة غلافا بنيا في شق بين وسائد الأريكة
فالتقطته ، فإذا هو رسالة نسيها اسماعيل.

و حاولت لفت انتباهه بالنقر على الباب لعله يعود فتسلمها له ، و
لكنه لم يسمع ، و وقفت تقلبها بين يديها فلم تجد عنوان المراسل
، أما اسم و عنوان اسماعيل فقد كانا مكتوبين بخط مكعب و كأنما
اراد كتب الرسالة إخفاء خطه الحقيقي.

و وضعت الرسالة على الطاولة و استغرقت في التفكير ، هل

تفتحها ؟ ليس من حسها ذلك و ابتسمت لنفسها : ما تزالين تعيشين بمنطق العالم ، منطق الناس ؟ لست في العالم ، و لا من الناس ! هل من حقه أن يحبسك هنا كحيوان غريب ؟! وتناولت الرسالة بيد مرتعشة ثم اعادتها إلى مكانها . ماذا لو وجدها مفتوحة و غضب ؟

و طغى عليها الفضول النسوي ، و حب الاطلاع على ما يجري في العالم حولها ، فتناولت الرسالة ، و أخذتها إلى المطبخ الصغير ، ففتحت صنبور الماء الساخن ، و عرضت ظهر الرسالة لبخاره حتى لان ، ففتحته بعناية و أخرجت الرسالة ، و ذهبت لتقرأها تحت ضوء الصباح و لم تكد تتمتها حتى امتقع لونها ، و أخذت فرائصها ترتعد بقوة ، فوضعتها على المائدة ، و مسكت بحافتها و وقفت تنظر إليها كنظرتها إلى أفعى مسمومة لذغتها.

و حين عاد اسماعيل في المساء ، أحس بمجرد دخوله عليها أن شيئاً ما خطيراً حدث ، اخرجها دخوله من شرودها ، فرفعت إليه وجهها شديد الشحوب غائر العينين.

—ماذا حدث ؟

و توجه نحو مهد الطفلة فوجدها نائمة ، و وقفت هي تنظر إليه دون أن تجيب ، و قبل أن يكرر السؤال ، لاحظ الرسالة فوق المائدة ، فتناولها.

—هذه الرسالة من أين جاءتك ؟

—نسيتها أنت هنا . و سقطت منك بين وسائد الأريكة.

فوقف يلتهم سطورها بسرعة:

"اكتب إليك باسم عصابة طنجة . العصابة التي سرقت دارك
هناك و قتلت زوجتك و بنتك .

نحن نعرف سرّك . فلا تضيع وقتك . لن يقع أحد من أفراد
العصابة في فخك . نحن نستعمل دارك لتنفيذ أحكام الاعدام في
أفراد العصابات المنافسة لنا . و لنا لائحة باسماء جميع الذين
دخلوا الدار الم"سؤومة و لم يخرجوا . فإذا كنت صنعت الفخ
للانتقام منا ، فقد فشلت خطتك . بل اصبحت مجرما مثلنا . لا فرق
بيننا و بينك ، أنت قتال خارج على القانون تقتل صغار اللصوص
من أبناء الشوارع و المحرومين من المدارس ، و العمل ، و
الحياة العائلية السعيدة ، الذين لم يبق امامهم إلا السرقة . لم
يترك أمثالك من اللصوص الكبار امامهم إلا الجريمة ! بل أنت
ألعن و أقسى و أشد إجراما منهم لأنهم يسرقون ليعيشوا ، و
ليعولوا أمهاتهم و أخوانهم الصغار ، و انت تقتل لمجرد لذة
الانتقام.

لذلك قررنا محاكمتك و مطالبتك بفديات جميع الذين وقعوا في
فخك و لم يخرجوا . و ذلك حتى نعوض عائلاتهم التي فقدت فيهم
مصدر عيشها الوحيد . عليك أن تدفع لنا سبعة و ثلاثين مليون
سنتيم بأوراق من العشرة آلاف سنتيم تضعها في حقيبة . و
سنخبرك أين تضعها غدا في مثل هذا الوقت.

لا تحاول حيلة من حيلك ، و إلا تحملت مسؤولية إخراج المسألة
من وسطها (العائلي) إلى مكاتب الشرطة و الصحافة ، و تسببت
في انهيار إمبراطوريتك المالية على رأسك "

و جمدت يد اسماعيل على الرسالة حتى ابيضت أصابعه من
الضغط عليها ، و لم يدرك كم بقي واقفا في ذلك الوضع ، حتى
أحس بالدم ينحسر عن مخه ، و بضعف شديد في بدنه ، فهوى
على الأريكة و قد دق قلبه بعنف.

و وقفت زينة تنتظر إليه ملتصقة بالحائط ، لا تدري ما تفعل ، و
كأنها تنتظر إلى قنبلة أو شكت أن تتفجر دون أن تستطيع الفرار.

و جاهد ، في غمرة انهياره ، للخروج من مفعول الصدمة ، و
انتصب جالسا و ألقى نظرة أخرى على الرسالة الجهنمية التي
كانت مكتوبة بخط تكعبي لا أثر لشخصية الكاتب ، و بكلمات
مقصوفة من الجرائد.

انتهى الجزء.
دمتم في أمان الله.

الجزء 16:

و أحس بالظما فقام إلى الحمام و رش وجهه بحففات من الماء
البارد ، ثم شرب من كفه حتى ارتوى ، و وقف يمسح وجهه و
يديه و ينظر في المرآة إلى عينيهِ الواسعتين الذكيتين فعادت إليه

الثقة و الهدوء.

و خرج ينشف وجهه و يديه في فوطة وينظر إلى زينة التي كانت
تحملق فيه بتوقع صامت.

و أخيرا كسر الصمت بقوله:

—قرأت الرسالة ؟

فحركت رأسها معترفة ، و أضافت:

—ماذا تنوي أن تفعل ؟

فعاد يلتقط الرسالة ، و ينظر إليها:

—لا أدري..

فتجرات على سؤاله:

—أحقا ما كتبوا ؟

فنظر إليها طويلا .. ثم قال:

—لا فائدة من الإنكار . أليس كذلك ؟ فقد كان رد فعلي اعترافا لا
يخفى على أبسط الناس..

و جلس على الأريكة ، و أشار إليها لتجلس ، و أضاف:

— و لكن عاجلا أو آجلا كنت ستعرفين .. كنت سأحكي لك عن كل شيء..

و مرت لحظة صمت ثم استأنف:

— ما قالوه عن اختفاء اللصوص في هذه الدار صحيح .. و لكنهم لا يعرفون كيف يختفون.. و لن يجدوا جثثا في قبور ولا هياكل عظمية في دواليب..

فسألت آملة أن يكون الجواب بالايجاب:

—قلت لي مرة أنك تبعث بهم للعمل بالخارج . و تشترط عليهم عدم الاتصال بأصحابهم القدماء . فهل ذلك هو سبب الاختفاء ؟

فتنهذ اسماعيل . و حرك رأسه نافيا:

—أخشى أن ذلك لم يكن حقيقة .. فبذور السوء لا تنبت إلا شرا مهما غيرت لها التربة .. لذلك لم يبق إلا اختيار واحد .. تخلص المجتمع منها إلى الأبد..

و وقف . و قد أحس بخفة كبيرة بعد أن وضع هذا العبء الذي ظل يثقل كاهله وحده أزيد من سنتين . و مشى إلى جانب الغرفة المقابل . و واجه زينة و كأنه يخاطب قاضيا:

- في البداية كان الدافع رغبتني في القبض على العصابة التي قتلت زوجتي و ابنتي ، و الانتقام من أفرادها ، لاقتناعي بتخلف جهاز الشرطة و العدالة ، و عجزهما عن ملاحقة المجرمين.. و قد صدق حدسي .. فحتى الآن لم تقبض العدالة على أحد من أفراد العصابة .. و باستنطائي لعشرات اللصوص الذين وقعوا في قبضتي هنا، أدركت أن أي واحد منهم كان يمكن أن يكون عضوا في تلك العصابة.. كانوا جميعا ، إما قتلة بالفعل أو بالقوة.. و قد حاكمتهم بمقياس أدق من مقاييس وزارة العدل و أقربها إلى منطق العصر..و أصدرت أحكاما ردتهم بصفة نهائية.

فسألت زينة مشفقة عليه:

— ماذا لو اكتشفت الشرطة هذه ، ماذا لو اخبرتها العصابة صاحبة الرسالة ؟

فابتسم واثقا من جوابه:

—عندي شعور قوي بأن رجال الأمن يعرفون ما يجري بهذه الدار و يباركونه..

و قد أخبرني عميد الشرطة بأن الجريمة انخفض معدلها في هذه المنطقة التي كانت موبوءة باللصوص ، و القتل ، و قطاع الطرق ، منذ بناء هذه الدار.. و قد شجعني ذلك على بناء منازل أخرى في جميع الضواحي المماثلة في المدن الأخرى.. هل تتصورين أبعاد هذه التجربة على مستقبل الأمن في بلادنا ، و العالم أجمع ؟

فسألت زينة بنبرة سخرية خفية:

—أتعني أنك تريد القضاء على الشر في العالم ؟

—و لماذا لا ؟ تصوري نيويورك و شيكاغو ، و روما ، و لندن ،
و غيرها من العواصم خالية من عصابات المافيا و الارهابيين ،
و اللصوص و المجرمين ..

—هذا حلم جميل.. و لكنه للأسف ، مستحيل التحقيق ، إلا إذا
كنت إلهًا..

—أبدا ليس مستحيل التحقيق بالقدر الذي تتصورين.

—إذا كان جميع الفلاسفة و الحكماء ، منذ فجر الفكر الانساني ،
فشلوا في حل هذا اللغز ، و عجزوا عن فهم الحكمة من وجود
الشر في الانسان ، فكيف تستطيع أنت النجاح حيث فشلوا ؟

—هذا عصر آخر ، و لنا وسائل لم تتوفر للأقدمين.

فقاطعته متحمسة:

—الشر و الخير و جهان لدرهم واحد.. متلازمان تلازم الليل و
النهار و الحياة و الموت، و جميع المتناقضات، و لا يمكن القضاء

على الشر دون القضاء على الخير.. و بالتالي على الانسان ، لأنه
الخلية الأولى لهما معا..

—الانسان الشرير .. و هذا بالضبط ما أفعله أنا. و أرجو أن
تتبنى حكومات العالم نظريتي..

فحركت زينة رأسها غير موافقة:

—أنت تحاول القضاء على ظلام الليل. و الظلام في الكون هو
الأصل.. الشمس، و النجوم أجرام عابرة داخل ذلك البحر الأسود
الأزلي تعيش و تموت ، تماما كالبشر و الحيوان..

—إذا استطعنا خلق شمس كافية قضينا على الظلام.. على
الأقل في عالمنا هذا.. علماء اليوم يحاولون إرسال مرآيا ضخمة
للقضاء لتعكس أشعة الشمس على وجه الأرض المظلم بالليل، و
إضاءة المدن الكبيرة توفيراً للطاقة..

—و تهيجاً لأعصاب النائمين ، و ازعاجاً لراحاتهم. أنت مثلهم
خيالي حالم.. و حتى لو استطاع العلماء إضاءة الأرض بالليل ،
فإنهم لن يستطيعوا إضاءة النصف المظلم من النفس البشرية..

و أضافت : " إن النفس أمارة بالسوء. "

فأكمل هو الآية:

" —إلا ما رحم ربي " . سنقضي على النفوس الأمارة بالسوء

، ليبقى " مارحم ربي.. "

فسكتت زينة لحظة يائسة لا مغلوبة ، ثم عادت تسأل في تحد :

— لنفرض أنك استطعت القضاء على هذه الافرازات أو
الميكروبات الاجتماعية التي تطفو على السطح ، حسب تعبيرك ،
فهل تعتقد أنك قادر على تنشيف المستنقعات التي تفرزها ؟ هل
تستطيع بآلاتك و مصائدك القضاء على المجرمين الحقيقيين
الجالسين على الكراسي الناعمة ، في المكاتب الفخمة ، في
الشركات و الادارات العمومية ؟ هؤلاء المرتشين اللامبالين
بمصالح الناس، سارقي خبز المساكين ، و الدافعين بهم إلى
اليأس و الانحدار إلى حضيض الجريمة و اللصوصية ؟ "

و تهدج صوتها و انفعلت :

- هل تستطيع القضاء على الأنظمة الاجتماعية الفاسدة التي تفرز
هؤلاء ؟ هذه الدكتاتوريات الفاشلة ، و المالية ، و المذهبية ،
الفردية و الجماعية ، التي تستبعد شعوبا بأسراها ، و لا تنظر
إلى البشر إلا كما ينظر الجزار إلى قطع الغنم ؟

و اغرورقت عيناها ، و وقفت في حلقها غصة حامية ، فأخرجت
منديلها و وقفت تجفف دموعها..

و اقترب اسماعيل منها فامسك بكتفيها :

— زينة.. كيف يمكن أن نتناقش و نصل إلى نتيجة إذا كنت

ستفعلين هكذا ؟

فقلت متظاهرة بالهدوء:

—أسفة ، لن نتفاهم أبدا ، لأننا في طريق نقيض .. يبدو من احكامك الميكانيكية أنك لم تعرف الفقر في حياتك .. أما أنا فقد ولدت و نشأت فيه.. و قد استطعت دخول المدرسة بسلسلة غريبة من الصدق .. و رغم محاولاتي المستميتة لاتمام دراستي و انقاذ نفسي و أمي، فقد جرفني التيار إلى تحت.. إلى الهاوية ، لم يكن لي كرسي في الجامعة ، فقرروا التخلص مني و أمثالي في البكالوريا و تسليمنا إلى مصائرنا في الشوارع . و انحدرت حتى وقعت في بالوعتك هذه..

و اهتزت بين يديه ، فلم يجد في قاموسه كلمة واحدة لإطفاء كمدتها ، فضمها إليه حتى هدأ روعها ، و أجلسها على الأريكة ، و راح ينظر إلى الطفلة النائمة و هو يقول بصوت ناعم حالم:

—لعلك على حق ، لعلنا ، أنت و أنا معا ، على حق .. فقط أنت تفكرين بعقل هذا الجيل المنكوب ، و أنا أفكر لأجيال المستقبل.. جيل صغيرتنا هذه .. هذه البريئة النقية.. لست أريد لها أن تنشأ في مجتمع ملوث كهذا..

و التفت إلى زينة ليجيب عن سؤالها قبل أن تسأله:

—هذا عصر آخر.. عصر تنزل فيه كشوف العلماء إلى حلبة

التطبيق ، و سوق الاستهلاك بسرعة مذهلة ، و قد توصل العلم إلى معرفة أصل التكوين.. أعني أسرار و تقنيات الخلية الأولى للجسم البشري .. و أصبح قادرا على التدخل في سير الطبيعة العشوائي و تعديله.. بحيث أصبح في امكانه انتاج إنسان يكون نسخة طبق الأصل من أبيه... و ليس في مظهره الجسدي فحسب بل حتى في طباعه و مزاجه ، و مستوى ذكائه ، و نماذج حركته و تفكيره .. بل تعدى هذا إلى التحكم في بناء المولود النفسي ، و العقلي ، و الجسمي ، بحيث أمكن تخليصه من عدد من العادات الفطرية السيئة ، كالانفعال الشديد الذي تنتج عنه الانفجارات و الثورات ، و كذلك الحقد ، و الجبن ، و الميل إلى الخبث ، و التآمر ، و ما إلى ذلك من تفرعات لا يحصى مداها.. و من جسمه أمكن اقتلاع الآلام و الأمراض ، و ربما حتى الشيخوخة .. و يتبع هذا استئصال جذور الشر و الجريمة ، و الحسد ، و غيره من عناصر الفساد التي تفتك بإنسان هذا العصر..

و انحنى ليسألها:

—خيال علمي ؟ أبدا.. تدخل في إرادة الله .. ؟ قطعاً لا .. فلو الله أراد ألا نبحت و نكتشف أسرار خلقه ، لما أعطانا العقل..

و توقف قليلا لينظر إلى أثر كلامه فيها ، ثم أضاف:

—أما أنا فأسير على خطتي في تخليص المجتمع الحالي من كل من يقع في قبضتي من الأشرار .. فالقتل دفاعا عن النفس عمل مشروع .. تباركه جميع الشرائع و الأديان..

و نظرت إلى الأرض ، و زمت شفيتها حتى لا تقول شيئا يطلق له
العنان عليها في محاضرة أخرى..

فألقي بنفسه على الأريكة إلى جانبها في إحساس عميق بالراحة
الداخلية لم يشعر به منذ زمن بعيد.. و تنهد بعمق و قال:

—ها أنت الآن تعرفين كل شيء عني .. جميع أسراري.. فمدت
يدها و وضعتها برفق فوق يده الطويلة النحيلة و سألت:

—و ماذا لو عثرت الشرطة على هنا ، أنا و أسماء ؟

—من قال لك أنهم سيعثرون عليك ؟

—مجرد افتراض .. فقد ينفذ اصحاب رسالة الابتزاز تهديدهم و
يخبرون الشرطة أو الصحافة..

—اطمئني من هذه الناحية .. لن تأتي الشرطة إلى هذه الدار ما
دام على رأسها العميد الحالي.. فهو صديق ، و لا يمكن أن يصدق
هراء مثل ذلك ، و حتى لو فرضنا جدلا أنهم جاؤوا لتفتيش الدار ،
فلن يعثروا على هذا القبو .. فهو لا يوجد في تصميم الدار، و
مدخله سري لا يفتح إلا بأرصاد شفرية خاصة، أما الصحافة ،
فلو تجرأت أية صحيفة على الإشارة إلى هذا الموضوع بكلمة
واحدة ، فسأرفع عليها دعوى أمام المحاكم ، أطالب فيها بآخر
مليم في رصيدها ، تعويضا على المس بسمعة مواطن فوق
الشبهات!

و استيقظت أسماء جائعة تبكي فالتقطها من مهداها ، و أخذ

يلاعبها بينما تهيء زينة لها طعامها..

و في غرفة الجلوس تناول الرسالة و أخذ يقرأ فيها ، هذه المرة ،
ما بين السطور.

لماذا كتبتها العصابة بخط تكعيبي و بكلمات مقصوفة من الجرائد
؟

إذا كانوا يعتقدون أنه لن يسلمها للشرطة ، لأن ذلك سيكشف
أمرهم ، فلماذا التضليل ؟

لابد أنهم يعتقدون أن له صلة بالشرطة ، و أن هؤلاء يعرفون
سره ، و يشجعونه على الاستمرار لأنه يساعدهم في عملهم في
القضاء على الجريمة.

إذا كان هذا هو سبب اختفائهم وراء الخط المكعب ، فهو نقطة
إيجابية لصالحه ، و سوف يلعب هذه الورقة في أول اتصال
مباشر مع العصابة.

و لكنهم يهددون بإخبار الصحافة ؟ و رغم أن أغلب محرري
الصحف من معارفه و أصدقائه ، فإنه لن يضمن ألا يثير هذا
فضول بعض صحف الغوغاء ، التي تعيش على الاشاعات ، من
تبني الموضوع و إثارة عاصفة حوله.

و أعاد قراءة الرسالة ، و توقف عند جزئها الخطابي الذي يتهمه
بقتل المساكين العاطلين الذين لفظهم المجتمع و ما إلى ذلك.

و تذكر ما كان قرأه بإحدى الصحف الكبرى التي خصصت صفحة
بكاملها لمحاكمة عصاباتين للاختطاف و الابتزاز ، و كيف دافعت
عنهم ملصقة جرائمهم بالحكومة التي لم توفر لهم البيت المستقيم
، والمدرسة ، و العمل ، و بذلك فتحت الصحيفة أمام جميع
مجرمي البلد باب البطولة و الشهرة و الاستشهاد ، و كأن
الجريمة لم توجد إلا في هذا البلد و في هذا العصر!

و صعد إلى غرفة نومه و استلقى يفكر في مخرج من قبضة
العصابة.

و غفا إغفاءة خفيفة فتحوّلت أفكاره إلى أحلام ، و رأى نفسه
يدخل المحكمة و أضواء الكاميرات مسلطة على وجهه ، و
القاضي المنفوش الشعر و اللحية يبتسم له من فوق المنصة ، و
المدعى العام الذي هو نسخة طبق الأصل من القاضي ، يهمس له
مشيرا إلى القاضي ، بأنه رئيس العصابة و إلى المستشارين
بأنهم أعضاؤها.

و يستغيث اسماعيل بمحاميه فيخرج له ، فإذا هو صورة أخرى
من القاضي و المدعى العام ، و المستشارين من أفراد العصابة!

و ينادي المدعى العام:

"سعادة القاضي ، بعد اعتراف المتهم بجميع جرائمه البشعة ، لم
يبق إلا أن تطلع المحكمة على الطريقة التي كان يعذب بها
ضحاياه قبل أن يلقي بهم داخل السائل المحرق ليفترس أجساده ،

و يمحو أثرها من الوجود".

و يجد اسماعيل نفسه داخل أنبوب الاستنطاق الشفاف ، و أفراد العصابة يستنطقونه ، و يعيدون عليه أشرطة مقتل زوجته و اغتصابها ، و مقتل طفلة بحركة بطيئة فيهتز داخل الأنبوب بعنف ، و يطلق صرخة هائلة يستيقظ على إثرها من كابوسه الرهيب فيشعل النور ، و يجلس وسط فراشه يلهث ، و يمسح عرقه ، و يود من صميم قلبه لو تنفجر دموعه لتطفىء نار أحشائه المحترقة.

و كل ما يستطيع جسده أن يفعل للتخلص من ضغط الانفعال و التوتر الشديديهن هو رفضه لما في معدته ، فيسرع إلى الحمام لافراغ جوفه.

و خاف العودة الى النوم فتسلط عليه الكوابيس ، فخرج إلى حديقة المنزل يتمشى و قد بدأ الفجر يتنفس.

و بعد عدد من الدورات حول المنزل ، قر قراره على تحسين نفسه ضد أي تفتيش بولييسي للدار ، و قد كان ذلك سهلا نظرا للاحتياطات التي اتخذها منذ وضع التصميم الأول ، و أحس رغم تعبته من دورانه العصبي حول الدار ، و ارهاقه العاطفي من كابوسه ، أن هناك جوانب إيجابية بينه و بين العصابة التي جعل هدف حياته الانتقام منها.

و كل ما عليه الآن هو أن يستدرجها و يخرجها للوجود ، و لكن كيف ؟

و في الصباح أفاق و قد ملأت عليه أشعة الشمس غرفة نومه ،
و لمعت في ذهنه فكرة . و تناول الرسالة فشمها فإذا رائحة
الكيروسين تفوح منها.

و فكر ان ذلك قد لا يعني شيئا ، فقد تكون العصابة تسكن كوخا و
تستضيء بمصباح غاز ، إلا أنه لم يهمل ذلك أن الكيروسين
يقضي على جميع الروائح الأخرى ، فهل كان كاتب الرسالة
يخشى من أن تشم في الورق رائحة معينة يمكن أن تكشف سره ؟

أما الفكرة التي استيقظ عليها فقد استوحاها عقله الباطني من
عناصر الرسالة أثناء غفوته الأخيرة ، فقد أشارت العصابة إلى
أنها أرسلت له عددا من منافسيها للتخلص منهم ، و معنى ذلك
أنه استنطق عددا من معارف العصابة دون أن يكتشف العلاقة .
فهل فضل هؤلاء السكوت إلى النهاية حفاظا على سر العصابة
التي بعثت بهم لموت محقق ؟ أم أن سر العصابة لا يعرفه إلا
أعضاؤها ؟

قد تكون هذه الإشارة هي الفتلة التي كان ينتظرها من جانبا
العصابة ، فقد تضع يده على الحلقة المفقودة بينه و بينها .

و خطر بباله أسيره الجديد ، فقرر البدء بالتجربة عليه .

و بعد الاستنطاق الأول تبين أن اللص مبتدىء ، هاو ، كان
اقتحامه الدار أول عمل كبير له ، في مدينة كبيرة ، و اعنه لا
علاقة له بالدار البيضاء ، و لم يسافر قط للشمال ، و يشتغل

وحده.

و في الليل جلس ينظر إلى الرسالة فوق مكتبه و يفكر و فجأة وقف يسأل نفسه بصوت مسموع:

"و لماذا لا ؟ لماذا لا يكون كاتب هذه الرسالة يريد صرفه عن بحثه عن العصابة ؟ يريد تحويل اتجاهه عن هدفه الحقيقي ، و إدخاله في معركة جانبية مع طواحين الهواء ؟"

"إذا كان افتراضه صحيحا، فلماذا ؟ الجواب المنطقي هو أن أحدا ما يخشى وقوع أحد أفراد العصابة في قبضته "

و حرك رأسه غير مقتنع:

"و لماذا لا يحذر هذا أعضاء العصابة من سرقة الدار ، بدل أن يحاول إيقاف محاولاته هو ؟ "

وأجاب : " لعله لا سبيل له للاتصال بالعصابة لتحذيرها" .

و رغم اقتناعه بأن الفكرة طفت على سطح تفكيره استجابة لرغبته الباطنية في الخروج من هذا المأزق ، فكانت كطوق نجاة ما كاد يمسك به حتى تبين له أنه سراب » .

و رغم ذلك ، فقد قرر أخذه في الحساب.

و لم يكن في نيته الانصياع لتهديد العصابة و تلبية طلبها المالي .

فسيكون ذلك اعترافا ضمنيا بالتهم الموجهة إليه في رسالة الابتزاز ، و قد تكون العملية بأكملها محاولة لاستدراجه إلى مكان معين لتنفيذ ما فشلوا فيه أثناء هجومهم الأول على سيارته.

و فكر في إخبار العميد ، تمهيدا لما قد يصل إلى الصحافة من العصابة . و تهيئنا له ليأخذ جانبه إذا استأذنته الصحف أو استفسرته حول صحة الأخبار.

و أرجأ ذلك إلى ما بعد اتصال العصابة به حول تسليم المبلغ.

في صباح اليوم التالي وجد مفاجأة تنتظره.. و رفع سماعة التلفون و نادى المجيب الآلي بالدار النموذجية بضاحية مراكش ثم وضع السماعة على جهاز تحويل الشفرة ؟ و أمسك بسماعة أخرى و أخذ ينصت إلى تسجيل الاستنطاق الأوتوماتيكي لأول أسير وقع في أنبوب الدار الجديدة.

و دق قلبه حتى كاد يطغى على صوت الأسير ، و هو يستمع إليه
يجيب:

—هل تعرف عصابة طنجة ؟

—نعم .. أنا أحد أفرادها..

انتهى الجزء.
دمتم في أمان الله.

الجزء 17:

و دق قلبه حتى كاد يطفى على صوت الأسير ، و هو يستمع إليه
يجيب:

—هل تعرف عصابة طنجة ؟

—نعم .. أنا أحد أفرادها..

—من هم بقية الأعضاء ؟

" —حشلاف " و " الرداد. "

—من كان رئيس العصابة ؟

" —الرداد. "

—أين هو الآن ؟

—مات..

—كيف ؟

— قتل في حادث سيارة.

— أين ؟

— في الدار البيضاء.

— من صاحب السيارة ؟

— مفتش شرطة..

— هل تعرف اسمه ؟

— لا..

— و أين " حشلاف " ؟

— في السجن..

— من قتل المرأة و الطفلة ؟

" —الرداد " قتل الطفلة أولا .. و هدد المرأة إذا لم تدله على صندوق الجواهر و الفلوس بقتل طفلتها . و حين قالت إنها لا تعلم ، أخذها إلى غرفة النوم.. و بقينا نحن نبحث عن الصندوق.

و هنا ارتعدت فرائص اسماعيل ارتعادا شديدا و كأن تيارا

كهربائيا يسري في عظامه.. فوضع السماعة و وقف ليجد ركبتيه
من الضعف بحيث لا تقويان على حمله ، فعاد إلى القعود..

و تناول السماعة فنادى المطار و طلب قسم الطيران الخاص
لتهيء طائرته. و نادى سيارة أجرة لتأخذه إلى المطار.. كان يريد
أن يجري الاستجواب بنفسه، لان اسئلة المستنطق الآلي محدودة
لا تشفي غليله..

و حطت الطائرة الصغيرة بمطار المنارة بمراكش، و قصد
إسماعيل الدار بسيارة أجرة ، و نزل قبوها بمجرد وصوله ، و
فتح غرفة الاستنطاق فوجد الأسير البئيس منطويا على نفسه
ينتظر مصيره..

و أشعل النور ، ففتح السجين عينيه تدريجيا بصعوبة ، و
استأنس لسماع صوت بشري حين سمع صوت اسماعيل يسأله:

—متى قتل الرداد ؟

—منذ ستة أشهر تقريبا .. ماذا ستفعل بي بعد الاستنطاق ؟

—لا تقلق .. كل شيء سيكون على ما يرام إذا أجبت بدقة على
جميع الأسئلة..

—سأفعل .. قررت أن أفعل طواعية لأنني أكره التعذيب ، ثم إنني
بريء من دم المرأة و ابنتها.. اقسم لك بالله العظيم.. و قد فوجئت

ب " الرداد " و هو يضرب الطفلة البريئة بالحائط ، و كاد يغمى علي.. أنا أكره العنف و الدم .. و قد أكد لنا أن الدار خالية حتى فوجئنا بالمرأة و الطفلة . و قد لاقى الرداد حتفه بنفس الطريقة ..

—كيف ؟ ألم تقل إنه قتل في حادث سيارة ؟

—نعم .. و لكنه لم يكن حادثا عاديا..

—كيف ؟

—لأن مفتش الشرطة طاردنا بسيارته نحن الاثنين ، كان يبدو أنه يعرف الرداد و يريد قتله بأي وسيلة ، لا أدري لماذا ، و في تلك الليلة كنت أنا و الرداد نشرب في إحدى الخرب بدوار (لاحونا) ، و سمعنا صوت سيارة تقترب من الخربة و تطفئ أنوارها و تسكت المحرك ، فلم نهتم بها ، و بقينا داخل الخربة نشرب و نأكل ما كان معنا من طعام حتى فرغت الزجاجات . فخرجنا و قد ثقلت رؤوسنا قليلا . و ما كدنا نبتعد قليلا على باب الخربة حتى قامت السيارة من مكانها ، و كأنها حيوان مخيف ينقض للافتراس ، و اشتعلت أنوارها الكبيرة حتى أغشت أبصارنا ، فوقفنا و ظهرانا للحائط ، و يدانا على عيوننا ، و تحركت السيارة نحونا بسرعة فصدمت الرداد على ركبتيه ، و ألصقته بالحائط و هو يصرخ في ألم ، في ألم شنيع.

و ارتعشت شفتا الأسير ، و هو يسترجع صورة الحادث الدموي :

—ذكرني بصراخ تلك المرأة الأجنبية المسكينة حين كان "

الرداد " يضرب الحائط برأس طفلتها!

سأله اسماعيل و هو يغالب الغثيان الذي أصيب به مرة أخرى:

—كيف عرفت أن سائق السيارة مفتش شرطة؟

—رأيناه.

—كيف ، و أضواء السيارة في عيونكما؟

—حين اقتربت السيارة ، و صدمت ركبتي الرداد انحبس النور مع الحائط فرآه الرداد أولا ، و أخذ يصيح فيه مستعظفا : " أرجوك سيدي المفتش " ، و لكنه رجع إلى الوراء قليلا حتى سقط الرداد على ركبته مفصول الساقين ، ثم عاد فصدمه مرة أخرى بحاجز السيارة ، على صدره هذه المرة ، و رجع إلى الوراء ليواجهني ، رأيت ذلك في عينيه من خلال زجاج السيارة فعدت الى الخربة ، و اختفيت بداخلها ، و لحسن الحظ لم يتبعني.

—هل تعرف المفتش إذا رأيته؟

—لا أدري الآن ، كان الظلام شديدا ، و كنت أراه من خلال الزجاج بعينين أغشاهما الضوء..

—هل تعرف لماذا قتله؟

فحرك السجين رأسه بالنفي..

—الذي أعرفه هو أن المفتش كان يعرف الرداد و يريد التخلص منه . لا بد أنه كان يكرهه لسبب من الأسباب .

فقال إسماعيل لنفسه:

—أو لاسكاته إلى الأبد!

ثم توجه نحو السجين:

—و أنت ؟ لماذا أراد قتلك ؟

—كان لابد من ذلك ، فقد كنت شاهدا على ما حدث .

—لماذا لم يتبعك ؟

—لا أدري لماذا ، ربما لأنه اعتقد أنني لم أر وجهه ، أو لأن أحدا رأى الحادث و توقف .

—ألم يبحث عنك بعد ذلك ؟

—عرفت أنه سيفعل ، فركبت في تلك الليلة إلى مراكش .

—قلت إن عضو العصاة الثالث يوجد في السجن الآن ؟

—نعم ، " حشلاف . "

—أي سجن ؟

—المركزي بالدار البيضاء.

—لماذا ؟

—لسرقة ، ربما.

—متى سيخرج ؟

—قريبا ، حكم عليه بسبعة أشهر.

—هل هذا اسمه العائلي ، أو كنية اطلقتموها عليه ؟

—لا ، اسمه الحقيقي الجيلالي الفورياني . و الجميع يناديه " حشلاف . "

فكتب اسماعيل الاسم ، و عاد يسأل :

—هل تتذكر يوم الحادث الذي قتل فيه " الرداد " بالضبط ؟

—لا ، و لكنه حدث منذ ستة أشهر تقريبا.

و اسكت اسماعيل الصوت ، و جلس في شبه غيبوبة ينظر إلى
أسيره الذي كان يصيح فيه مستعطفا ، و يحاول دفع الحاجب
الزجاجي بكفيه دون جدوى ، و كأنه حشرة في شبكة عنكبوت.

و مد يده فأطفأ النور و خرج.

و في الدار البيضاء ، قصد الخزانة العامة و طلب مجموعة جرائد
شهر مارس الذي وقعت فيه حادثة الرداد ، و جلس يتصفحها
بدقة حتى عثر على الخبر في صفحة الدار البيضاء .و بدا
لإسماعيل أن مصدر الخبر كان واحدا بالنسبة لجميع الصحف فقد
نشرته كلها بنفس الأسلوب و حتى الكلمات :

"عثرت الشرطة في دوار (لاهونا) على جثة شاب مجهول
الهوية ، ذهب ضحية حادثة سيارة دهمته و هو في حالة سكر
شديد ، و قد نقلت الجثة إلى مستودع الأموات في انتظار من
يتعرف عليها. "

و أقفل مجلد الجريدة ، و أقفل معه بابا آخر من أبواب الأمل في
التوصل إلى رأس الخيط الذي ظن أنه أمسك به.

بقي باب واحد .. هو حشلاف.. أو الجيلالي الفورياني..

و ركب سيارته و قصد السجن المركزي..

و في إدارة السجن قيل له أنه خرج منذ ثلاثة أيام ، فأخذ عنوانه

مدعيا للحارس العام أنه كان عاملا في أحد أورشه و أنه يريد
إرجاعه للعمل.

و على حافة مدينة القصدير المترامية الأطراف ، وقف ينظر إلى
العنوان ثم إلى هذا البحر الهادر الصفائح و الأخشاب و القصب ،
تخترقها ممرات من الأوحال القذرة السوداء المكتظة بالأطفال
الحفاة العراة الضامري الأجساد ، يتصايحون و يتعاركون . فقصد
إلى أحد الدكاكين و سأل صاحبه عن العنوان ، و كيف يمكن
الوصول إليه..

—عن تبحث ؟

—عن شاب اسمه الجيلاي الفورياتي..

فمط البائع شفته السفلى غير عارف .. فأضاف اسماعيل:

—حشلاف ؟

فحرك البائع رأسه عارفا:

—مسكين..

—لقد خرج من الحبس ، أتعرف ذلك ؟

—نعم.. لم يكد يفرح بحريته حتى فقد حياته.

و صعد اسماعيل ، و لكنه غالب رد فعله:

—ماذا حدث له ؟

—صدمته سيارة .. قتل في الحال .. جنازته كانت البارحة.

و وقف اسماعيل ينظر إلى الورقة في يده مخدرا يائسا و قد
انقفلت في وجهه آخر الأبواب..

و أخرجه من خدره صوت البائع:

—هل كنت تعرفه ؟

فحرك اسماعيل رأسه بالإيجاب:

—كان عاملا في احد أورشلي.

ثم لمعت في ذهنه بارقة أمل:

—هل قبضوا على قاتله ؟ أعني سائق السيارة ؟

فحرك الرجل رأسه بالنفي:

—محال..

—هل رآه أحد ؟

—حدث كل شيء بسرعة .. ولكن يقال و الله أعلم ، إن أحدا رأى السائق و أخبر الشرطة..

و نظر البائع يمينا و يسارا ثم همس لاسماعيل:

—يقال إن السائق منهم.

و حين لم يفهم اسماعيل شرح الرجل:

—من الشرطة السرية..

و كأنما خاف البائع أن يكون اسماعيل ينتمي إلى نفس الجهاز
فأضاف:

—يا سيدي ، لقد كثر اللصوص و أولاد الحرام هذه الأيام.. لم يعد أحد يأمن على ماله و لا على عرضه بينهم..؛ و لا أكتمك أن هذا الولد " حشلاف " لم يكن من أحسن الشباب . و ربما كنت تعرف ذلك .. و هذه ليست المرة الأولى التي يدخل فيها الحبس . فماذا يفعل رجال الأمن ؟ السجون ممتلئة ، و المحاكم كذلك..

فأجاب اساعيل موافقا:

—معهم الحق ، بدأوا يتخلصون منهم بهذه الطريقة ؟

و وافق البائع ، و زاد:

—و بطرق غيرها لا يعرفها أحد .. و قد اختفى عدد كبير منهم
دون أثر يذكر ، و بدأت المدينة تتنفس الصعداء .و شكر اسماعيل
البائع و ودعه.

و في ذلك المساء ، عادت زبيدة إلى شقتها لتجد مفاجأة تنتظرها
. بمجرد ما فتحت الباب صدمتها رائحة أنفاس بشرية مخمورة .
على الأريكة كان يجلس رجل خشن المظهر ، بارز البطن ، صغير
الرأس ، ذو صلعة خفيفة ، يدخل و يشرب من كأس أمامه..

وقفت زبيدة تنظر إليه و تقدر الموقف ثم قالت:

—ماذا تفعل يا عبد الحق ؟

—فأطفا السيجارة بعناية ، و أجاب:

—اقفلي الباب أولا .. أهكذا تستقبلين ضيوفك ؟

—الضيوف لا يدخلون بغير إذن ، و في غياب أهل المنزل ، و
من أين حصلت على المفتاح على أي حال ؟

—رجال الأمن لا يحتاجون إلى إذن و لا إلى مفاتيح .. و أنا لا
أعد نفسي ضيفا على كل حال..

و وقف مكانه ، و قد ظهر الجد على وجهه رغم سكره:

—إسمعي يا زبيدة ، لم يبق لي صبر على تسوياتك ، و
تأجيلاتك ، و تبريراتك الفارغة ، لقد مضت على اتفاقنا أكثر من
ثلاث سنوات .. و الآن أريد منك كلمة، واحدة...

و اقترب منها بجثته المربعة المكتنزة ، فابتعدت قليلا إلى الوراء
حتى التصقت بالحائط ، متفادية أبخرة جوفه العفنة:

—هل ستتزوجيني ؟

فنظرت إلى عينيه المتوحشتين و قررت أن تلعب دور دليلة مع
شمسون ، فقد يكون الواقف أمامها برميل بارود يوشك على
الانفجار . فمدت يدها البيضاء الناعمة ، و وضعتها على صدره و
قالت بصوت جاد:

—ألا تتذكر أنني أجبت على هذا السؤال ؟

فقاطعها دافعا إياها بيد حديدية على صدرها نحو الحائط:

—لا ، أو نعم ؟

فقالت زبيدة و هي تلهث و قد شحب وجهها ، و بح صوتها رعبا

:

—نعم ... نعم!

—الآن..

—الآن ، إذا أردت..

و لم يشف غليله استسلامها السريع ، فدفعها مرة أخرى و قال:

—اعرف أنك لا تحبينني ، و لو كنت صارحتيني بذلك في البداية
حين صارحتك بحبي ، لكنت نزعتك من قلبي ، و تزوجت امرأة
أخرى ، و حاولت نسيانك بالعمل و الأولاد .. و لكنك علقتني
بخيط الأمل .. و استعملتني.

و ضغط على كلمة " استعملتني " و كررها ، و هو يدفعها إلى
الحائط:

—استعملتني كما يستعمل الصياد كلبه . بل كما يستعمل السفاح
سلاحه ! و حين أفقت من جنون حبي لك ، وجدت نسي غارقا في
الدم إلى عنقي.

و همست زبيدة محاولة ابعاده عنها:

—عبد الحق ، أرجوك .. لقد قلت لك نعم .. فلا داعي لكل هذا..

—قلت ذلك خوفا مني ، لأنني شارب ، لا حبال لي ، و لو لم
أغرق ذاكرتي في الكحول كل يوم لخرجت عن عقلي .. إن أشباح
جميع ضحايانا الأبرياء المساكين ، بما فيهم زوجة اسماعيل
البناء ، و طفلة الصغيرة ، تطاردني بالليل و النهار .. و لو كنت
ذكيا لاستمعت إلى صوت عقلي و ضميري حين اشترطت علي قتل

تلك المرأة الاجنبية و طفلتها ثمننا لحبك ! لكنك فهمت أنك تتوين
التخلص منها ليخلو لك الجو مع حبيبك اسماعيل .. و اسماعيل
الذي لم يعبأ بك مرة في حياته.

انتهى الجزء.
دمتم في أمان الله.

الجزء 18:

و اغرورقت عينا زبيدة من القهر و الغضب المكبوت فقال:

—مازلت تحبينه . و كنت تعتقدين أنه سيعود إليك بعد أن يخلو
بيته .. و ها قد خلا الجو ، فماذا فعل اسماعيل ؟ تبعته إلى هنا
من طنجة لتعرضي نفسك عليه .. و تسلفت إلى بيوت أصدقائه ..
و إلى جميع المؤسسات التي يعمل معها ، فهل تزوجك ؟

و حرك رأسه ، و دفعها نحو الحائط مرة أخرى . و ابتعد عنها
يضحك مع نفسه ، موليا إياها ظهره..

و التفتت هي تدرس المسافة بينها و بين الباب ، فوقف هو في
مكانه ، و صاح دون أن يلتفت:

—لا تحاولي ذلك ، و إلا مزقتك أشلاء..

—لم أتحرك..

و استدار ليواجهها ، و قال:

—لو كنت ذكية ، كما يبدو عليك ، لنفخت يدك من اسماعيل
تماما .. فقد تحول حبه لزوجته و طفله القتلتين إلى شهوة
جنونية للانتقام من قاتليهما..

و توقف ليسأل:

—أتعرفين ذلك ؟

—هذا رد فعل طبيعي..

—و هل تعرفين أن الدار التي بنى هنا في الدار البيضاء عبارة
عن مصيدة كبيرة لاصطياد اللصوص ؟ بناها في ذلك الموقع
الموبوء بالمجرمين ، أملا في أن يقع في قبضته أحد قتلة اسرته
. هل تعرفين ذلك ؟

فسألت متحدية:

—و كيف عرفت ذلك؟

—مهمتي أن أعرف ، لست شرطيا من أجل لا شيء ، فقد بعثت
إليه بعض اللصوص فلم يرجعوا ، شككت أولا في نواياه حين
اختار الموقع ، ثم حين بنى الدار عبارة عن مصباح سحري عامر
بالتحف الغالية ، يسيل لعاب أجبن اللصوص ، و يشجعهم على

اقتحام الدار ، ولكني لم أتأكد حتى بدأت الاختفاء ات.

و اقترب منها و نظر في عينيها:

—أرى أن هذا الخبر الغريب لم يصدك . فهل كنت تعرفين شيئا من هذا ؟

—أنا الأخرى شككت في نوايا اسماعيل ، حين ترك طنجة إلى الدار البيضاء ، و تخلّى عن أحلامه السياسية العظيمة ، بعد مقتل زوجته . أنا أعرف اسماعيل جيدا ، عقله الكبير لا يمكن أن تشغله إلا المشاريع الكبيرة ، و قد قمت ، أنا الأخرى ، ببحثي فوصلت إلى نفس النتيجة ، و هذا ما جعلني أوّجل موعد زواجنا ، ماذا لو وقع في قبضته أحد أعضاء العصابة ، و اعترف له ؟

—كان ينبغي أن أخبرك في الوقت المناسب ، و لكنك كنت تبعديني عنك كمتسول ثقيل ، علاقتي في طنجة كانت مع رئيس العصابة ، و قد زال من الطريق إلى الأبد.

—و كيف تطمئن إلى أنه لم يقل شيئا عن علاقتكما لزميله ؟

—فكرت في ذلك ، و قد تخلصت من أحدهما منذ يومين ، و بقي واحد لا أدري أين ذهب ، و لني ساعتر عليه.

و ارتعشت شفتا زبيدة و هي تسأله:

—إذا كنت متأكدا مما يفعله اسماعيل ، فلماذا لم تقبض عليه ، و

تزيله هو الآخر من طريقك ؟

—أتظنين أنني لم أفكر في ذلك ؟ لقد راجعته في بالي خمسين ألف مرة ، و وضعت له الخطط ، بل اكتشفت مؤامرة لاغتياله فلم أتدخل لإفشالها.

فوضعت زبيدة يدها على عنقها في عصبية لم تستطع كبتها:

—مؤامرة لقتل اسماعيل ؟

—نعم.

—و لكن من يريد اغتياله ؟

—تستغربين بعد مئات الضحايا الذين وقعوا في مصيدته و لم يرجعوا ؟ تكونت عصابة من الموتورين ، من الذين فقدوا إخوانهم أو أصدقائهم أو زملاءهم في الحرفة ، و اعترضوا طريقه ذات ليلة و هو عائد من عمله ، و لكنه خرج منها ناجيا باعجوبة ، بل و قتل منهم أربعة عن طريق صعقهم بتيار كهربائي عال في مقابض سيارته.

و سكت لحظة ، ثم أضاف:

—لم يمنعني من القبض عليه أو قتله إلا أن.

—أنا ؟

—نعم ، خوفي من أن يقع لك ما وقع له هو حين قتلت زوجته و طفله ؟ انت لا تعرفين حقيقة ما وقع لاسماعيل البناء حين أغمي عليه ، وأخذوه إلى العيادة.

فقطبت حاجبيها غير فاهمة:

—ماذا وقع له ؟

—سأبوح لك بسر مهني لا يعرفه إلا القليلون ، و لا يكاد يصدقه أحد.

و دق قلب زبيدة:

—قالت لي ممرضته ، نفس الممرضة التي كانت تشرف عليه بالليل ، قالت لي إنه مات ، توقف قلبه ، و كف تماما عن التنفس ، و بقي ميتا حتى الصباح حين جاء الطبيب ، فوجده قد عاد إلى الحياة.

فسكت لحظة ثم قال:

—ربما كان أمرا طبيعيا ، و لكن الممرضة المجربة المحترفة شعرت بخوف غريب حين عاد اسماعيل إلى الحياة ، و باحت لي بأنه عاد شخصا آخر ، شخصا غير طبيعي.

و سادت الغرفة لحظة صمت لم يكن يسمع فيها إلا تنفس عبد

الحق المتلاحق ، حتى قاطعها بسؤاله:

—هل تتزوجينه الان ؟

—و أجاب عن سؤاله بخيبة أمل ، و هو ينظر إليها شاحبة
ترتعش لما تسمع:

—نعم ، لو طلب يدك ما ترددت ! و لو طلب يدك يا زبيدة ،
لقطعت عنقه دون تردد ! تماما كما فعلت مع ذلك السعودي "
الحليوة " الذي لاحظت أنك كنت بدأت تتعلقين به.

و فتحت زبيدة فمها بشهقة لم تستطع كبجها ، فعلق:

—فوجئت ؟ ظننتك أذكى من ذلك.

و تحرك خطوات نحوها حتى وقف أمامها ، و مد يده الخشنة
فربت على شعرها الأسود اللامع ، ثم على خدها ، و هي ترتعش
خوفا و انفعالا ، و قال:

—أرأيت يا زبيدة إلى أي حد أستطيع أن اذهب في حبك ؟! لقد
فات الأوان ، لم يبق وقت للتراجع ، أنا و أنت مكتوبان لبعضنا ،
محكوم علينا بالعيش معا . و إذا كنت قد فشلت في الحصول على
قلبك ، فلا أقل من الحصول على جسدك.

و وضع يده على كتفها:

—أفضل أن أراك ميتة على أن أراك بين ذراعي رجل آخر ! بما
في ذلك اسماعيل ، و إذا اقتضى الأمر أن أتخلص منه هو الآخر ،
فلن أتردد . و لكني لا أرى داعيا لذلك ، فقد قبلت الزواج مني
الآن ، و سنذهب الآن معا إلى المحكمة لعقد القران.

فبدا الفزع على وجه زبيدة ، و حاولت تغطيته بسرعة:

—الآن ؟! و ماذا سيقول أهلي ؟ ماذا سيقول أهلك أنت ؟ الزواج
ليس سرقة ! و إذا كنا سننزوج فنسفل ذلك في ضوء النهار ، و
سنقيم عرسا ندعو إليه جميع الأهل و الأحباب ، و هذا يحتاج إلى
وقت.

—كم تحتاجين من الوقت ؟

—على الأقل ثلاثة أشهر ، الملابس تحتاج إلى وقت طويل
للخياطة و التفصيل.

—اعطيك ثلاثة اسابيع ، و نفصل بعد العرس.

—هذا مستحيل!

و واجهته مبتسمة:

—عبد الحق ، إذا أسرعنا هكذا سيقول الناس إننا نخفي شيئا ،
فهمت ؟

فانفجرت أساريه الخشنة عن أول ابتسامة رأتها زبيدة على
وجهه منذ طنجة ، و علق!

—أنا لا أمانع عندي من أن يقولوا ذلك.

—أنت رجل . و لكن المرأة يجب أن تحافظ على سمعتها و
عفتها من أجل زوجها و أولادها.

و ضربت على صدره بكف ناعمة ، فدمعت عيناه النشوانتان من
السكر و السرور المفاجيء ، و دفعته هي نحو الباب:

—إذهب الآن ، و دعني أفكر و أدبر شؤوني ، و أخبر عائلتي
على الأقل بالتلفون ، و عليك أنت أن تفعل نفس الشيء مع
عائلتك ، لابد أن يذهبوا في وفد كبير إلى طنجة لخطبتي.

و بدأت تدور وسط الشقة كالحمامة و تهزل:

—ألف شيء و شيء يجب ترتيبه!

و دفعته نحو الباب و أقفلتها خلفه ، و وقفت بظهرها إليها تتنفس
الصعداء مغمضة العينين من الارهاق.

و سمعت خطواته تبتعد نازلة السلم ، فأسرعت إلى النافذة لتراه
خارجا من باب العمارة.

و انتظرت حتى ركب سيارته ، و ذهب ، و ارتمت على التلفون ،

فأدارت رقم عميد الشرطة في منزله.

و أجابت الخادمة:

—من يطلبه ؟

—قولي له زبيدة ، و أسرع.

—سيدي عزوز في الحمام يغتسل ، سأنادي لك للا زهور.

و وضعت السماعة على المائدة الصقيلة بعناية و ذهبت.

و غابت و زبيدة ملتصقة بالسماعة تنصت إلى أصوات الدار
البعيدة بصبر نافذة ، و بعد مدة سمعت وقع خطوات (زهور)
البطيئة قادمة نحو التلفون ، ثم صوتها:

—آلو.

—آلو ، زهور ، زبيدة.

—أهلا زبيدة ، كيف حالك ؟

—الحمد لله ، أرجوك يا زهور ، أن تنادي لي سيدي عزوز حالا
إذا أمكن .. الأمر مستعجل!

و ترددت زهور:

—سأستعجله للخروج من الحمام ، لم يبق له إلا أن يخرج ، فقد
دخل منذ نصف ساعه.

و وضعت السماعة و ابتعدت ، و بقيت زبيدة تتحرق لاصقة
بالخط.

و مضت بضع دقائق قبل أن تسمع قرقرة السماعة و صوت
العميد :

—آلو ، زبيدة .. مساء الخير.

—مساء الخير سيدي عزوز.

—قالت لي زهور..

فقاطعته:

—نعم .. نعم ... أردت أن أكلّمك في موضوع المهندس أمين
ناصر .. منذ لحظة فقط علمت أن موته لم يكن انتحارا..

و انقطع التيار فجأة .. جمدت السماعة في يد زبيدة و أصبحت
الحجرة صماء .. و ضغطت على زر الاتصال عدة مرات فلم تسمع
صوتا .. و في تلك اللحظة فقط شعرت بوجود أحد معها في الشقة
.. عرفته قبل أن تراه .. سبقته إليها رائحة النبيذ الممتزج بالعرق

..

و التفتت لترى المفتش عبد الحق بن جليل يمسك في يده طرف
حبل التلفون مسلولا من الحائط . و في نوبة ذعر مفاجيء رمت
بالسماعة و همت بالفرار نحو الباب .. و لكنه كان واقفا كجار
من حديد بينها و بينه .. و رمى بالسكك و تحرك نحوها ، و في
عينيه حكم نافذ بالإعدام ، فتراجعت إلى الخلف و قد انتفض بدنها
، و تشمع وجهها .. و أوقفها كرسي مع الحائط فامسكت به و
رمته أمامها بسرعة ليفصل بينها و بينه ، و جرت نحو الحمام ،
فدخلته و دفع الباب فالقى بها داخل حوض الحمام ، و انحنى
فأمسك بعنقها الطويل الناعم بيده الفولاذية المنتفخة الأصابع .. و
فتحت فمها ، و همت بالصراخ ، فضغط على حنجرتها بعنف
قصف رقبتها في الحال و اهتز بدنها النحيل اهتزازات قوية ، ثم
استرخى و كف عن الحراك..

و رفع قبضته عن عنقها ، و تركها تنظر إلى السقف بعينين
خاويتين.

انتهى الجزء.
دمتم في أمان الله.

الجزء 19:

و رفع قبضته عن عنقها ، و تركها تنظر إلى السقف بعينين
خاويتين.

ثم انحنى فحملها ، برفق كبير ، بين ذراعيه ، و ذهب بها إلى سريرها فوضعها عليه ، و أخذ يخلع ملابسها قطعة قطعة ..

و حين وصل العميد صحبة جماعة من رجاله ، اقتحموا الباب ، و تقدمهم العميد شارعا مسدسه ..

و لم يشعر عبد الحق بدخوله ، كان جالسا على كرسي صغير إلى جانب السرير ينظر في ذهول إلى جسد زبيدة العاري ممددا فوق السرير، و كأنها في دعة و سلام ..

و صوب العميد المسدس نحوه ، و أشار إلى رجلين من رجاله ، فدخلوا و أمسكا بذراعي عبد الحق الذي رفع عينيه ينظر إليهما بفضول هادئ ..

و أرجع العميد المسدس إلى غمده ، و تقدم نحو زبيدة فغطاها بإزار ، و وقف ينظر إليها و قد أخذ مفعول الصدمة يسري في كيانه ..

و عرف اسماعيل بمقتل زبيدة عن طريق مريم .. نادته باكياً أخبرته و طلبت منه أن يمر عليها ليذهبها إلى شقة القتيلة حيث سينتظرون عائلتها حتى تصل من طنجة ..

و في الشقة وجدا زهور زوجة العميد ، و ابراهيم .. و جلس الرجلان صامتين يدور بينهما حوار سري يحمل فيه ابراهيم صديقه إسماعيل مسؤولية ما وقع لزبيدة لرفضه الزواج منها ، و

تركها فريسة لذئاب المدينة الكبيرة القاتلة .. بينما السيدتان
تغرقان حزنهما في تنظيف الشقة و تربيها اكراما لروح الفقيدة ،
و صونا لذكراها..

و شعر اسماعيل بالحرص في مجلسه ذلك ، فقام يساعد السيدتين
في ترتيب بعض الملفات .. و بينما هو يهم بوضع ظرف في أحد
الأدراج إذ انفلت من يده ، و وقع مفتوحا على الأرض ، و انحنى
فالتقطه فإذا به قصاصات صحف كلها تحمل صور المتغييبين و
المفقودين و عناوينهم مخططا تحتها بالقلم الأحمر..

و لاحظ بداخل الغلاف خريطة ، و عددا من صحف الجرائد مطوية
.. فأخرجها و قام بوضعها على الطاولة ، موليا ظهره لابراهيم ،
وفتح الخريطة فإذا هي للدار البيضاء و تأملها فإذا عليها دوائر
حمراء حول عناوين المتغييبين ، و لاحظ أن داره هي الأخرى
كانت تقع داخل مربع كبير أحمر.

و فتح الجرائد فإذا بها عدد كبير من الثقوب و الخروم الصغيرة
المربعة و المستطيلة .. كلماتها اخذت بموس حلاقة..

فجاءه صوت ابراهيم من خلفه:

—هل أساعدك ؟

فأربكه السؤال قليلا ، و لكنه رد بصوت هادئ:

—لا ، انتهيت..

و حمل الملف إلى المطبخ و منه خرج إلى البلكون الصغير ،
فطواه بقوة ، و أدخله في جيب صدره ..

و نظر حواليه على الأرض ، فإذا علبة صفيح يفوح منها
الكيروسين ، فأغض عينيه و تنفس بعمق ، و في داخل رأسه
دمعت العين الهادئة و استرخت في إغفاءة ناعمة .

و جاء العميد فالتف حوله الجميع يسألونه عن سبب هذه الكارثة .

—حسب الظاهر ، يبدو أنها جريمة عاطفية . القاتل في حالة
ذوهول و كل ما استطعنا أن نفهم من هذيانه أنها غررت به ، و
استعملته ، في ماذا ؟ سنعرف فيما بعد ، حين يخرج من مفعول
الصدمة .

و عاد اسماعيل إلى داره في ساعة متأخرة من تلك الليلة ، و في
غرفة مكتبه أخرج رسالة الابتزاز من صندوقه الحديدي و وضعها
أمامه ، و أخرج من جيب صدره الغلاف الكبير ، و فتحه و أخرج
منه صفحة الجريدة المخرمة ، و تناول عدسة مكبرة و أخذ
يدرس نوع الحروف الملصقة بالرسالة و يقارنها بحروف
الجريدة ، فوجدها هي بالضبط .

و رفع الرسالة إلى أنفه فوجد أن رائحة الكيروسين ، ما تزال
عالقة بها ، و شم ظرف أوراق زبيدة ، فإذا برائحة عطرها
المميز لها تعبق منه .

و في غرفة نومه وقف ينظر إلى صور كارين و الطفلة ، و
يلمسها بيديه و يهمس لهما:

—جئتما لليلة بخبر خصوصي جدا ! بخبر رائع ! لقد قطع
رأس الحية .. لا ، لم أقطعه ، و لكن النتيجة واحدة ، رأس الحية
هو زبيدة .. حقا ، كانت ابعد ما تكون عن أي شبهة ، عن أن
تخطر بالبال في هذا المجال.

"فهل كنت غيبا ؟"

"لقد استكثرت عليها الذهاب في حبها لي إلى هذا الحد ، و أسأت
التقدير.

"ظننتها غير قادرة على مثل هذا الحب الجارف ، الحاقد ، القاتل
كنت أحسبها طوبة ثلج شفاف ، ذكية باردة لا رائحة لها ، و لا
حرارة و اولا طعم.

"و لكني أخطأت الفراسة.

"ما كنت أعتقد أنه بقي من بين أهل هذا العصر من يقتل من أجل
الحب!

"و جاءت زبيدة ، من بين جميع الناس ، لتكذب اعتقادي ، و
جاء بعدها قاتلها ، هذا الشرطي المسكين ، ليؤكد ذلك التكذيب " .

و نام بقية الليلة نوما عميقا.

و في ظهر اليوم التالي وقف اسماعيل ينظر من وراء نظارته
السوداء ، إلى نعش زبيدة ينزل في قبرها ، بين أصوات قراء (يس) ، و ضرب الفؤوس و المعاول المستعجلة كأنها تسرع
للخلاص من عمل مكروه.

و في طريق عودته ، إشتري صحف المساء التي كانت تحمل
صورة زبيدة و تحتها صور المفتش القاتل.

و تعرف اسماعيل على صورة المفتش .. هو نفس الرجل الذي
رآه يكلمها مرة و هي في سيارتها بالشارع ، و رآه يخرج من
مكتبها غاضبا بعد جدال مكبوت.

إذن لم يكن زبونا ملحاحا كما ادعت زبيدة.

و تغذى مع زينة على السطح ، و جلسا ينعمان بدفء الشمس ، و
مراقبة (أسماء) الصغيرة و هي تمرح و تلعب.

كان اسماعيل هو الوجه الآدمي الوحيد الذي تراه زينة بعد طفلتها
، فكانت تطيل النظر إليه كلما سمحت لها الفرصة الاجتماع به.

و لاحظت استغراقه في التأمل ، فسألته:

— في ماذا تفكر ؟

و لم يجبها إلا بعد أن كررت اسؤال:

—نعم ؟ لا شيء .. لا شيء بالمرّة.

و لكنه في الحقيقة قلقا.

لم يكن يعرف طبيعة علاقة زبيدة بالمفتش.. هل هو وسيطها مع العصابة ؟ هل هو الذي صفى العصابة حتى يقبر جريمة طنجة بصفة نهائية ؟ هل فعل ذلك بالاتفاق معها ؟ و ماذا كانت تعرف بالضبط عن داره و أسرارها الخفية ، و هل قاسمته شكها في الاختفاء ات ؟ إذا كانا يعملان معا على إخفاء الجريمة ، فلماذا أرسلت له هي رسالة الابتزاز لتضليله ، و صرفه عن متابعة بحثه عن العصابة ؟

و أحس بمغص في بطنه توقعا لما قد يفسر عنه استنطاق المفتش .. ماذا لو أثار شكوك العميد حول أجهزة الدار الجهنمية ؟ فرغم احتياطاته الدقيقة ، وانغلاق الأجزاء السرية منها عن أي تفتيش سطحي فقد تتطور الأمور ، و تسلط عليه الأضواء الصحافة ، و يطالب أحد الأعضاء البرلمان بالتحقيق في الاشاعات.

و حتى لو لم يسفر البحث عن شيء فسيكون مستحيل عليه أن يحيا حياة طبيعية بين الناس..

و أحس بشيء على ركبتيه أخرجه من الهدير و الصغير الذي كان يملأ دماغه فرأى " يد أسماء " الصغيرة تلمس ركبته ، و وجهها الملائكي ينظر إليه بفم مفتوح على سنين صغيرتين بفكها الأسفل ، و هي تبتسم له ابتسامة مضيئة .. و انحنى فالتقطها من الأرض ، و ضمها إلى صدره بشوق الخائف على فقدانها..

و لاحظت زينة ذلك فأحست بغريزة الأنثى و بطريقة غامضة ،
بأن هناك خطرا يهدد حياتها أو حياة ابنتها..

—فيم تفكر ؟

فوضع اسماعيل الطفلة على ركبته:

—قلت لك لا أفكر بشيء .. لماذا ؟

—أتمنى لو أستطيع مساعدتك على ما يقلقك ؟

—لا يقلقني شيء بالمرة .. ماذا تعنين ؟

فأجابت غير مقتنعة:

—وجهك مرآة واضحة لمشاعرك ! أنت ممثل فاشل..

فابتسم و فقال و هو يتفادى عينيها:

—قد تكونين على حق .. هناك شيء يشغل بالي .. و لكنك لا
تستطيعين مساعدتي.

—جربني.

—قريبا ستصل إحدى اللجان المهمة لتفتيش مشروع منازل

المستقبل الذي قلت لك عنه .. و يهمني أن يكون انطباعها عنه
إيجابيا .. و إلا ذهب تعب كل هذه السنوات الخمس الأخيرة أدراج
الرياح.

فقلت مطمئنة و قد زال عنها بعض القلق:

— لا تقلق من هذه الناحية .. أنا متأكدة من أنه ليس في الدنيا
مهندس يتقن الأشياء مثلك..

و رن التلفون فوقف اسماعيل و كأنما فوجيء ، و وضع اسماء
على قدميها الصغيرتين ، و لاحظت زينة رعدة خفيفة على يده و
هو يلتقط السماعة:

— ألو .. أهلا .. السيد العميد .. الحمد لله .. متى ؟ سأنتظرك ..
إلى اللقاء..

و وضع السماعة ببطء شديد و كأنه يجتر أصداء كلمات عميد
الشرطة.

وضعت حليلة صينية القهوة أمام اسماعيل و عزوز عميد
الشرطة ، على المائدة الحديدية البيضاء بالشرفة المطلة على
الحديقة ، و انسحبت فتناول اسماعيل الابريق و صب لضيغه ثم
لنفسه .. و عاد العميد إلى استئناف حديثه:

— في الحقيقة لا يمكن إجراء أي تحقيق مع المتهم . فهو في
حالة انهيار عصبي تام.. و كل ما يصدر عنه هذيان لا يمكن أخذه

مأخذ الجد.

و رفع اسماعيل ابريق الحليب و أشار إلى العميد ، فحرك هذا رأسه بلا ، فوضع الابريق ، و سأل:

— وماذا يهذي ؟

و رشف العميد من قهوته السوداء المرة:

— هذا هو ما جئت إليك من أجله .. إذا كان لهذيانه أصل في الواقع ، فربما وضعنا أيدينا قريبا على مفاتيح جريمة طنجة الكبرى..

و وضع اسماعيل فنجانه في الصحن بيد مرتعشة ، فأضاف العميد متجاهلا اضطرابه ليجنبه الإحراج:

— يبدو أن للمفتش عبد الحق بن جليل - و هذا بيننا - و زبيدة كذلك ، يدا في تحريض العصابة على اقتحام دارك أثناء غيابك .. و في كل ما جرى..

و تنهد رجل الأمن ، وهو يحاول أن يبسط الحقيقة أمام صديقه دون أن يهيج أشجانه:

— يبدو أن زبيدة تحمل حقدا مريرا على " كارين " لزوجها منك . و تعدى شعورها مرحلة الحقد العادي إلى رغبة جنونية في الانتقام منها ، و إزالتها من طريقك لعلك تعود إليها .؛ و جاءت

الفرصة حين ظهر عبد الحق على المسرح ... حين صارحها بحبه ، و طلب الزواج منها فاشتترطت رأس كارين صداقا..

و دفن اسماعيل وجهه في يده:

— يا إلهي..

—سامحني إذا قسوت عليك بهذه التفاصيل ؛ و لكن لابد أن تعرف لتقفل هذه الصفحة الدامية ، و تبدأ من جديد .. و قد استخدم المفتش عبد الحق بن جليل عصابة في هذه العملية القذرة .. و يبدو أن زبيدة رفضت الزواج منه بدعوى أن العصابة ربما باحت بهذا السر للشرطة .. فلم يجد المفتش المخدوع بدا من التخلص من أعضاء العصابة واحدا واحدا .. لعلها تطمئن على مستقبلها معه..

"و بينما هو منهمك في البحث عن أعضاء العصابة لتصفيتها ، إكتشف أن زبيدة تكثر الخروج مع المهندس السعودي " امين ناصر " فدفعته الغيرة إلى اللقاء به من نافذة غرفته بالفندق.

"و يبدو أنه قرر في النهاية أن يرغبها على الزواج منه بتهديدها بكشف الغطاء عن كل شيء .. و ربما حتى بإزالتك أنت من الطريق حتى تياس من عودتك إليها.

"و لا ندري ما حدث بالضبط جعله يفقد الأمل و ينهي حياتها .. على كل حال سنعرف فيما بعد ... فقد أحلناه على الطبيب النفساني لعله يعيد إلى حالته الطبيعية . و سوف أخبرك بما يجد

أولا بأول.

و سأل اسماعيل باهتمام:

— ما هي فرص عودته إلى حالته الطبيعية ؟

— حسب الطبيب النفساني ، ليس ثمة أمل . فهو يعتقد أن المتهم مصاب بخلل عقلي حاد ، و ليس انهيار عصبي عاد.

و صفق اسماعيل في داخله للخبر ، و أضاف العميد:

— لذلك لم ندع شيئا من تصريحاته يتسرب للصحافة .. فهي تصريحات شخص غير مسؤول..

و رشف بقية قهوته ، و وقف ينظر إلى الحديقة الخضراء ، ثم التفت إلى اسماعيل:

— بالمناسبة ، ذكر المتهم دارك في هذيانه عدة مرات مرتبطة بخطة خيالية لاصطياد اللصوص .. أو القبض على عصابة طنجة ، أو شيء من هذا القبيل.

و هبط قلب اسماعيل ، و لكنه بقي صامتا ، فالتفت العميد نحوه و أضاف:

— طبعا ، لم يصدقه أحد .. و قد فسر إلي الطبيب النفساني الذي يعالجه ذلك بأن المتهم يسعى بدافع الغيرة اللاشعروي ، إلى

الانتقام منك عن طريق اتهامك بجريمة ما .. و هذا أول ما خطر
في خياله المريض.

و أطرق لحظة ثم قال:

—هذه مناسبة لتطلعني على مرافق الدار .. فهل عندك وقت
لذلك ؟ كل ما أعرفه منها هو هذه القاعات ...فبلغ اسماعيل ريقه
:

—عندي كل الوقت .. مرارا اقترحت عليكم التجول في بقية
المنزل فكنتم تفضلون الجلوس مع الجماعة للعب الورق أو
الحديث .. و المهندس كالفنان .. لا يصح أن يفرض إنتاجه على
الناس ، و خصوصا على أصدقائه..

و قاده اسماعيل في جولة مفصلة على جميع مصالح الدار ، و
العميد يدقق النظر في كل ركن ، و يلمس كل شيء و يفتح كل
باب ، و اسماعيل يشرح له متعمدا الاطالة و الاسهاب ، مما
اضطر العميد إلى النظر إلى ساعته مستعجلا اتمام الجولة
لالتحاق بعمله..

و ودعه اسماعيل على الباب ، و نواقيس الانتصار ترن في إذنه
، قائلا:

—أنا آسف إذا كنت خيبت أملك.

فنظر إليه العميد مقظبا ، فلاحظ مشروع ابتسامة شاحبة في عيني

إسماعيل فاستفهم:

—لماذا؟

—لعدم وجود آلة أو مصيدة اللصوص التي قال عنها المتهم.

فضحك العميد:

—و أنا آسف كذلك .. كانت ستسهل علينا مهمتنا كثيرا .. ففي
مدينتنا آلاف الفئران البشرية..

—ها هي فكرة ، للمستقبل ربما.

و مد رجل الأمن يده ليصافح اسماعيل مودعا ، و قد عادت إلى
وجهه نظرة الجد المهنية:

—عزيزي اسماعيل ، أرجو أن يكون فيما أخبرتك به عن مصير
عصابة طنجة بعض الغزاء عن مصابك .. و أن تقلب هذه
الصفحة ، و تبدأ حياتك من جديد.

و ضغط اسماعيل على يد العميد شاكرا ، و أقفل هذا باب سيارته
.. وانطلق..

و تلاشى المغص الحاد من بطن اسماعيل ، فاقفل الباب ، و دخل
يصفر لحننا مرحا..

و في المساء نزل إلى جناح زينة .. فطبع قبلة خفيفة على أنفها ،
ثم انحنى فالتقط أسماء .. و رفعها في الهواء و هي تقهقه سعيدة
به ..

و دخلت زينة المطبخ تعد العشاء بينما استلقى اسماعيل على
السريـر و أجلس الطفلـه على بطنه ليلعب معها لعبة الحصان ، و
نظرت إليهما زينة من المطبخ ، و تنهدت هائلة مغتـبـطة ..

و نامت الطفلة بين ذراعيه فوضعها في مهدها ، و غطاها ،
وانحنى يتأمل قسـمات وجهها الناعمة الهائلة في نومها الآمن
البريء . وأحس بفيض هائل من الحنان يغمر قلبه ، و بدفء
التفاؤل بشفاء نفسه من سقمها الخفي ..

و أحس بيد زينة ناعمة على ظهره فالتفت ليجدها هي الأخرى
تنظر إلى وجه الصبية الناعمة بمحبة و إعزاز .. و وقف
اسماعيل ، فطوق خصرها بذراعيه ، و نظر إلى عينيها
المتسائلتين ، و تفاداهما بقبلة على جبينها ..

و في صباح الغد أفاق على عكس ما كان يتوقع .. أفاق منقبض
النفـس و قد عاود الظمأ إلى الدم ..

و وقف يضرب الحائط بقبضتيه ، ويغـمض عينيـه في محاولة
يائسة لاغـمـاض العين الداخلية الجاحظة المنتفخة العروق توشك
على الانفجار ..

و في الحمام وقف ينظر إلى وجهه في المرآة ، و يتساءل:

"لماذا ؟ لماذا ؟ لقد ذهبوا جميعا .. قتلوا ، أو جنوا ، فماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟"

و تذكر واحدا منهم في مراكش ، فقرر السفر إليه في الحال..

و بمجرد نزول الطائرة بمطار المنارة قصد الدار .. و وجد الأسير في حالة ضعف و يأس شديدين ، رغم توفر المواد الحيوية لديه . ورمش عينيه في الضوء ، و حاول الكلام.. و لكن يبدو أنه فقد صوته من طول سكوته.

و لم يمهله إسماعيل حتى أن يدير له أسطوانة الاستعطاف و الاستجداء ، و قال له:

—جئت لأخبرك بأن صديقك " حشلاف " قد أطلق سراحه من السجن و هو الآخر قد قتل في حادث سير على يد نفس الشرطي الذي قتل رئيس عصاباتكم " الرداد " .. و لم يبق على قيد الحياة إلا أنت.

فنطق الأسير بصوت مبحوح محشرج:

—ربما كان في ذلك خير .. سأبدأ أنا حياة أخرى بعيدة ع ن الجريمة و أولاد الحرام..

فأحس اسماعيل بعين مخه الجائحة تقهقه سخرية و عربة من آمال هذه الكتلة الحية الملطخة بالدم .. و وضع اسماعيل اصبعه

على الزر الأحمر ، و قال:

— بكل تأكيد .. و سوف أعمل على ابعادك عنهم بصفة نهائية ،
و حتى لا تتعرض للاغراء مرة ثانية.

و ضغط الزر فانفتحت البئر تحت قدميه ليغطس فجأة في لجة
اللهيب السائل..

و أغمض إسماعيل عينيه ، و قد بدأ التوتر الحاد ، و الهدير
المتواصل ينسحب من رأسه و ينسل كظلام الليل من ضوء
الصباح .. و تقلصت العين الجاحظة و نامت هي الأخرى في راحة
و استرخاء..

و عادت إليه خفة نفسه و مرحها ففكر في إخبار زينة بأنه عائد
ليتغذى معها .. و على جانب الخط الآخر كانت تنتظره مفاجأة
مريعة..

جاءه صوت زينة مذعورا صارخا يائسا:

— أسماء ! بنتي أسماء يا اسماعيل!

— ما بها ؟ ماذا أصابها ؟ تكلمي!

— ضاعت .. ضاعت!

— ماذا تعنين بضاعت ؟

—بحثت عنها فلم أجدها..

و انفكت قليلا عقدة أحشائه حين تأكد من أن " ضاعت " لم تكن
تعني " ماتت " إذن هناك أمل...

—أين ضاعت ؟

—لا أدري .. اطلعتها إلى السطح لتتمشى ، و حين رفعت عيني
عن التريكو لأنظر إليها لم أجدها .. اختفت .. كما لو انشقت من
تحتها الأرض .. أرجوك اسماعيل تعال الآن . أين انت ؟

و لم يخربها بأنه في مراكش حتى لا يضاعف بأسها:

—أنا قادم حالا .. إبحثي عنها..

انتهى البارت..

دمتم في أمان الله..

انتظروني يوم الجمعة إن شاء الله..

لقراءة الجزء 20 و الأخير..

الجزء 20 (الأخير:)

و وضع السماعة و خرج يعدو و قلبه يدق بعنف، و وقف وسط الطريق لسيارة خاصة يستوقف صاحبها و يتركبه غير عابىء بالخطر المحتمل .. و وقف السائق ثائر الأعصاب فأنحنى اسماعيل على نافذته:

—سامحني .. أرجوك .. طفلتي الوحيدة في خطر .. خذني إلى المطار .. أرجوك..

و هدأت ثورة الرجل في الحال فمد يده و فتح الباب:

—أدخل يا سيدي.

إنطلق نحو المنارة..

و حطت طائرته الصغيرة بمطار " أنفا " و نقلته سيارة المطار إلى بيته ، و هو يغالب الرغبة في الصراخ للتنفيس عن توتر أعصابه ، و يداعب الأمل في أن تكون زينة وجدت الصبية..

و لكن شكا قاتلا كان يلح عليه في أن تكون طفلته وقعت في أحد الفخاخ .. خرجت تحبو من فجوة ما في السور الزجاجي ، و ابتلعها البالوعة الكبرى ، و إذا صح ما توقعه .. يا ويلتاه!

و أغمض عينيه ليجد صورة حبيبته الصغيرة على شاشة خياله الهائلة و هي تتعرض للاستنطاق الآلي ، و التعذيب الذي يتجاوز الاحتمال البشري..

و عذبه ازدحام المرور . و لم يصل إلى داره حتى كاد يفقد عقله.

و فتح الباب بيد مرتعشة ، و صعد يعدو إلى السطح ، و فتح الباب فهرعت إليه زينة مشيرة إلى ثقب في السور:

—لابد أنها خرجت تحبو من هنا ووقعت لا أدري أين.

و انقلب هو راجعا فتبعته المرأة الهالعة ، و قد شحب وجهها و تحول إلى وجه امرأة ميتة تتحرك.

و في القبو الأسفل فتح باب غرفة الاستنطاق ، و ضغط على أزرار النور فظهرت الطفلة لحسن حظهما جالسة تبكي ، و قد بدأت أضواء الاستنطاق تعلن نهاية الجلسة..

و ضغط اسماعيل على أحد الأزرار ، فانفتح الباب الزجاجي ، و اختطف الطفلة بثوان قبل أن تنفتح الأرض الجهنمية تحتها .. و ضمها إليه .. و اخرجها لأمها التي أخذتها منه هي الأخرى ، و ضمتها إليه و وقفت ترتجف و تنتحب..

و فجأة .. و دون توقع . أحس اسماعيل بالبلل على خذيه .. و مد يده فمسح عينيه و انتظر لحظة معتقدا أنها دموع الطفلة على وجهه .. و لكنه شعر بأنابيب الدمع التي كانت مقفلة مصمتة منذ صدمته الأولى في " كارين " و الطفلة ، و قد بدأت تنفتح و بالدمع ساخنا يتدفق بغزارة فيغرق عينيه و وجهه.

و زغردت بلابل السعادة في أعماقه بأصوات لم يسمع مثلها منذ

قابل " كارين .. "

و ود لو اختلى بنفسه ليستمتع بدموعه مع صورة كارين و
كريمته في غرفة نومه ليبيكهما .. ليودعهما و ليطفىء الحريق
الهائل الذي اشتعل بداخله منذ عودته من تلك الرحلة المشؤومة

..

و تحرك ليصعد ، فأمسكت زينة بتلابيبه ، و شرر الجريمة
يومض في عينيها و خاطبته بصوت فولاذي بارد:

—أريد أن أخرج أنا و ابنتي من هنا الآن .. لن أمكث في هذه
الدار دقيقة أخرى .. هل سمعت ؟

و دفعته نحو الحائط صارخة:

—أنت مجنون .. هذه المصيدة الكبرى لا يبنيتها إلا مجنون..

و دفعته بعنف ضد الحائط مرة أخرى:

—أسمعت ؟ مجنون .. أقتلني إذا أردت..

فأمسك إسماعيل بيدها برفق:

—سنخرج .. سنخرج جميعا يا زينة .. الآن إذا شئت .. و
تستطيعين أن تنادينني بالمجنون متى أردت .. فقد كنت مجنونا.

و تركت زينة صدره و مسحت عينيها بكفها ، و نظرت إليه غير
مصدقة:

— أنت تبكي.

و مدت يدها فلمست بأصابعها خده ، و ارتعشت شفتاها ، و هي
تهمس لنفسها:

— و لكن المجانين لا يكون..

فمسح اسماعيل عينيه بمنديله و اعاد:

— نعم ، المجانين لا يكون..

و مدت أسماء يدها الصغيرة إليه تريده أن يحملها ، فابعدتها زينة
عنه ، و قد زاغت عيناها ، و أحاطت بهما زرقة الإرهاق و
الرعب..

و نطق اسماعيل مشيرا إلى الباب:

— جميع الأبواب مفتوحة..

فنظرت خلفها إلى الباب ثم إليه غير مصدقة ، و تحركت تصعد
الدرج إلى القبو الأعلى ثم إلى وسط الدار .. و وقفت تنتظر
حواليها حتى وقعت عيناها على الباب المشبك بالحديد و الزجاج
الملون .. فأسرعت نحوه ، و وضعت يدا وجلة على المقبض ، و

جذبتة فانفتح الباب .. ونزلت الدرجات الرخامية الأربع بسرعة ،
و خرجت من البوابة الخارجية التي كانت ما تزال مفتوحة على
مصراعيها ، و أطلقت ساقها للريح قاصدة طريق السيارات العام

..

و توسطت الغابة و أخذت تنظر حوالها في توجس .. و أخذت
الطفلة تبكي فلمست الأم مقعدها فإذا به بلل .. و تذكرت أن الطفلة
جائعة و تحتاج إلى تبديل الخرق و الأكل ، و النوم..

و قصدت شجرة فجلست تحتها ، و أزاحت الخرق الوسخة عن
الطفلة لترتاح ، و لتفكر هي فيما ستفعله بنفسها..

و هنا ظهرت سيارة إسماعيل تدرج على مهل ، فتوقف إلى
جانبها ، و خرج إسماعيل بسلة فيها جميع أمتعة الطفلة و
طعامها..

فوضعها أمامها قائلا:

—فكرت في أنك ستحتاجين إلى هذه..

فمدت يدها نحو السلة مسبلة جفنيها:

—شكرا..

و ناولت الطفلة قطعة بسكويت أخذتها هذه إلى فمها بشراهة ،
بينما هي تغير خرقها ، و إسماعيل ينظر إليهما من فوق .. و في

النهاية نطق:

—زينة..

فلم ترفع رأسها ، و لم تجب..

—زينة .. أنت حرة الآن ... و أريد أن أسألك سؤالا كامرأة حرة ..

و ظلت صامته .. ففقد إلى جانبها ، و سأل بصعوبة:

—هل تتزوجيني ؟

و أجابت بجفاف دون أن ترفع صوتها:

—كلا..

فسرت في بدنه قشعريرة:

—لماذا ؟

و لم تجب..

—و أسماء ؟

—أسماء بنتي أنا..

—هل ستعيش بلا أب ؟

—ليس شغلك..

و لعق شفتيه بلسانه مستعدا لرد فعل عنيف منها ، و قال:

—إذا كنت تعتمدين على مجاهد .. فقد ذهب .. أعني إلى حيث لا يعود..

فقالت دون تأثر:

—أعرف ذلك..

فتهد مرتاحا ، و أضاف:

—زينة .. اطلبي مني ما تشائين ، و لكن لا تتركيني .. أسمعت
؟ ما تشائين..

فتوقفت عما كانت تفعله ، و رفعت رأسها نحوه:

—ما أشاء ؟

—نعم ، كل ما تريد..

و اقترب منها و أمسك بيدها:

—أنا آسف على كل ما حدث مني .. و أريد أن أعوضك على
سجنك الطويل و معاملتي القاسية لك..

فسحبت يدها من بين كفيه:

—حسنا . إذا قبلت شروطي ، فلا مانع عندي .. أريدك أن تقفل
هذه الدار و جميع الديار التي بنيتها على هذا الطراز.

فأجاب متحمسا:

—سأفعل .. ثم ماذا ؟

—أن ننتقل من هذه البيئة الموبوءة إلى مدينة أو قرية بعيدة
عن ذكرياتنا أنا و أنت ، حتى يسهل علينا النسيان ، و البدء من
جديد.

فأمسك بيدها و قبلها .. و قد اغرورقت عيناه ، و هو يردد:

—أحبك .. أحبك جدا يا زينة..

و التقطت هي الطفلة من فوق العشب ، و ناولتها إياه:

—خذ ابنتك..

و نظر إلى الطفلة ، و دموع السعادة تتلأأ في عينيه ، و قبلها ،

و قال لزينة:

—أريد أن أريها لأمي.

—و أنا كذلك ، لماذا لا نسافر هذا المساء ؟ نبيت الليلة في دوارنا بالسبت قرب العرائش ، و في الصباح نكمل الطريق إلى طنجة ؟

—أليس الأفضل أن نخبرهم أولا ، حتى نعدهم للمفاجأة ؟

—هذه مفاجأة سارة.

ثم أضافت:

—و في قرينتنا لا يوجد بريد و لا تلفون ، إلى جانب أنني لا أريد أن أعود إلى تلك الدار (مشيرة إلى دار اسماعيل).

و انطلقت بهم السيارة نحو وسط مدينة الدار البيضاء ، و توقف إسماعيل على باب عمارة تجارية ، و دخل ليخرج ، بعد ساعة ، و خلفه حمال يحمل حقيبتين مثقلتين بالهدايا وضعهما في صندوق السيارة ، و انطلق نحو الطريق المزدوج المتوجه نحو الشمال.

و حين ترك ازدحام المدينة وراءه ضغط على أحد أزرار الراديو فامتلات السيارة بموجة حالمة من الموسيقى الكلاسيكية من إذاعة البرتغال القريبة.

و ساد الصمت ، فسرّح اسماعيل يفكر و يخطط لحياته الجديدة ،
فكر في العودة إلى طنجة و لكنه رفض الفكرة في الحال . يستحيل
أن يتعايش مع ذكرى حبيبتيه الراحلتين.

و فكر في مراكش.

مراكش جميلة و دافئة ، و لكن لا بحر لها ، و هو ابن طنجة ،
ابن بحرين ، المحيط و الابيض.

و قفز ذهنه بسرعة جنوبا إلى أكادير ، المدينة الشابة التي انبعثت
من جديد ، من تحت انقاضها بعد زلزال 1960 ، وقامت من
رمادها كطائر الفينق الأسطوري العجيب!

و همس لنفسه : " أكادير إذن " !

و نامت الطفلة في حجر زينة فسرحت هي الأخرى تسترجع صور
ماضيها القديم و الحديث.

و في غابة الصفصاف و الفلين الكثيفة بين مدينتي القصر الكبير
و العرائش ، عاودها حنين قوي إلى مرابع صباها ، كانت تقترب
بسرعة من قربتها النائمة بين الصخور.

و تتابع الصور في مخيلتها حتى توقفت عند الحاج عبد القادر
الغمبري ، فلم تتمالك من إطلاق ضحكة مكتومة.

و التفت اسماعيل مبتسما لسرورها و متسائلا عن سببه ، فقالت

:

—تذكرت الحاج الغمبروري.

—و من يكون صاحب هذا السم العجيب ؟

فقالت بمرح:

—أول غرام في حياتي!

—لم تقولي لي عنه شيئا من قبل.

—لأن هذه أول مرة أتذكره ، حين اقتربنا من " السبت. "

—أي غرام أول هذا الذي لا تتذكرينه إلا حين تقتربين من قريته ؟

فضحكت:

—لأنه كان غراما من طرف واحد.

ثم أضافت:

—حين أفكر فيه الآن أجد أنني مدينة له بلقائنا.

—كيف ؟

—لأنه كان السبب في هروبي من القرية صحبة مجاهد.

و تنهدت تنهدا مكتوما ، و أضافت:

—الغمبوري رجل في سن أبي أو جدي ، عشقتي منذ صباي ، و كان يخصني بعطف خاص ، و خصوصا بعد وفاة والدي ، كان يأتينا بالهدايا كلما نزل إلى المدينة ، إلى العرائش أو أصيلا ، و حين بلغت الرابعة عشرة جاء يخطبني من والدتي ، فرفضت أولا بحجة أنه رجل متزوج ، فعرض أن يطلق زوجته.

فحرك إسماعيل رأسه:

—إلى هذه الدرجة!

—بل أكثر! لم تستطع أمي و هي الأرملة الفقيرة مواجهته بالرفض القاطع ، لكبر سنه ، و صغري ، لعلو مقامه في القرية ، و غناه العريض ، فالتجأت إلى الحيلة معه ، و فكرت في انها إذا اشترطت عليه مهرا غاليا فإنه سيتراجع.

و توقفت لتسأل:

—أتعرف كم طلبت أمي مهرا لي ؟ نصف ثروة الرجل ! و صدقني إنها ثروة واسعة.

—و ماذا كان جوابه ؟

—قبل دون أن يرمش ! بدون تردد يذكر!

و تنهدت:

—مسكين!

—و ماذا فعلت والدتك ؟

—والدتي بهتت ، ولم تكن تتوقع أن يقبل ، و وجدت نفسها فجأة تملك ثروة لم تكن تحلم بها ، وقبلت هي الأخرى ، و وعدته بإقناعي.

و أغمضت عينيها:

—مسكينة!

—وكيف انتهت الحكاية ؟

—حين أدركت أنا أن أمي مصرة على تزويجي منه ، تظاهرت أنا الأخرى بالافتناع و بكيت طوال الليل ، و باتت أمي الحبيبة تسليني بأحلامها بأنني سأعيش حياة الترف و الهناء ، و أن الحاج الغمبوري رجل كبير السن ، و سيموت قريباً ، و أرث أنا ثروته ، و أتزوج بعد ذلك من أشاء.

"و لكن صورة الغمبوري بضخامة جثته ، و بشاعة وجهه ، و

رثاثة هندامه ، و عفونة جوفه كانت تطاردني كشبح مخيف.

"و جاء يوم السبت ، يوم يعمر السوق ، و خرجت الوالدة لقضاء بعض حاجاتها و بقيت وحدي ، و بينما أنا أفكر في مصيبتني إذ دخل علي " مجاهد " لا أدري كيف سمع بما حدث ، فجاء من العرائش ، حيث كان يزاول بطالته و حيث كنا ندرس معا ، قبل وفاة والدي ، و قبل سقوطه و طرده . اختلط بالمتسولين حتى لا يراه الحاج الغمبوري الذي كان يعرف علاقته بي ، علاقتنا كصبيان ، و لكنه كان شديد الغيرة من كل من ينظر إلي من جنس الذكور.

"دخل على مجاهد متخفيا في جلباب صوفي قديم . في المدينة كان يلبس ملابس العمال ، و بدون مقدمات قال لي أمرا " إجمعي ملابسك! "

"و لم أتوقف ، أنا الأخرى ، لحظة لأسأل . جمعت ملابسي القليلة في صرة ، و لبست جلبابي و وقفت أنتظر أوامره . و نظر إلي و قال : " الأحسن أن تتلحفي ، جلبابك معروف في القرية . "

"و التحفت و تثلثت ، و خرجنا رأسا إلى موقف السيارات حيث كانت سيارة أجرة تنتظرنا ، و ركبنا نحن الاثنين فقط فانطلقت بنا نحو العرائش.

"و منذ ذلك العهد ، لم أعد حي الآن.

"كتبت لوالدتي طبعاً حتى أطمئنها على سلامتي ، و أشرح لها
سبب هروبي ، و لكن لم أبعث لها بعنواني ، و لم أستقر منذئذ
بمكان حتى أبعث لها بعنوانه "

فحرك إسماعيل رأسه غير مصدق:

— يا لها من مغامرة ! يا ترى ماذا فعل الله بالغمبوري ؟

— ذلك ما أود معرفته ، لا بد بأن ذكراري تلاشت في ضباب
شيخوخته!

و مع الغروب وقفت السيارة الفخمة بساحة المسجد بقرية السبت
، و تجمعت حولها جوقة من الصغار الحفاة الحليقي الرؤوس ،
يشع الفضول الصبياني من عيونهم المتطلعة.

و قصدت ثلة من الفتيات الأكبر سناً دار زينة ليخبرن أمها
بوصولها:

— جاءت زينة .. صحبة رجل وسيم ، و طفلة جميلة في سيارة
من فضة خالصة.

و أتزرت الأم بمنديل صوفي مخطط بالأحمر و الأبيض ، و غطت
رأسها بفوطة حمام كبيرة ، و خرجت من الغرفة المبنية بالطوب
، و المسقوفة بالقصدير ، و المبيضة بالجير و النيلة لتقف على
باب الحوش الشوكي الذي تقف فيه أغنامها.

و ظهرت زينة و خلفها إسماعيل يحمل أسماء ووراءها ما تبقى
من سكان القرية الصغار.

و عانقت زينة أمها ، و بكت من التأثر ، و عاجلتها ابنتها
بطريقتها الخفيفة الأسرة التي حبيبها إلى اسماعيل في أول لحظة
رآها:

—للا أمي ، هذا زوجي ، إسماعيل ، و هذه طفلتنا اسماء.

و صافحت الأم اسماعيل و قبل يدها ، و نظرت زينة حواليتها الى
الوجوه الصغيرة من خلال بلل عينيها ، ثم تبعت أمها إلى داخل
الغرفة مشجعة إسماعيل على الدخول هو الآخر.

و في منزل آخر من منازل قرية السبت وقف الحاج الغمبوري في
غرفته . حين سمع بخبر عودة زينة أحس بموجة حرارية تغلف
جسده و بقلبه يدق لسماع ذلك الاسم الذي طالما هيج مشاعره ،
و اقترن في ذهنه بقمة السعادة أولا ، حين كان يراقبها و هي
برعم يتفتح ، و ينضج ، و يمني بها نفسه حالما تصل السن
المطلوب ! ثم بتحضيض الشقاء و الالهانة حين رفضت الزواج
منه رغم تنازله لأمها عن نصف ثروته ، و عرضه تطليق زوجته
أم أولاده ، من أجلها!

و عاودته جميع مشاعر الحسرة و الألم القديمة يوم علم بفرارها
في جوف الليل خشية ضغط أمها عليها للزواج به.

و نظر إليه راعيه الذي جاء بالخبر:

—ماذا تنوي أن تفعل ؟

و لمس الحاج الغمبوري نبرة تحد في سؤال الراعي ، فصرفه
بحركة من يده ، و أخذ بذرع الغرفة الطويلة جيئة و ذهابا .

و فجأة توقف ، و نادى باسم الراعي الذي كان يتعشى على السكة
خارج الغرفة :

—إسمع ، إذهب إلى منصورة ، و قل لها تدور على جميع بيوت
القرية تخبرهم بعودة زينة متزوجة ، و تطلب منهم الذهاب لتهنئة
أمها .

—نعم ، آسيدي !

و هم بالذهاب ، فاسترجعه الحاج :

—تعال ، و انزل حالا إلى النادر وعد بالجرار و المحراث الكبير
، وانتظرنني في الغابة الصغيرة على الطريق ، اسمع .

و توقف الراعي ..

—لا تقل لأحد إنني أمرتك بهذا ، سمعت ؟ لا تتكلم مع أحد .

—كن هاني آسي الحاج .

و انطلق يعدو إلى دار القابلة منصوره.

و في ظرف نصف ساعة امتلأت غرفة أم زينة الوحيدة بالمهنئات من سيدات القرية ملفوفات في الحفهن الصوفية ، مما اضطر إسماعيل إلى الخروج إلى وسط الدار ، و تبعته زينة محرجة ، فاقترح عليها بأن يذهب إلى العرائش لقضاء الليلة بأحد فنادقها ، فرحبت بالفكرة.

وودعته على باب السيارة على أن يعود في صباح الغد.

و تدرجت السيارة من فوق هضبة (السبت) على طريق منحدر ضيق مترب نحو سهل نهر (لوكوس) ينعرج بين الصخور الضخمة ، و أشجار التشت المتناثرة تحت ستار كثيف من الظلام

.

و توسط الغابة الصغيرة التي كانت أغصان أشجارها تمتد إليه ، حين يمسيها نور سيارته ، كأيدي حيوانات أسطورية غريبة ، فأحس بالوحشة و أخذ يستعجل الوصول إلى الطريق العام.

و لمح فجأة بطرف عينه اليسرى شيئاً يتحرك بجانب الطريق ، فالتفت فإذا محراث من النوع الثقيل يدخل عليه السيارة من النافذة ، و يمزق راكبها و يعجنه مع جلد الكراسي ، و حديد الباب!

و نزل الحاج الغمبوري من فوق الجرار ، و تبعه راعيه ، ليتأكدا من موت غريمه ، و ما كادا يقتربان من السيارة حتى انفجر

خزانها و قذف بهما فألصقهما أشلاء دامية مع عجلات الجرار ،
و جذوع الأشجار.

و سمع سكان قرية السبت دوي الانفجار ، فخرجوا من بيوتهم
ليقفوا على حافة الهضبة ، و ينظروا إلى النار تلتهم الحديد و
الأشجار.

و سمعت زينة الانفجار فأحست بمغص حاد في بطنها ، و بفراغ
في صدرها و ركبتها.

و في طنجة ، وقفت تنظر مخدرة إلى بقايا اسماعيل توضع في
قبره داخل تابوت بمقبرة المجاهدين.

و حين تفرق الناس ، اقتربت من القبر ، و انحنت تغرس على
رأسه باقة من العطرشة ، ثم جلست على حافة القبر المجاور و
غرقت في التأمل.

و أيقظها من سهوها ظل طويل على القبر فرفعت عينيها ، فإذا
بوالد اسماعيل تماما كما عرفته في الصورة التي رأتها في داره.

— ماذا تفعلين هنا يا بنتي ؟

و وقفت تنتظر إليه ثم إلى الأرض محرجة و أجابت:

— لا شيء .. لا شيء بالمرّة..

فسأل الرجل الحزين:

— أنت زينة ؟ أليس كذلك ؟

فبلعت غصتها و حركت رأسها بنعم ، فمد الرجل المهيّب يدا في رقة و رشاقة يدي اسماعيل ، و وضعها على كتفها:

— تعالي يا بنتي ، تعالي..

و انتهى اسماعيل.

و لكن عهد اسماعيل لم ينته ، فقد بقيت منازل المستقبليّة قائمة في جميع أطراف المملكة تنبض بالحياة ، تشع بالإغراء ، و تجذب اللصوص و القتلّة و قطاع الطريق ، كما تجتذب بعض نباتات الأمازون الجارحة الحيوانات و الحشرات ، فتتسد عليها و تعتصرها ، وتمتص دماءها و تفترس لحومها ، بينما الشركات

المساهمة في بنائها تتجادل حول نصيبها من ملكيتها ، و تتنازع
في حل الشبكة القانونية المعقدة التي ذهب بعض المحامين إلى
القول خفية بأن اسماعيل تركها كذلك عمدا.

انتهت.

محمّد بن عبد الله